بولس سلامه



دار الحضارة

الطبعة الثانية
١٩٦٣

المقدّمة

هذا كتاب ، من نفثات الامس القريب ، نتوقـّع له اليوم اشراقة حلوة ... لا لكونه عصارة تجارب نجحت في بلورة مواضيع فلسفية من الحياة – خلال قلم كلاسيكي طريف – وحسب ؛ بل لان حاجتنا اليه ، والى مثله من نتاج الكبار الكبار ، باتت تتزايد يوماً بعد يوم .

في «حديث العشية» عرف بولس سلامه ان يتخلـّى عن ذاته، وهو الأديب الشاعر، ليتمادى في واقعيّة تترّصن منقّبة عن الحقيقة في بعض ما لها من مظاهر . من هنا هذه النضارة التي تطالع القارىء، في كل نبرة ، مشرقة من غير تكلـّف ، فكأنها الصفحة الزرقاء ترصّعها النجوم في أصفى العشايا .

وثمّة صعوبة راح يجابهها القلم الفذّ ، لدى تحكـّكه بمثل هـذه الموضوعات بغية ايضاحها والزيادة عليها . لغة الضاد ، ومـا اشدّ تقصيرها في استيعاب الفكر ، لغة طالما ضيّقت السبل على الباحثين . على ان بولس سلامه يوفـّق ، بعد جهد ، الى تطويعها ، حتى لنخالها في احاديثه عريقة في المباحث . واجمل ما في هذه المحاولات انـّها نقطة

الانطلاق لتركيز ما تلاها من دراسات عالية الرأي، في الحقبة الاخيرة من حياة الفكر عندنا .

« حديث العشية » كتاب لا يموت لانه اطلالة على العالم في مدى الاخذ والعطاء : يفيد صاحبه من كل تيّار ويعطي في النهاية من منبع ذاتي . ولأنّ بين دفتيه من التشويق ما ينزل الفكر الى مستوى العامة ، فلسوف يظلّ من أنفس ما في المكتبة العربية من روائع .

الناشر

تصدير للمؤلف

ما كنت احسب يوم انشأت هذه الاحاديث انها ستلتقي في كتاب ، ولو توقعت ذلك لألّفت بينها كما يؤلف الباني بين شتيت الحجارة . اما وقد جمعت فلعل في هذه الحصى البديدة واحدة يستحسنها البناء لدعم حجر الزاوية .

والأحاديث ،بل الكلمات الخاطفة التي تمر بها ايها القارىء ، اذيعت من محطة راديو الشرق التي كلفتني ان اوافيها بأحاديث تتلى بالنيابة ، شرط الا يتجاوز البحث دقائق معدودة . وماذا يستطيع الباحث في لحظة لو أعطيت للطائر الصليب القوادم لما حلق بعيداً ، فكيف به اذا كان مهيض الجناح ؟ [1]

ونظرت في ما تعرضه المحطة يومئذٍ من خُطَب فرأيت اكثرها يدور على القصة او النقد الأدبي ، على اضطراب في المقاييس ، وتباين في الموازين ، فأحببت ان أدير معظم الابحاث على الفكر ، وهو الذي لا امس له ولا غد ، لانه الانسان موصول الماضي بالحاضر والمستقبل . ولقد اقتبست كثيراً من مفكري الغرب ، واضفت كثيراً ، وناقشت ومحّصت، وضربت الامثال وارسلت النوادر لاخرج بالسامع عن

---

(١) اشارة الى مرض المؤلف يومئذ .

التجريد والابهام ، حتى ليخيل اليه وهو يسمع ادق المواضيع واعمقها انه يسمر مع اصحابه في ليلة شتاء يحلو فيها السمر .

وتعمدت سهولة الاسلوب فجعلته اقرب الى البساطة منه الى الاناقة وزخرف القول . فلو كان الموضوع ادبياً بحتاً لألبست الكلام غير هذه الحلة ولكنه الفكر لا قِبَل له بالالوان والصور ، فاذا هي ازدحمت عليه طمرته ، كالورد يلتف على النحلة فيخنقها .

لن يكون في هذا الكتاب نفع للمفكرين الراسخين في العلم ، ولا لأساتذة الفلسفة المصعّدين في آفاق المعرفة ، ولكنني اوقن انه جزيل الفائدة للطبقة الوسطى من المتعلمين ، واجزم ان فيه توجيهاً صحيحاً للنشء العربي ، والنشء احوج ما يكون – في عصر طغت فيه المادة – الى التحصُّن الاخلاقي وتفهُّم القيم الروحية . وقد يجد فيه طلاب البكالوريا دليلاً يقوم – على الأقل – بمهمة الشرطي الواقف على مفترق الطرق ، يتعذر عليه ايصال السياح الى الجبل ولكنه يقيهم مغبة الأخذ في طريق وعر ، فيسلكون سمتاً سوياً يقودهم الى الاعالي حيث الجمال والعافية وفوح العبير .

ولقد افردت باباً للاديان القديمة في هذا الكتاب ، لان الفلسفة لم تنفصل عن الدين الا في العصور الاخيرة ، ولكنها في العصور الاخيرة نفسها ظلت وستبقى ملازمة للدين الى يوم البعث .

فاذا انا عجزت عن اضافة حجر الى هيكل المعرفة ، فحسبي ان اكون في عداد السَدَنة الذين يفتحون الباب للداخلين لا يتقاضونهم اجراً ولا شكوراً وانما اجرهم على الله الذي يرث الارض وما عليها .

بيروت ١٥ كانون الاول سنة ١٩٤٩

بولس سلامه

لمحات في الفلسفة

ماهي الفلسفة ؟

الفلسفة كلمة كبيرة لها وقع في الآذان ، ورهبة في النفوس ، ترنُّ في مسمع الرجل العادي فينفر منها نفوره من دواء مرّ ، فيضع الحاجز بينه وبينها تهرباً من البحث . وقد يختصر رأيه فيها بايجاز فيقول لك بخشونة : وهذه كلمة سمعناها في مناسبات عديدة «اعتنقنا من الفلسفة». ولكن كل الناس يتفلسفون وفقاً لاستطاعة كل منهم في كل يوم ، ابتداء من ماسح الاحذية الوضيع حتى ديكارت وبرغسون. على حد قول الشاعر :

وكل الناس مجنون ولكن على قدر الهوى اختلف الجنون

يتفلسفون وهم لا يشعرون . ويذكرك ذلك برواية هزلية للعبقري الفرنسي الخالد موليير ، وهي رواية المتظرف النبيل (Le bourgeois gentilhomme) اذ يدهش ذلك الغني المتظرف لانه يتكلم نثراً منذ ربع قرن وهو لا يدري انه ناثر . ولا ريب ان اكثر الناس معذورون لتهربهم من الفلسفة لأن الذين اشتغلوا بها اوردوا من المصطلحات والمعميات ما يعسر فهمه على السامع . وقد ينجم هذا الالتباس عن احد اسباب ثلاثة وهي : إما غموض الموضوع في ذاته ، وإما غموض قام في ذهن المؤلف فلم يستطع ايضاحه ، واما تقصير القارىء في الادراك لانه غير مثقف . والحقيقة ان الفلسفة هي حب الاستطلاع اي الشوق للمعرفة . فكما ان للانسان جسماً يقتضيه الغذاء ، فان له عقلاً

يريد ان يتغذى،على فرق بين الجسم والعقل.لان الجسم يشبع فيتخم اذا تكاثرت عليه الاطعمة ، اما العقل فانه يظل في نهم دائم كلما زدته معرفة زادك سؤالاً واستيضاحاً ، لانه متصل باللانهاية. فكلما فتح افقاً تراءى له افق اخر ، وهذا هو السبب في تواضع كبار العلماء اذ يقولون انهم لا يفقهون شيئاً . اما الاميّون وانصاف المتعلمين والسطحيون من البشر ، فانهم يدعون معرفـة كل شيء لانهم لا ينظرون الى ابعد من انوفهم. وعندما وافى الاجل سقراط زعم انه يخرج من الدنيا جاهلاً ، وهو ابو الفلسفة :كان يحادث الناس في الاسواق فيعلمهم الحكمة من اقرب الطرق واسهلها ، لان الانسان يولد نزّاعـاً الى التعلم والاستفهام. وهذه البادرة تشهدها في الطفل اوّل ما ينطلق لسانه بالكلام فيسألك عن الاشياء واسبابها . يرى الثلـج متساقطاً فيستوضحك عن مصدره . ويخرج من الطفولة الى الصبوة فيسألك عن خلق الانسان فتجيبه ان الله هو الخالق ، فيسألك ومن خلق الله فترتبك . وعندما يخوض الأميّون في ابحاث شتى ويتحدثون مثلاً عن الوجدان والواجب والمحبة والغضب والدمامة والجمال والذاكرة والاحلام فانهم يتحدثون فلسفياً ويسمون ذلك كلاماً للتسلية . ولا غرو ان الفكر الاسير في هذا الجسد الحيواني يحتك بالفلسفة كلما اطلّ على الحياة من نافذة ولو ضيقة . والمتهرب من الفلسفة كالهارب من الهواء اذ يفهم بالهواء الريـح العاصفة وانما الهواء يحيط به من كل جانب وهو ينشقه في كل لحظة ، وحياته موصولة به .

ان العلوم المتعددة ادوات للمعرفة ، ولكنها ادوات قاصرة لانها تدلك على الاسباب القريبة ، اما الاسباب البعيدة الاولية فلا يبلغها

الا الحكمة . فالعلم شبيه بالطائرة ترتفع وترفعك الى علو لا يتجاوز بضعة اميال في الجو ، اما الفلسفة فهي كالضياء تطوي الأبعاد وتبلغ المدى العميق الذي لا يستطيعه غيرها لانها العلم الذي ينطلق من النفس فيتصل بالله .

وقد ضلّ في تعريفها فئتان . اما الاولى فهم طائفة من الحكماء الاقدمين الذين حسبوها علماً شاملاً ؛ واما الثانية فهي فئة من الفلاسفة الوضعيين الذين حسبوها علوماً شكلية لا تنطوي على كبير شيء ، وكلا القولين خاطىء والحقيقة هي في الوسط .

اما الاقدمون فقالوا بما ان الحكمة هي محبة المعرفة فيجب ان يعرف الانسان كل شيء . لذلك كان حكيمهم يتصدى للطب والكيمياء والتأريخ والتنجيم وسائر العلوم المعروفة . وظلت الحال على هذا النمط حتى جاء سقراط فوضعها في المكانة التي تستحقها ، فقال انها معرفة النفس والله . وكان قد لمح على باب هيكل أبولون عبارة « ايها الانسان اعرف نفسك » ، فوضعها شعاراً ومنهاجاً للفيلسوف الحقيقي بدلاً من صرف الهمة الى درس النجوم والكواكب .لذلك قال شيشرون ان سقراط انزل الفلسفة من السماء الى الارض . وليست الفلسفة علماً شكلياً فقط كما زعم الوضعيون (Positivistes) اي ان مهمتها تقتصر على تقسيم العلوم وتقرير منزلة كل منها وعلاقته بالآخر . فلقد ظنوا ان تقـدم العلوم كالرياضيات والطبيعيات والكيمياء وما شاكلها ، واستقلالها عن الفلسفة يغنيهم عنها ، ولقد غاب عنهم ان تقدم العلوم لا يوليهم معرفة ما وراء الطبيعة . وعلم المعقولات هذا هو رأس العلوم واساسها ، فانك

اذا شئت انماء الشجرة وتوخيت منها الثمر فلست تتفرغ للعناية باغصانها فقط بل تقضي عليك الحكمة ان تعنى بالتربة التي ترتكز عليها الشجرة فتغذي جذورها لانها الاصل. ولا تستطيع العلوم الاستقلال عن الفلسفة ومن ذلك نشأت الفلسفة الطبيعية لان العالم الطبيعي يرى الواقعات فيرى ان الماء يتألف من الاوكسجين والهدروجين اذا حلله وهذا واقع لا سبب . ونشأت فلسفة التأريخ وهي لا تكتفي بالنظر الى الحادث الفلاني بل الى اسبابه . ومن هذا القبيل نظر العلماء الى ابن خلدون نظرة المؤرخ الفيلسوف لا الكاتب الذي يجمع الواقعات فيرصفها رصفاً . بل كيف يستغني الطبيب عن الالمام بعلم النفس مثلا وهو على ما نعلم فرع من الفلسفة ، فاذا لم يعرف قوى المخيلة (Imagination) فكيف يستطيع معرفة تأثيرها في الجهاز العصبي وادراك ما يحدثه الغضب او الحزن في الانسان ، وقد يفضي به ذلك الى الموت في بعض الاحيان . وكيف يستغني الخطيب عن الالمام بالمنطق—وهو احد اقسام الفلسفة— اذا كان يرغب في اقناع سامعيه واستمالتهم اليه . ولا ريب ان ديموستين وشيشرون ويوحنا فم الذهب وبوسييه (Bossuet) وامثالهم من اعاظم خطباء الدنيا كانوا على معرفة تامة بالمنطق . وكذلك قل عن مشاهير المحامين فان مهمتهم الاولى هي الاقناع وقوة الحجة والبيان . ومايصح قوله في الخطيب يصح في الكاتب ، فلقد قال النقادة الكبير بوالو (Boileau) : « تعلم كيف تفكر قبل ان تكتب » .

بل كيف يستطيع الحاكم تجاهل الأخلاقيات (Morale) اذا كان يحترم نفسه ، افلا يجب عليه ان يعرف الغايات والاهداف ، ويعرف

مبادىء الحق والعدل ، وماهية الواجب والاسس التي عليها تبنى الشرائع ، واي الحكومات هي الفضلى . وانك تكاد لا تجد فيلسوفاً واحداً منذ فجر التأريخ الى اليوم لم يتصدَّ للاخلاقيات ، وهي ما يعرض لكل منا ، فهي التي تعرفنا علاقتنا بالله والقريب وتملي علينا واجب التعاضد والمحبة وتضع لنا الخطة المثلى التي نسير عليها تجاه العائلة والمجتمع والوطن ، وكل ما يتصل بذلك من القيم الروحية والزمنية .
قال الفيلسوف باكون : « كل امرىء يظن ان لا فائدة من الفلسفة ، وانها من النوافل ، فقد جهل انها المصدر الذي تستقي منه كل العلوم والفنون . وكما ان سائر العلوم والفنون لا تستغني عن الفلسفة فانها هي ايضاً لا تستغني عن باقي العلوم ، لان منابع الفكر البشري في اتصال دائم ، وهي حلقة واحدة متماسكة ولكن الفلسفة تشرف عليها من عل » . ومثل العلوم بالنسبة الى الفلسفة مثل العمال القائمين على بناء صرح عظيم ، يهيئون الادوات ويعدون الحجارة ولكنهم يدعونها مطروحة في الارض بدون نسق او نظام ، فيأتي المهندس اي الفلسفة ويضع كل حجر في مكانه فيأتي البناء كاملاً متقناً . ولولا هؤلاء العمال لما استطاع المهندس اخراج فكرته الى المحسوس النافع . فاذا لم يستعن الفيلسوف بالعلوم الاخرى بقي في عالم التجريد والنظريات لذلك لا يكون الحكيم الا عالماً والا فهو مفكر ،يكون صغيراً او كبيراً على قدر استيعابه الاشياء . ولنا في شخصية الكسي كاريل (Alexis Carrel) برهان على اجتماع العلم والفلسفة في كتابه « الانسان ذلك المجهول » . وفي شخصية هنري برغسون دليل على استعانة الفلسفة بالعلم في كتابه

« مادة وذاكرة » (Matière et Mémoire) . فمهمة الفلسفة اذن عظيمة اولاً لانها هي وحدها التي تحل المشاكل الخطيرة ومنها خلود النفس والحرية واتباعها؛ ثانياً لان القسم المتعلق بالأخلاقيات منها يتوقف على تفهمه سلوكنا في الحياة . فحيث لا احترام لحق الحياة وللعرض وحق الملكية ، وحيث لا ظل للعدل والواجب وما شابه ذلك تعم الفوضى ويعود الانسان الى وحشيته الاولى .

وقد عاب بعضهم على الفلسفة جفافها ، وزعم انها تورث الكآبة وتقتل الخيال . وهي بريئة من كل ذلك فهي صحة الفكر والقلب وينبوع الالهام الحق . فان شاعرية فاليري وفن ليونار دو فنشي (Léonard de Vinci) هما من بنات الفلسفة . وليس يخلد شاعر اذا لم يدعم قصائده الفكر المتين والرأي النفّاذ . وان تأثيرها في الجماعات عظيم وان في روايات (Paul Bourget) — مثلاً — كثيراً من الدروس الفلسفية . فاذا كانت فلسفة الروائيين هدامة ، غيرت كثيراً من احوال المجتمع ، واذا استهدفت الاصلاح والتقدّم أتت بطيب الثمار . ولا يقولنّ قائل ان الفلسفة في صعيد خاص لا تتعدى الى الجماهير ، فمن انعم النظر في اسباب الثورة الفرنسية ، رأى عظم تأثير فلسفة القرن الثامن عشر في عقول الناس ، وما اضرمته من النيران .

اجل ان الفلسفة بالنسبة الى الانسان العاقل كالهواء بالنسبة الى الرئتين تلقاه كيف اتجهت ولا يمكنك الفرار منه الا اذا حكمت على نفسك بالاختناق . ولن تستطيع الاستغناء عن الفلسفة الا بانقطاعك عن التفكير والنزول الى مرتبة الحيوانية ، ولكن في هذا الانحدار نفسه فلسفة ولو انها فلسفة سفلية .

الذاكرة

نحسب ان افضل تعريف للذاكرة هو تحديدها بالقوة الحافظة التي تذكرنا بحالاتنا الوجدانية الماضية . مثال ذلك ان تذهب في رحلة رياضية الى صنين في فصل الشتاء ، ثم تتذكر هذه الرحلة في ابان الصيف وانت جالس في مكتبك ببيروت . فلو لم تكن الذاكرة قوة حافظة لزال كل اثر لهذه الرحلة من ذهنك . وهي حالة وجدانية لانك لو اخذت الى صنين وانت تحت تأثير مخدر قوي لكان وعيك نائماً « لا يلتقط شيئاً » . وعرفّناها بانها ماضية لانك لا تحتاج الى اعمال الذاكرة فيما حضر لديك من الاشياء . فانك عندما تجلس الى مائدة الطعام تستطيع تمييز الاطعمة بدون الرجوع الى الذاكرة . اما المستقبل فانك تفكر فيه بقوة المخيلة لا بقوة الذاكرة . وقد زعم العلاّمة برغسون ان ليس للانسان حاضر بل ماض ومستقبل فقط وهو رأي وجيه لانك عندما تلفظ مثلاً كلمة زلزال ، فعند نطقك بالشق الاول منها وهو زل يكون هذا الشطر قد دخل في الماضي بسرعة البرق ، فالذاكرة اذن هي القوة التي نتمثل بها الاشياء من خلال انفسنا . لانك لا تستطيع تذكر شيء لم يمر بك فيقتضي ان تعلم الامر قبل ان تتذكره . ولكننا لا نستطيع تذكر كل ما يمر بنا فنتذكر الاشياء المهمة فقط . ويزعم علماء النفس ان هذه القوة الحافظة لا تفقد شيئاً اذا قيضت لها ظروف خاصة . اما انا فقد تيقنت من ذلك بالاختبار اذ اجريت لي ثلاث

وعشرون عملية جراحية ، اربع عشرة منها بالمخدر العمومي . واذكر اني في ثلاث او اربع من هذه العمليات كنت قبل ان ادخل في الغيبوبة التامة بدقيقة او دقيقتين أرى بعض حادثات وقعت لي في ماضي حياتي وكنت احسبها مطوية في عالم النسيان ولكن هذا العرض كان يجري بسرعة البرق. ولا ريب ان العوامل العضوية (Organiques) مرتبطة بهذه القوة الحافظة لان الامراض التي تطرأ على الدماغ وادمان المخدرات تؤثر على الذاكرة . ولكن العلماء اختلفوا في تعيين مركزها واسباب ضعفها وقوتها : فمنهم من زعم ان قوتها قائمة بقدر الخلايا الدماغية ، ورأى آخرون ان المسافات القائمة بين بعض الخلايا هي التي تؤثر فيها ، ومنهم من عيّن لها مركزاً « في الدماغ » ، وفي طليعتهم الفلاسفة الماديون الذين قسموا الدماغ الى مناطق ، يرمون بذلك الى انكار وجود الروح . غير ان العلاّمة برغسون اظهر فساد هذا الرأي في كتابه (Matière et Mémoire) مثبتاً « وجود الروح » ، مبيناً ان الدماغ هو بمثابة سنترال تلفون يمر به صوت المتكلم ولكن ليس السنترال هو الذي يخلق الصوت ، فمتى تعطل يتعطل وصول الصوت الى الضفة الاخرى ولكن الصوت موجود على كل حال . هذا من الجهة العضوية ، اما من الجهة النفسانية فالاشياء التي تلتقطها الحافظة غالباً هي الامور التي لها بعض الاهمية . فان الاشخاص الذين شهدوا انهيار كوكب الشرق سنة ١٩٣٣ لا ينسون هذه الحادثة ولكنهم ينسون سائقي العربات الذين مروا على ساحة البرج في ذلك النهار . ومن هذه العوامل التي ترسخ الاشياء في الذاكرة صرف الانتباه لانه مهما مرّ بك

من الحادثات الجسام وكنت غير منتبه لها فلا يعتلق بالحافظة. والعامل الاهم هو التكرار بحيث تصبح قوة الحافظة عادة عقلية . يقول المثل العامي : «كثرة العادة تقطع خرزة البير» . وهذا صحيح مع ان الحبل من ليف او قنب وهو اقل صلابة من الحجر الذي يتأثر بكثرة التكرار فينقطع . حتى اننا اذا لم نكرر الاشياء التي نعرفها واهملناها اهمالاً تاماً فقد يطويها النسيان. والشرط الأهم للحفظ هو ارتباط المعاني والافكار . فلو كلفت مثلاً ان تحفظ هذه الالفاظ : ثمرة ، الناس ، زمن ، المرء ، دامت ، الاقبال ، الشجرة ، حولها ، لعانيت الامرين في حفظ هذه الكلمات المتفرقة بدون رابط ولو حفظتها لنسيتها بعد امد قصير . ولكنك لو كلفت استظهار هذا البيت :

المرء في زمن الاقبال كالشجره   والناس من حولها ما دامت الثمره

لحفظته بسهولة . وهو كما ترى مجموعة هذه الكلمات المتفرقة التي استعصت مبددة ، ولانت مجتمعة ، على عكس ما يجري في السياسة . وهذا الذي حمل اصحاب الاراجيز على تأليف قواعد اللغة نظماً . ومعلوم مثلاً في باب النحو انه لا يجوز الابتداء بالنكرة ما لم تفد معنى. وقد تنسى هذه القاعدة بسهولة ولكنك لو حفظتها في الارجوزة وهي كما يلي :

ولا يجوز الابتدا بالنكره   ما لم تفد كعند زيد نمره

لكانت القاعدة والمثل ارسخ في ذاكرتك

والشرط في الذاكرة النسيان الموقت . اذ لو لم تنس موقتاً لما

تذكرت ، كما ان الذي لا ينام لا يستفيق . وقد يأتي التذكر عفواً ، بل قد يظل في بعض الاحيان ماثلا امام البصيرة فيصبح خاطرة ملازمة تفضي بصاحبها الى مثل الهستريا. ومثال ذلك ان تشهد قطاراً يتدهور، او شرفة تهوي الى الارض وفوقها بضعة اشخاص يصبح بعضهم جثثاً وبعضهم الآخر جرحى تسح منهم الدماء . فهذه مشاهد مؤلمة تعاود ذاكرتك ولو حاولت طردها وهي لا تزول الا بتمادي الزمن. ولكن قد تستعصي الذاكرة على صاحبها فلا تعيد اليه صفحة ماضيه الا بعد اعمال الارادة وقد تتمرد عليه في بعض الاحيان فيحاول ان يتذكر اسم شخص وكلما زاد بحثاً ازداد بعداً عن الصواب . والافضل ان يترك البحث موقتاً فتأتي الكلمة المطلوبة عفواً . وقد يستعصي على المنشىء احياناً كتب كلمة اي تركيب حروفها ، فكلما اعمل فكره حار في الامر ، والاصوب ان يكتبها عفوياً ، فاليد الآلية تكون في غالب الاحيان اصدق من الذاكرة . ويعرض مثل ذلك للكاتب عند كتابة الهمزة مثلاً فان في ذلك صعوبات يعرفها الادباء الذين اشتغلوا بالانشاء ، فان كثرة التبصر في هذه الحالة هي التي تحمل صاحبها على الخطإ . واكثر ما يساعد الذاكرة على احياء الصور السكون العميق او الظلمة والانصراف عن النظر الى ما يحيط بنا من الاشياء . لذلك فكثيراً ما ترى الذي يحاول التذكر يغمض عينيه او يرفع بصره الى فوق ليستجمع القوى الحافظة . والذاكرة تختلف باختلاف الاشخاص فمنهم من يحفظون بسهولة ومنهم من يصعب عليهم الحفظ . وفي الغالب ترى الذين يحفظون بسهولة ينسون بسرعة ، كشجرة التين تنمو بسرعة

ولكنها لا تعمر طويلاً ، خلافاً للسنديانة التي تنمو بطيئة وتعيش كثيراً . والقوة الحافظة تكون على انواع متعددة ، فمنها الرائية ومنها السمعية والمحركة . مثال الاولى ان تستظهر قصيدة فتراها في ذاكرتك كانك تشهدها بعينك وترى مكانها في الكتاب والصفحة . اما السمعية فهي التي تقوى على التقاط الالحان والاغاني . اما المحركة فهي ذاكرة الراقصين واللاعبين على البيانو والكمان ، يحركون اصابعهم وارجلهم بقوة الذاكرة التي تقوى بالعادة والتمرس . وترى في الذاكرات التباين والغرائب. فقد عرفت كاهناً من الكهنة القدماء أنصاف الاميين ، قضى في خدمة الكنيسة ستين سنة لم يستطع في خلالها ان يستظهر كتاب خدمة القداس اليومية، وهو كتيب لا يتجاوز العشر صفحات، ولكنه كان يعرف جميع العائلات اللبنانية ويحفظ انسابها بدون خطإ ولا تردد . ومن الذاكرات ما تستوعب كثيراً فقد عرفت في قضاء مرجعيون الشيخ علي شمس الدين ، واذكر انه روى لي في خمسة او ستة ايام ما يربي على خمسة آلاف بيت من الشعر العربي ، واظن انه يحفظ ضعف هذا المبلغ . ويحملني ذلك على تصديق ما ورد عن رواة العرب الذين كانوا يحفظون عشرين او ثلاثين الف بيت من الشعر . وكثيراً ما تضعف الذاكرة عندما يبلغ الانسان السن العالية . والظاهر ان الطبقة الدماغية التي تبدأ في الوهن والارتخاء هي الطبقة السطحية ، ثم يتسرب الضعف الى الداخل رويداً . والدليل على ذلك ان الشيخ الخرف ينسى ما فعله البارحة ويذكر لك بدقة وتفصيل ما جرى له في صباه لان هذه الذكريات القديمة تغلغلت في الخلايا العميقة من الدماغ

ولم يبلغها الانحلال بعد . واول ما يتناوله النسيان هو اسماء العلم ثم النكرات ثم النعوت فيتدرج من الخاص الى العام حتى تكفهرّ الصفحة الذهنية تماماً . وللعلاّمة برغسون في وظائف الدماغ رأي يخالف لا مجال لإيراده هنا .

وللذاكرة في حياة الانسان العقلية شأن جد خطير . فلو كان الانسان ينسى ما يمر به لما ارتسم في ذهنه شيء ولما تعلم شيئاً ، بل لظلّ طول حياته في طفولة عقلية . فالذاكرة هي رأس المال العقلي اذ ان الانسان لا يستطيع بدونها التفكير ولا القياس ولا الانشاء ولا الاستنتاج بل يكون الدماغ شبيهاً بالقفر الخلي ، ومعلوم ان القفر لا ينبت شيئاً . وكل ما يعمله العقل يعمله بفضل الذاكرة فلزومها للعقل كلزوم الدم للجسم . فاذا صحّ ذلك وهو اصح من اليقين ، فلماذا نرى بعض الناس يتبجحون بضعف ذاكرتهم ، ويتباهون بقوة عقلهم ?

ان السبب في هذا الاحتقار للذاكرة هو اعتبارها مسجلاً آلياً لا يد لنا ولا شأن في قوته او ضعفه ، فهو منا وخارج عن طاقتنا في آن واحد . اما العقل فهو الذي يحكم ويقرر ويستنتج ويجرد وقد قال الشاعر :

لولا العقول لكان ادنى ضيغم   ادنى الى شرف من الانسان

ولم يقل لولا الذاكرة

والغريب ان الانسان لا يرضى عن ذاكرته ولكن الناس جميعاً راضون عن عقولهم . وقد يتذمرون من كل شيء في هذه الحياة الدنيا

ويطمعون بالمال والجاه ولا يشبعون من الدنيا

وقد قال الناظم :

يريد ان يغترف البحر ولا   يترك منه قطرة تروي الظما
بالعقل والدين له كل الرضى   اما بماله وجاهه فلا

فسبحان مقسم الذاكرات والعقول .

الأخيلة والصُّور

ليلة ذي دوران هل كانت كما   حدثت ام أخيلة وصور

هذا البيت للشاعر بشاره الخوري المعروف بالاخطل الصغير ، وهو من قصيدته عمر ونعم . فهو يسأل عمر أكانت هذه المغامرات الغرامية التي رواها عمر قد وقعت فعلا ، أم ان الشاعر تصورها . وهذا تساؤل في موضعه لان الانسان العادي يستطيع التصور فكيف بالشاعر . اذن ما هي الاخيلة والصور ؟ هي ما تطبعه الحادثات في ذهنك بواسطة الحواس بعد زوالها .

فهب انك مررت بخمارة فشربت قدحاً من الخمر ثم اشتريت ضمة بنفسج في طريقك الى السينما ، وشهدت رواية عنتر وعبلة وقد تخللها بعض الاغاني ، ثم اتيت بيتك ، فانك تستيقظ في اليوم الثاني ولم يزل للطعم والرائحة وللبطولة والاناشيد اثر في ذهنك ، تتلفت الى امسك فتراه كما تشهد صورتك في المرآة ، فهذه هي الصور . ولكن تأثير الصور اضعف من تأثير الاصل فإنك ولو تخيلت الرواية بتفاصيلها وبقيت معجباً بها ، فلا يحملك هذا الاعجاب على الحماسة والتصفيق . غير ان هذا الاحساس ولو تضاءل فهو لا يمّحي . فأنت عندما تأكل الليمون الحامض يغزر الريق في فمك ، ولكنك لو كنت في البرية ظامئاً واستحضرت في ذهنك مفعول الحامض لتبادر الريق الى فمك بالتصور ، وان كان

اقل منه عند وقوع الامر بالفعل . وترى الكثيرين من الذين خدروا للعمليات الجراحية يتقيأون لذكر الكلوروفورم (Chloroforme) ولو بعد مدة طويلة . ويتغير تأثير الصور بتغير الاشخاص والامزجة والظروف الخاصة .

والصور انواع فمنها التمثيلية وهي التي تتراءى للعين كما لو شهدت الارز مثلاً فتذكرته ومرت امام عينيك اشجاره الباسقة . ومنها الذوقية وقد مثلنا لها بالطعم . ومنها المحركة وهذه اشد تأثيراً من اخواتها ، فقد تمر على خشبة ضيقة لتعبر الساقية وتتصور انك ستسقط ، فاذا بلغ منك هذا التخيل مبلغاً قوياً فانك لا محالة واقع . وقد يتصور بعض المرضى الوهميين انه مصاب بطفاح جلدي فاذا لازمه الوهم وألحّ عليه كثيراً فلا يلبث ان يشعر بالاعراض ثم بالطفح . والاطباء يدركون تأثير التخيل على صحة المريض لذلك تراهم يبشرونه بالشفاء وقد يكون على عتبة الموت . وقد ذكرني ذلك بنادرة ملخصها ان احد الامراء اصيب بداء وبيل وكان طبيبه الخاص يذيع كل يوم ان مريضه في تحسن . ومات الامير بعد ايام ، فقال احد الظرفاء : اظن ان سموّه مات من كثرة التحسينات .

وهذه الصور المحركة هي سبب العدوى الاجتماعية التي تشهدها في الازياء والاخلاق ، ولها في عقول الاطفال على الاخص مفعول عظيم ، لان اذهانهم بيضاء ترسم فيها ما تريد . وان بحث التخيل هذا يفضي بنا الى تعريف المخيلة . وهي القوة التي تستطيع تخيل الاشياء المنظورة او الممكنة بشكل محسوس . والفرق بينها وبين الذاكرة هو ان الذاكرة

تراجع الماضي ، اما هي فتوقظ الماضي والحاضر والممكن الذي لم يقع بعد . والمخيلة تختلف باختلاف الاشخاص ونبوغهم ودرجة ثقافتهم . والمخيلة السلبيه التي تقتصر على استيعاب الصور لا تفرق عن الذاكرة وهي تتأثر بما يطرأ على الدماغ من حالات كالمرض والشيخوخة . وانها في الصبيان والنساء اقوى منهـا في الكهول والشيوخ . وان المخدرات والكحول التي تثير الدماغ تهيجها هي ايضاً فاذا تعالى هذا الهيجان افضت بصاحبها الى الهذيان والهستيريا. وليست هذه المخيلة الناسخة التي تقتصر على الالفاظ اناء يدخر الصور ويحفظها فقط بل قوة ايجابية تلد خواطرنا ولادة ثانية تستحضرها وتنظم ما بينها فتستدعي اليها الصور المكنونة وهذا ما يسمونه في الفلسفة « تداعي الافكار » . وتداعي الافكار هو ميلنا الطبيعي للسير من فكرة الى اخرى كأنما الافكار اخوات تتنادى لما بينها من جوار او تشابه . مثال ذلك ان تذكر امامك لفظة « بتدين » فتذكرك بالقصر الفخم الذي فيها وبقاعة العمود والامير بشير وشاعره بطرس كرامه . وكل هذه الخاطرات اثارتها في نفسك فكرة واحدة كأنها سلسلة حركت احدى حلقاتها فاضطربت حلقات اخرى عديدة . اذن فما هي هذه الظاهرة النفسية وكيف تتكون ، بل كيف يتم هذا الاستدعاء وتستجاب الدعوة .

زعم المعلم الاول اي ارسطو وتابعه على ذلك اكثر الفلاسفة ، ان التداعي يقوم باحد اسباب ثلاثة : اولها المشابهة بين فكرة واختها ، فلو كنت ماراً في السوق ونظرت شخصاً تراه للمرة الاولى وفيه بعض الشبه من صديق لك لتذكرت حتماً ذلك الصديق لما بينه وبين هـذا

الغريب من المماثلة ؛ وثانيها التضاد ، فان الحرب تذكرك بالسلم ، والليل بالنهار ، والبرد بالحرارة ؛ وثالثها التلاصق والمجاورة ، كما لو كنت تنشىء مقالاً فخطر لك ان تعبر عن حالات غرامية فمرت ببالك لفظة الهوى ثم جاءت لفظة غرام وهيام ووجد الى آخر الباب .

ويعترض معترض فيقول : ان هذا التقسيم خاطىء لان المجاورة هي المشابهة . اجل وهو اعتراض مصيب فان احدى النظريات الفلسفية تمشت على توحيد هذه الاسباب الثلاثة وجعلها سبباً واحداً وهو المجاورة فقط . لانك عندما تشهد اللون الابيض ويذكرك بالاسود فلا تنسى ، على رغم التباين بين اللونين ، انك في عـالم اللون والالوان متجاورة . وكذلك القول في الاضداد فهي متجاورة ايضاً لان البرد الشديد يذكرك بالطرف الآخر وهو الحرارة الشديدة ، فكلاهما في نفسك ملاصـق للآخر .

ولمبدإ تداعي الافكار هذا اهمية عظمى في حياتنا العقلية فهـو الخزان العظيم الذي ينهل منه العقل وبه تتعلق الذاكرة ومنه تستوحي المخيلة فتأتي بالمجاز والصور وكل ذلك يرد الى مبـدإ تداعي الافكار (Association d'idées).

ولكن هذه القوة الخصبة الملهمة تصبح خطراً على النتائج العقلية . فيجب على العاقل ان يضعها على محك النقد وان يزنها بميزان . واليك مثالاً من الاضاليل التي تقع فيها العامة وهي ناجمة عـن تداعي الافكار فمنها التشاؤم من الرقم الثالث عشر والاعتقاد بان اليوم الفلاني هو من ايام النحوس ، والتطير من منظر الجرة الفارغة او التفاؤل بمشهد

قطيع غنم صباحاً. واغرب من ذلك بعض الامثال السخيفة التي تتبادر الى الذهن فيلفظها اللسان ولا يمحصها العقل ومنها قول العامة : « ايد الما فيك تعضها بوسها وادعي عليها بالكسر » ، وقولهم : « مين ما اخذ امي صار عمي » .

والسبب في الضلال هو ان الافكار تأتي وتجتمع بديهياً كما تتلاقى السيدات في قاعات التزين والتجميل . وانما النقد والتمحيص يقتضيان بعض التعب ، والانسان كسول بطبعه وهذا هو سبب الضلال .

ولتداعي الافكار تأثير كبير على المرء ، وهو يختلف باختلاف الاشخاص وتباين امزجتهم وثقافتهم. ولنفرض ان ثلاثة اشخاص مروا تباعاً بجانب روض انيق في صبيحة يوم من الربيع، اولهما شاعر وثانيهما راع وثالثهما لص . فالشاعر يؤخذ بهذا الجمال وهذا العرس الذي تقيمه الطبيعة بين صداح الطير وأنة الساقية . اما الراعي فيتمنى لو كان هذا البستان ملكاً له يسرح فيه ابقاره ويسمنها . اما اللص فيتمنى موت الناطور ليخلو له الجو فينهب ثمار البستان لا يبقي منها واحدة للمالك .

وان بين الذي يربط افكاره برباط العقل والمستسلم لها فرقاً عظيماً. ويكون الثاني كالذي حلم ببيع جرة السمن واقتناء النعاج التي تتوالد فتأتيه بالقطعان ثم بالثروة فيتزوج ويرزق ولداً فاذا استعصى عليه تأديبه ضربه بالعصا فانكسرت الجرة وساح السمن على وجهه فانهارت احلامه جميعاً . ولتداعي الافكار نصيب كبير في ميلنا او كرهنا لبعض الاشخاص ، فلو شهدت شاباً وقيل لك انه حفيد جمال باشا السفاح لكرهته لا لذنب اتاه ، بل لان فكرك انتقل الى جده وذكرك باعواد

المشانق وبالضحايا فكرهت الحفيد من خلال جده .

ولهذه الخاطرات اثر عظيم في ذكرياتك الماضية، فقد تمر بعد ثلاثين سنة بمكان قضيت فيه يوم انس مع اصحابك فتقف فيه وقفة المتلهف وتفتش في زواياه وانما تبحث عن نفسك التي انطوت في خلايا الزمن . ولا ريب ان موقفاً مثل هذا حمل امرأ القيس على انشاء قصيدته التي مطلعها : « الا عم صباحاً ايها الطلل البالي » . اما الطلل البالي المجرد فمنظره لا يثير شيئاً من كوامن النفس ولا يهز الشاعرية .

ولا يقتصر هذا التأثير على الناحية العقلية بل يتعداها الى الجسم . فانك لو دعيت الى مأدبة مثلاً وطابت لك اصنافها وكان في عداد هذه الاصناف لحم الخيل او افخاذ الضفادع وانت لم تعود نفسك هذا المأكل لتقززت وربما اضربت عن الطعام. وافضل ما نفعله تجاه افكارنا الجياشة المتنادية هو حسن الروية والاعتدال وصرف الامور في وجوهها ، فاذا كان للسيارة رابط فانما رابط الانسان العقل واكرم به مشيراً .

العادة والغريزة

قال ارسطو : ان العادة طبيعة ثانية . اذن فهناك طبيعة اولى مستعدة لاجراء عمل ما وقد نبتت عليها هذه الطبيعة الثانية التي يسمونها العادة كما تنبت الفروع على اصول الشجر . اما علماء هذا العصر فيرون انها ملكة مكتسبة ، وقابلية لاجراء بعض الاعمال بسهولة تختلف بمقدار تكرير العمل . مثال ذلك ان المدخن يدخن السيكارة الاولى بصعوبة ثم يسهل عليه التدخين كلما كرر اشعال اللفائف . والفرق بينها وبين الغريزة هو ان الغريزة ميل مولود فينا ثابت لا تعتريه الزيادة والنقصان ، وهو ضروري لحفظ النوع . واما العادة فمكتسبة تتغير بتغير الظروف ، غير ضرورية لحفظ النوع . فان البط مثلاً يولد وفيه غريزة السباحة التي لا يحسنها الانسان الا بعد ان يتعودها ويكرر الغوص مرات عديدة ، وقد يفقد من قوته على العوم اذا تركها مدة طويلة . ويفترض في اكتساب العادة ان يكون الانسان قد كرر الفعل لتتأصل العادة فيه ، ولكنه قد يتعود بمرة واحدة. وانا نعرف كثيراً من المدمنين على المورفين اعطيت لهم جرعة واحدة على اثر عملية جراحية لتخفيف آلامهم فأحسوا بنشوة كبرى أثارها فيهم ذلك المخدر فنشأ فيهم ميل الى استعماله مرة ثانية بعد خروجهم من المستشفى ولغير ضرورة ، ثم تكرر هذا الفعل حتى اصبحوا من المدمنين .

ولا ريب ان كل عمل نعمله يفتح اثراً لما يأتي بعده ، فيسهل الطريق

للحفظ والاكتساب رويداً رويداً . ولو امّحى كل أثر للعمل الاول ثم امّحى أثر الثاني وهلمّ جراً لما تعلم الانسان شيئاً بل لظلّ طفلاً مسناً . فلو لم يترك القلم في المرة الاولى ادنى أثر فينا لتعلم الكتابة ، لكان المتعلم في المرة الثانية خالي الذهن مما اكتسبه في المرة الاولى . وهكذا يستحيل على الانسان تعلم اي فن او صناعة . اذن فقول ارسطو ان العادة لا تقوم بعمل واحد كما ان الربيع لا يقوم بطائر واحد ، لايعبر عن الحقيقة تماماً فان عملاً واحداً هو بدء للعادة .

والعادة تكون ايجابية وسلبية. ومثال الايجابية ان تتعود التدخين والسباحة والصيد والغناء وما الى ذلك من الوف الاشياء . اما السلبية فان تتعود تحمل البرد والحر مثلاً حتى ليشق عليك ان تخالف هذا التعود السلبي . وأذكر ان جنوداً بولونيين جاؤوا بيروت سنة ١٩٤٠ فوصلوها في شهر شباط ونزلوا البحر يستحمون على الشاطىء، فسئلوا في ذلك فأجابوا انهم يشعرون بحرّ شديد . وهذا النوع من التعود يدعى التعود الاحساسي . وهناك تعود سلبي آخر وهو الفيسيولوجي . مثال ذلك تلقيح الجسم بالمصل الواقي من بعض الامراض ، فان هذا المصل يكسب الجسم مناعة وقوة تغالب الجراثيم . ومن هذه العادات السلبية ان تتعود سماع هدير متواصل . فانه في الليالي الاولى يقض عليك مضجعك ، ثم لا تلبث ان تألفه وتنام نوماً عميقاً فاذا توقفت هذه الضجة فجأة استفقت من منامك . ويذكرنا ذلك بنادرة وقعت للخليفة الاموي مروان المعروف بمروان الحمار اذ يروى عنه انه وقف يوماً بباب طحان فرأى حماراً يحرك الرحى كلما دار حولها لانها شدت اليه برباط

وثيق ، ورأى في عنق الحمار جلجلاً ، فسأل الطحان في ذلك فقال : يا مولاي ربما ادركني النعاس ونمت ، فما دمت اسمع صوت الجلجل اعلم ان الحمار دائب على العمل ، فاذا انقطع الصوت ادركت انه واقف فأقوم اليه واستحثه على الحركة . فقال مروان : وما يدريك ، لعل الحمار يقف ويقتصر على تحريك رأسه فتنخدع . فقال الطحان : ومن لي بحمار نبيه يكون عقله كعقل الامير ! فخجل مروان ومضى لسبيله .

وانما تكرير العمل الواحد في العادات الايجابية يفضي بنا الى اتقانه . فتصور مثلاً ، انك تحاول تعلم اللغة الانكليزية ، فلا ريب انك تلاقي في بادىء الامر كثيراً من الصعوبات ، سواء في البحث عن المفردات او في كيفية النطق بها ، ثم يسهل عليك ذلك بعض الشيء ، ثم يفضي بك التكرار الى استعمال الالفاظ والجمل آلياً حتى انه ليصعب عليك ان تتكلم لغة غيرها .

اما التكرار في العادات السلبية ، فشأنه ان يضعف الشعور بالشيء لانه يغدو مألوفاً . فلو انك دخلت غرفة العمليات الجراحية ونشقت الـ (Ether) المخدر لتأذيت من هذه الرائحة . اما الطبيب الجراحي الذي ألف هذه الغرفة وقضى معظم اوقاته فيها . فهو يكاد لا يشعر بوجودها .

والانسان يستطيع ان يألف كل شيء ويتعوده . فان الذي ينطق بالكذب للمرة الاولى يتلعثم لسانه وتضطرب الالفاظ في لهاته ، وتعلو جبينه حمرة الخجل . ولكنه متى تعود الكذب وراض نفسه على النفاق ،

يصبح كالسيل المنهمر يأتيه الكذب عفواً ، حتى ليصعب عليه ان ينطق بالصدق .

يقولون في الامثال السائرة : « كل شيء يبدو صغيراً ثم يكبر الا المصيبة فانها تبدو كبيرة ثم تصغر » . وهذا كلام وجيه لان الانسان يألف المصائب نفسها فكم من أم تثكل وحيدها فتراها تتمزق يوم مصرعه حتى تود ان تدفن الى جانبه ثم تمر الايام وتألف الثكل وان الزمن لكفيل بتعزية الحزانى .

قلنا ان الانسان يألف كل شيء ، وذلك مما يضعف شعوره ، ولنا على ذلك أدلة وافرة . فمن استسلم كثيراً للملذات يبلغ به الامر الى فقد الاحساس باللذة . وكلما أمعن فيها بعدت عنه ، وهو لا يزداد الا نهماً وهي لا تزداد الا بعداً . وحسب المتطرفين عقوبة انهم يفقدون اللذة في اللذة وهكذا يكون الجزاء من ضمن العمل . خذ لك مثالاً على ذلك مدمني المخدرات . فان الذي يتناول جرعة من المورفين يكفيه في بادىء الامر نصف سنتيمتر مكعب في كل يوم ، فيحدث فيه هذا المخدر نشوة كبرى ثم يكرر ذلك أياماً ، فاذا هذه الجرعة الصغيرة تمر به مرّ الكرام ، فيزيدها رويداً رويداً ، حتى يبلغ اضعاف اضعاف مقدارها الاول ، وهكذا يكون الانتحار البطيء .

ولكن قولنا هذا ليس من باب الاطلاق ، لان للطبيعة البشرية حدوداً لا تستطيع ان تتعداها. فلو قلنا مثلاً ان شارب الخمر يستطيع

اذا أدمن ، ان يتناول ليترين في النهار الواحد ، فانه يستحيل عليه ان يبلغ العشرة . وان هنالك عقبات كثيرة تقف في سبيل العادة ، فانك لا تستطيع تعويد الانسان على الصوم المتواصل ، لان جسمه يقتضي الغذاء كما يتعذر عليك ان تخرج السمك من الماء ويبقى حياً .

اما الغريزة فهي عامل داخلي يهيب بالحيوان للقيام ببعض اعمال تفضي الى حفظ الفرد والنوع ، بدون ان يعرف الحيوان الغاية التي يمشي اليها. مثال ذلك العصفور الذي يبني عشه ، والنحلة التي تنظم خلاياها ، والنملة التي تجمع الحب وتدّخره ، والطيور التي تتزاوج وتبيض . ولكن هذا العامل هو عامل اعمى لا يمت الى الذكاء والمعرفة بصلة ، لان التفكير وقف على الانسان وحده . فان النحلة عندما تنظم الخلايا وتدخر القوت تفعل ذلك بدافع الغريزة وحدها غير عالمة انها مقبلة على الشتاء حيث تحرم الجني والقوت . والعنكبوت تنسج من لعابها خيوطاً جاهلة انها تنسج فخاً تصطاد به الذباب الذي يصبح طعاماً لها .

ونظراً لخلو الحيوان من العقل ، فهو يلتزم اختصاصاً واحداً وخطاً مفرداً رسمته له الغريزة ، فلا العصفور يستطيع ان ينسج مثل العنكبوت ، ولا العنكبوت تستطيع بناء خلايا النحل . وهذه الغريزة تولد مع الحيوان فلا حاجة به للتعلم . وكثيراً ما يوضع بيض البط الى جانب بيض الدجاجة في دور الحضانة ، وعندما ينقف البيض ، تهرع فراخ البط الى اقرب غدير لتعوم فيه ، وعبثاً تصيح الدجاجة لتردع الجهلة الصغار عن السباحة . ولكن هذه الفراخ لا تتورع عن الغوص ، فانها من معدن غير معدنها وهي اعلم بمقدرة هذه

الاجنحة والمناقير منها . بيد ان هذه الغريزة العجيبة لم يكتب لها التطور ، فكما بنى العصفور الاول عشه منذ آلاف السنين كذلك يبني حفداؤه عشوشهم اليوم ، وهو مجبر في سلوكه غير مختار في ما يفعل . ولكننا لا نقول ذلك من باب الاطلاق فان الانسان يستطيع ترويض الحيوان وتدريبه على امور تخالف غريزته . مثال ذلك تدريب كلب الصيد على حمل الطريدة الى صاحبه بدلاً من ان يأكلها هو . . ولا ريب ان الكلاب التي تحرس القطعان وتستقتل في سبيل حمايتها هي من نسل تلك الكلاب البرية التي كانت تفترس القطعان منذ آلاف السنين مثلما تعدو عليها الذئاب اليوم . فترى ان الغريزة تطورت بحكم الوراثة ايضاً .

قد بينا الفارق بين العقل والغريزة ، فاذا رأيت في الحيوان حكمة فانها من ضمن الغريزة التي استودعها عندما ولد وانما الحكمة للخالق السامي الذي اودعها .

ولكننا نغالي في الرأي اذا زعمنا كما زعم ديكارت ان الحيوانات آلات متحركة فقط . فاننا نلمس فيها فطرة تحملها على العمل في اتجاه ما وفقاً لعامل داخلي يميز بين الاشياء ويوقظ في الحيوان قوى كامنة ، ولكنه من الصعب تحديد هذا الحس الذي يقود الحيوان فترى بعض الطيور تهاجر في وقت معلوم لا تخطئه ابداً. ولا ريب ان الذين يردون الغريزة الى العادة قد اخطأوا . فقد زعم بعضهم ان الهر الصغير مثلاً رأى اباه او جده الاعلى يطارد الجرذان فتعود هو مطاردتها . ولكن من علم الهر الكبير العداوة للفأر؟ نعم ان الحيوان يتطور بعض التطور

كما اسلفنا ، ولكن الغريزة هي المتغلبة عليه . وقد حاول بعضهم ان يرد الغريزة الى حركة انعكاسية (Mouvement réflexe) فقط كما لو ان احداً حاول ان يضربك على عينك فرفعت يـدك تتقي الضربة . ومثلوا لذلك بانالنعجة يعتريها الارتجاف لدى رؤيتها الذئب ،والصواب هو ان بين الحركة الانعكاسية والغريزة تجاور وقربى . غير ان الحركة الانعكاسية عضوية بحتة ، اما الغريزة فان فيها عنصراً نفسانياً. فسبحان الخالق الذي استودع الغريزة الحيوان . فجعل هـذه النحلة الصغيرة تهتدي الى اكام الزهر فتحمل العبير وتطير به في الجو ، تشقه طرقاً الى مأواها لا تضل سبيلاً ، ولا تستشير دليلاً ، الا هذه الفطرة المركبة في طبعها ، ثم تأوي الى قفيرها فتأخذ في الهندسة التي يعجز عن مثلها الانسان الناطق ، ثم تفيض الشهد في خلاياها ، فيتناوله المرء عن أيسر السبل . فسبحان الله الذي سخر الكون لهذا الانسان الذي قلما تراه شاكراً حامداً !

الأحلام

لا ريب ان الجسد هو الوسيط بين النفس والعالم الخارجي ، فهي تطل منه على هذا الكون بواسطة الحواس . وكثيراً ما تخدعها الحواس ولكن العقل يصلح هذه الاخطاء عندما يكون المرء مستيقظاً . فـان العين تنظر مثلاً الى الفلك الصاحي ، فتنعم بهذا البساط الازرق وتمعن في الافق البعيد ، فتراه يوشك ان يتصل بالسماء لولا هذا الخيط الرقيق كغرار السيف ، وتنظر الى القضيب المنتصب في المياه الصافية فتحسبه مكسوراً ، ولكن العقل الرقيب الواعي يصلح هذا الخطـأ الظاهري فيعلم صاحبه ان ذلك ضلال النظر فلا لون للجلد ، ولا اتصال بينه وبين الافق ، وان القضيب الذي يبدو مكسوراً سويّ مستقيم لا صدع فيه ولا عوج . ولكن اذا غاب هذا الرقيب الواعي أو ألمت به الغفلة ، تفلت ذلك الجسم الوسيط من الرقابة وجاءك بالاكاذيب والاوهـام . ويكون ذلك في حالات خاصة ، كحالة الاختـلال العقلي ، او التنويم المغناطيسي ، او في الحالات الشاذة التي تطرأ على الانسان في اثناء النوم كالاحلام والكابوس وما يتصل بذلك .

والذي يعنينا في هذا البحث ، هو النوم وما ينجم عنه . ومعلوم ان الرقاد هو طبيعي وضروري للانسان ، وهو تخـدير جزئي يطرأ على الجهاز العصبي ليمكن صاحبه من الإخلاد الى الراحة بعد المتاعب اليومية التي تطرأ على الجسم وتقتضيه السكون ، فتعزله عن العالم الخارجي .

ولكنها عزلة موقتة فانك لو اثرت هذه الحواس المشلولة جزئياً، لتنبهت واستيقظ النائم. وهي عندما تكون مخدرة بالرقاد تستعصي على اوامر ونواهي الارادة ، لان الارادة نفسها تكون مشلولة جزئياً رغم ان الاعضاء وبعض الحواس تستطيع الإتيان بحركات نصف واعية، ولكنه بعض الوعي المشوه . فاول ما يُمنى به الوجدان في هذه الحالات هو عدم معرفة الوقت ، لان النائم قد يستغرق في النوم ساعات عديدة ، وهذا هو السبب في ان المريض او المتعب القلق يجد الليل طويلاً . وفي ذلك تفسير لقول الشاعر :

شكونا الى احبابنا طول ليلنا فقالوا لنا ما اقصرَ الليل عندنا

والدليل الآخر على تشوه الوعي اثناء النوم ، هو ان الانسان يرى حلماً طويلاً كما لو رأى انه سافر من بلد الى بلد، وشهد الغرائب ويحسب ان ذلك الحلم استغرق الساعات الطوال ، على انها في الحقيقة بضع ثوان لا اكثر . وقد يريد النائم الاتيان بامور كثيرة ولكنها ارادة مقيدة وغير مسؤولة في غياب العقل، تتحكم بها المخيلة التي يعظم شأنها وتسرح ما طاب لها الهوى ان تسرح .

وما الحلم الا مجموعة حوادث واعية نحسها في اثناء النوم. ولكن من اين تأتي الاحلام وما هو السبب في انعدام السياق فيها ولماذا تُحمل هذه الرؤى على محمل الحقيقة ؟

قالوا ان للاحلام سببين : اولهما ان تذكاراتنا وافكارنا التي تطرأ علينا في اثناء اليقظة ، تعاودنا خلال النوم مختلطة مبعثرة ؛ وثانيهما ما ندركه مشوشاً في المنام ، او هذه الاحساسات الصماء التي تعترينا

فتضخمها الذاكرة وتلونها على هواها . مثال ذلك ان تكون نائماً فيتساقط البرد على النوافذ فتحلم انك في معركة حربية ، وان الرصاص يئز ويمزق الهواء حول اذنيك ، او ان تلسعك بعوضة فتحلم ان عدوك طعنك بخنجر، او ان يندى جسمك بالعرق فترى في منامك انك تستحم على شاطىء البحر، وامثال ذلك مما تأتي به المخيلة من الالوان. اما انعدام السياق في الاحلام فسببه غيبة العقل الرقيب كما قدمنا فبينا تكون حالماً انك في جبل صنين مثلاً ، ترى نفسك في غوطة دمشق ، ثم ترى على جانب الغوطة سفناً شراعية كبيرة، تترجح فوق الآذي العريض واشباه ذلك من التناقض والخبط . ولكن لا يجوز ان نبالغ في هذا الزعم كثيراً ، فان العقل رغم الشلل الجزئي الذي يطرأ عليه ، يظل متصلاً ببعض انظمته . مثال ذلك انك تفكر في اثناء اليقظة بعملية رياضية يتعذر عليك حلها ويتفق لك ان تحلها في اثناء النوم . اما الجواب على السبب الثالث وهو انا نحمل الرؤى على محمل الحقيقة ، فسببه هو ما ذكرناه آنفاً من ان العقل الواعي يصلح الخطأ ويرد صاحبه الى الصواب كما في المثال الذي قدمناه عن توهم القضيب في المياه الصافية مكسوراً .

ولكن هذا التعليل للاحلام يبدو ناقصاً من بعض جهاته . فاذا زعمنا ان الذاكرة تشوه وتلون تذكاراتنا او مشاعرنا ، فكيف نعلل لهذه الاحلام التي تطرأ علينا ، على حين اننا لم نفكر بشيء منها ، ثم تتحقق بحذافيرها غب مرور السنين الطوال . وقد وقع مثل ذلك لاشخاص عديدين ذكرهم التاريخ بل يقع لكثيرين منا اليوم، وسيحدث مثل ذلك في المستقبل . ان العلم لم يستطع حل هذه الالغاز بعد، ولعل

المستقبل يكشف عنها النقاب. وقد يحلم الانسان في اثناء اليقظة فيجنح الى الخيال والتصور ولكن الفرق عظيم بين ما يتراءى له في حال يقظته وما يراه في المنام مهما شط في التصور ، فانه يبقى ضمن دائرة المنطق . وقد يطرأ على الدماغ حالة مرضية تسلم صاحبها الى التوهم (Hallucination). والفرق بينها وبين الحلم انها تصدر عن الباطن الى الخارج ، على حين ان الحلم يأتي من الخارج الى الداخل . وهي وهم مجرد لا موضوع له ، يختلف عن الوهم العادي المرتكز على سبب خارجي يضخمه ويشوهه ، كما لو مر الجبان الخائف في غابة كثيفة ، فقد يرى بعض الحجارة المتكدسة على جانبي الطريق ، ويحسبها ذئاباً ، بل قد يرى لها رؤوساً واذناباً . اما التوهم الذي نحن في صدده فهو انقلاب خطير في الاحساس اذ يكون صاحبه جالساً على مقعده في منتصف النهار ويتصور لصوصاً يطاردونه،او حيات هائلة فاغرة افواهها بقصد ابتلاعه ، وما شاكل ذلك من الاشباح والأخيلة التي لا وجود لها ولا اثر الا في دماغه المشوه . ويمكن احداث هذا التشويش بطرق اصطناعية كتناول المخدرات وعلى الاخص الافيون والحشيش فان صاحبها يخلع على العالم الخارجي من الاشباح ما لا وجود له الا في ذهنه .

وهناك نوع آخر من الحالات التي تعرض للنائم وهو المعروف بال (Somnambulisme) . وانه في الحقيقة حلم فاعل ، لان الحلم العادي يقتصر على فتح افق التصور لصاحبه الذي يبقى ساكنا في فراشه . اما هذا النوع فهو يحمل صاحبه على التكلم والحركة ، فيمشي ويصعد الى السطح وينقل الامتعة ويأتي كثيراً من امثال هذه الامور وهو نائم .

والفروق بين هذا النائم والنائم العادي كثيرة . فالنائم العادي مخدر بفعل الرقاد وتكون اعصابه المحركة مشلولة بمقدار ، اما هذا فيحتفظ بقوة اعصابه وصلابة اعضائه ، بل قد تزداد عما كانت عليه في حالة اليقظة . فقد يستطيع المشي على شفير هاوية عميقة ، لا يتجاوز عرضه بضع سنتمترات ، ويسير عليه بسرعة كما لو كان سائراً في السهل الفسيح . وفي الحلم العادي يكثر التخبط وينعدم السياق ، اما هنا فيسير الحالم مدفوعاً بفكرة منظمة ينفذها بكل دقة . مثال ذلك ان يعتزم الحالم نقل الكرسي من بهو الاستقبال ليضعه على السطح ، فانه يحمله الى السطح رأساً ، ولا يمكن ان يبدل خطته فيضعه مثلاً في غرفة الاكل . واذا كان الصعود الى السطح يضطره الى ارتقاء درج عال فانه يصعد الدرج واحدة واحدة فيعود فينزل متزناً رزيناً ، لا يتعثر ولا تزل به قدم. وفي النوم العادي ، يشمل التخدير الاعضاء جميعاً ، اما في هذه الحالة فلا يصيب الا بعضها . اما الاعضاء التي توجه للعمل فتقوى على حساب تلك التي لم تزل نائمة . وكثيراً ما يتذكر الحالم العادي ما رآه في منامه ، اما الحالم العامل فانه ينسى كل شيء اتاه . ولا ريب انه في الاعمال التي يقوم بها من مشي ونقل امتعة وما شاكل ذلك مقود بذاكرته ، لانك لو وضعت في طريقه حاجزاً لم يألف وجوده في مكان معين اثناء يقظته ، لاصطدم بهذا الحاجز نظراً لخلو ذاكرته من وجوده في ذلك المكان . وان هذه الحالة الخاصة التي تعتري النائم اي ال (Somnambulisme) قد تكون حالة مرضية وقد تكون اضطراباً عصبياً. وللوراثة تأثيرها في هذا الشأن . وهي حالة طبيعية كما قدمنا،

ولكن يمكن احداثها بطريقة اصطناعية اي التأثير في شخص ما لحمله على امور يأتيها اثناء النوم مرغماً عليها . وانما نعني بذلك التنويم المغناطيسي الذي نلوح اليه تلويحاً ولا نبحثه لانه ليس غرضنا في هذا المقال . ولكننا نقول انه يتعب الجهاز العصبي صحياً ، وانه اذا اسيء استعماله افضى الى اخطار اخلاقية واجتماعية . مثال ذلك ان يُؤمر المنوم في اثناء النوم بارتكاب الجريمة الفلانية في اليوم الفلاني فيفعل ذلك مرغماً . والصواب انه لا يجوز الالتجاء الى هذا التنويم الا في معالجة بعض الامراض العصبية شرط ان يعهد بذلك الى طبيب معروف باستقامة الوجدان وحسن الاخلاق .

وبعد ان المنا بايجاز كلي بالاحلام واسبابها، ترى ما يبقى من القيمة لكتب تفسير الاحلام التي لا تفيد سوى بائعيها ؟!

الجمال

كنت ذات يوم ابحث في احد المعاجم العربية منقباً عن فعل « جمل » . ولئن قلت احد المعاجم فكأنني عنيتها جميعاً ، لأن اكثر المؤلفين لم يخرجوا عن النسخ ، وقد الجأهم هذا النوع من العبودية في النقل الى الخروج عن الكياسة والظرف . فقد ورد في شرح لفظة جمل : ان الجمل بمنزلة الرجل ، والناقة بمنزلة المرأة ، والبكر بمنزلة الغلام ، والبكرة بمنزلة الجارية ، فما اقبح هذا التشبيه ! ورأيت ان لفظة الجمل مأخوذة من مادة جمل ومعناها الاصلي الشحم ، والجميل هو الشحم المذاب ، وتجمل الرجل اي اكل الشحم المذاب . ومنها قول امرأة لابنتها : تجملي وتعففي اي كلي الشحم واشربي العفافة ، وهو ما بقي في الضرع من اللبن .

والظاهر ان الناس في باديتهم نظروا فقط الى جمال المرأة ، واحبوا منها السمن والشحم ، فخلعوا على الحسناء هذا النعت معجبين بالأرداف الرجراجة ، والصدور المتهدلة . فاذا تغزل شاعرهم بالمليحة قال مال الكثيب ، والكثيب تل من الرمل يشبهون به تلك التلال من اللحم . ولا ريب ان معظم النساء كن في ذلك الزمن عجافاً ضامرات فاحب الرجل النادرات بينهن اي البادنات . اما الجمال الذي نتحدث عنه اليوم فهو بحمد الله من غير هذا المعدن .

ان الشعور بالجمال سهل فهو في متناول الناس جميعاً ، ولكن

الصعوبة تقوم في تعريفه . فاذا اعجبك شيء فليس لك ان تنفرد بالاستحسان فتزعم انه يوافق ذوقك ، وما ذوقك بالمقياس العالمي الذي يخضع الناس جميعاً لسلطانه . فوجب اذن ان يكون الاستحسان مطلقاً ، وشرطه ان يتجرد من غاية اللذة والمنفعة وما يتصل بهما ، حينئذ يرتدي الشعور بالحسن طابعه الاجتماعي ، ويحمل المعجبين على نشره في الناس كما تشيع العدوى ، وقد يجهلون سبب هذا الاعجاب ولكنهم يشعرون به . وقد زعم بعضهم ان الجمال هو انتظام الاجزاء والانسجام فيها كما لو نظرت الى وجه حسناء ورأيت فيه حسن النسق والتقويم ، ولكنه تعريف يتناول المرئي من الاشياء فلا يشمل رخامة الصوت مثلاً . اما القول بان الجمال هو انتظام الاجزاء فقد يكون الامر على عكس ذلك ، فاي نظام ترى في الغصون الملتوية التي تنطلق من بين العوسج ، فتتشعب طرائق لا نسق فيها ولا هندام ، وانما تقوم روعتها بالفوضى التي فيها . وفي الحقيقة ان الجمال تعبير نفساني وصبوة الحياة الى الحياة ، وانما الانسان يحب الاشياء التي حوله لانه يرى فيها بعض نواحي نفسه فيخلع عليها من ذكائه وشعوره وروحه .

وميلنا في الحيوية الى الكائنات يشترط خلوّ هذه المخلوقات من القبح والدمامة ، والا فهي مجلبة للرحمة او الكراهية . وان ما يثير اعجابنا هو دفق من الحياة الخصبة الطليقة فنهفو اليها وقد ملك سحرها مشاعرنا، فايقظ العقل والخيال وارهف الحس والشعور جميعاً. ومظاهر الجمال درجات ، تبدأ بالجماد وتنتهي الى الانسان . فانك اذا اجلت النظر في قلعة بعلبك مثلاً وشهدت ذلك البناء الضخم ، اوحى

اليك المشهد فكرة القوة والجبروت. ويوحي اليك منظر الرياض فكرة الشباب النضر ، والامل الخصيب . فاذا لمحت الزنبق ذكرت الطهر ، كما تذكرك رؤية الاسد بالقوة ، والحمل بالوداعة .

اما الغاية في الجمال فهو الانسان ، لانه المرآة التي تنعكس عليها النفس . ولا يكون الوجه جميلاً الا اذا انعكس عليه شيء من حدة الذكاء ، او صفاء القلب ، او قوة الارادة . فاذا تلاقت عليه كلها فهي دولة الحسن ظاهرة في وجه . وكثيراً ما يكون جمال الخلق مظهراً لجمال الخُلق . وانما الله سبحانه هو مصدر الجمال الاعلى ، وقد انعكس بعض جماله على النفس الانسانية التي شعّ بعضها على مظاهر الكون فاحبها الانسان ، وقد احب الله واحب نفسه على غير علم منه ، والله جميل يحب الجمال .

وقد يخلط بعضهم بين الجمال واللذة ، وقد تكون اللذة حيث لا جمال . فقد ينعم المسافر الضارب في القفر بنسيم بليل يهب عليه فيبرد من لفح الهجير . ويطيب لمن اضرّ به البرد ، فأجمد الدم في عروقه ، ان يأوي الى غرفة دافئة فيصطلي. وتشعر الضواري بلذة الشبع عندما تقع على فريسة . ولكن اين الجمال في كل ذلك ؟

والشعور بالجمال يثير في الانسان وحده نشوة الاعجاب والغبطة ، ويسمو بالنفس صعداً الى الذؤابات العلى ، اما اللذة فكثيراً ما تدنيه من الحيوان الاعجم . وكذلك يخلطون بين الجميل والنافع وليس ذلك صواباً . فاية منفعة يجنيها الواقف على اهرام الجيزة المأخوذ بروعة هذا

البناء ، الذي تحدى العصور ولما يزل ؟ ان فنجاناً من القهوة يتناوله في ظلها لانفع واجدى . ولكن اين هو الجمال في القهوة ؟

وفي الجمال درجات : فاذا تناهى سمواً كان الرائع المدهش ، واذا تضاءل كان الحسن . اما الرائع فهو ما يشعرك باللانهاية . مثال ذلك ان ترقى جبال الارز في يوم صاحٍ ، حتى اذا بلغت قنة فم الميزاب وسرحت بصرك في الازرق المتوسط تاهت عينك في الافق ، فيرف الجفن الكليل وقد تخضب بسحر اللانهاية ؛ او ان تنظر الى الاوقيانوس وقد تنادت الزوابع من كل صوب ، وزمجر الاعصار فتعالت المياه جبالاً تنقض على الشاطىء انقضاض القدر ، فيدوي هديرها في اذنك دوياً موصولاً ؛ وتلتفت الى السماء فتأخذ الكواكب عينيك ويعود طرفك حسيراً. حينئذ تشعر انك شيء صغير بجانب اللانهاية ، فينقبض الصدر ويهن الخيال ويغتبط العقل وحده ، لانه متصل باللانهاية ، متصل بالله .

ان الحسن يثير اعجابك ، اما الرائع فيدهشك وقد يعقل لسانك فلا تستطيع كلاماً . وفي الجمال ما يسحرك فيلاشي فيك الارادة كما يلاشيها الاستهواء المغناطيسي. فلو شهدت مثلاً حفلة موسيقية راقصة ، لشعرت بالحياة تتثنى في انحناء الراقصين ، ويعجبك في التثني حركة الجسم صاعدة اكثر منها منحدرة ، لان الانحدار حركة طبيعية موافقة لنظام الثقل ، اما الصعود فهو خروج على المألوف وهو خلق وارتجال، والانسان يتوق الى الابداع والخلق .

فاذا قال قائل ان الانسان يقلد ولا يخلق ، فهو يقلد الطبيعة مثلاً بالموسيقى والغناء ، وانه نزّاع الى المحاكاة . فالمطرب يعبر عن شعور كامن فينا ، لانه بينما يكون آخذاً في العزف نسايره نحن مسايرة خفيفة ، اذ لو طرأ على الآلة ما يقفها عن العزف ، لرأيت المستمع وكأنه مد يده في الفضاء لينجد المطرب في موقفه ذاك .

قلنا هذا رأي صحيح ولكن هنالك فرقاً كبيراً بين شعورنا بالجمال الطبيعي وشعورنا بجمال الفن ، فان الطبيعة تعرض علينا الجمال عرضاً اما الفن فيمليه علينا املاء ، وينزله وحياً .

الا ترى انك لو سمعت العندليب يصدح في الروضة الغناء ، لما تعدى شعورك به الاستحسان ؟ ولكنك لو سمعت هذا النغم نفسه ينطلق من وتر الكمان في ليلة قمراء لاحسست بما يشبه التنويم المغناطيسي ، يقف سريان افكارك واحساسك فتحبس انفاسك على غير علم منك . فلو سمعت في تلك الساعة دبيب النمل لعكّر عليك صفوك ولعنت النمل ، ذلك لان الشعور العميق تغلغل فيك فاصبحت في غربة عن هذا العالم ، ولكنها غربة حبيبة تعود منها وقد تركت فيها بعض قلبك .

ونقيض الجمال القبح وهو خلو الكائن من شروط الجمال التي اسلفناها في هذا المقال ، اي افتقاره الى الحيوية والطلاقة ، والعظمة وحسن النسق . وقد يكون الحسن في صميم القبح وحسبه ان يرينا الصفحة الاخرى المظلمة ، لندرك قيمة الصفحة الاولى النيرة وفقاً لقول

صاحب اليتيمة : « والضد يظهر حسنه الضد » .

ويستطيع بعض اهل الفن التعبير عن القبح بجمال خلاب ، ومثال ذلك الشاعر الضخم شارل بودلير في قصيدته التي عنوانها : « الجيفة » . فقد وصف الجيفة التي يتأكلها الدود بفن ساحر . ولما كان الشيء يذكر بالشيء او بنقيضه ، كما يذكرك البرد بالنار او المر بالحلو ، فقد ذكرني ذلك ببعض الذين امتهنوا الجمال فشبهوا العيون النجل بعيون البقرة الوحشية ، وقوامها بالقضيب ، وارادفها بالكثيب وهم يعيشون في القرن العشرين لم يشهدوا في حياتهم بقرة وحشية ولا كثيباً .

واننا ننقل اليك في ما يلي فقرة عن كاتب شهير لترى كيف يفهم الجمال في بعض العقول ، وكيف يشنع عليه قال : « ولكن الوجه الجميل كذب ظاهر ولا يلائمه الا كذب مثله . ومن هنا فاض الشعر واصبحت اوصاف الجمال كلها تمويهاً على الغريزة وتزويراً للبشرية في غير حقيقتها وتلبيساً على روحانية الانسان ، وعاد الوجه الجميل كالصالح المنافق ، صالح ومنافق اي منافقان في شخص واحد »

ويقول في مكان آخر : « والمرأة ترى بعينها في اناث الطير والبهائم من الجمال ومعانيه ما يروقها ويكثر عندها ، غير انها لا تحس ذلك من امرأة مثلها ، اذ من الصدق الا يصدق كاذب كاذباً فان لم يقنعك ايها الرجل فليقنعك هذا »

وكتب في الهامش ما حرفيته : « تشذ في هذا بعض النساء المذكرات اللواتي خلقن ذكوراً وانحرفن في التركيب الى الانوثة

فتراهن يعشقن النساء عشق الرجل ويغرن عليهن اكثر من غيرته »

افرايت ايها القارىء كيف يفهم الجمال ؟ انا لنربأ به ان يطلع من خلال شهوة ويذهب بذهابها ، فيشوه ويحط من قدره .

اللهم انك انت مصدر الكمال ، فعلمنا كيف نفهم الجمال .

الفَنُّ

لا ريب ان الموسيقى اعلق الفنون بقلب الانسان ، بما فيهــا من حلاوة التعبير وقوة الجاذبية ، ولكنها تأتي في الدرجة الاخـيرة من حيث الدقة والوضوح . فهي شعور فياض ولكنه مشوب بالابهام ، لانها تعبر عن كل شيء ، تحس ولا توصف ، إنها ادنى الى الروح منهــا الى الجسد ، والروح لا تحد بمقدار . فـلو خطت ريشة الرسام الماهر صورة البركان مثلاً لنظرت في اللوحة المعروضة عليك الجبـل المتقد ، ولمحت ألسنة اللهيب تتلوى كما تتثنى حمر الافاعي ،وشهدت الحمم يتطاير من هذا الجحيم ، والدخان يتلاحق غماماً قاتماً ، فيلتف وينعقد هالات سوداء فاحمة . اما الموسيقي فانه يبعث حساً مبهماً مماثلاً لرؤية البركان يخدر فينا القوى المقاومة . وقد استعملت الموسيقى مخدراً قبل ان يكتشف العلماء المنومات المعروفة اليوم . فكان الاطباء الجراحيون يعمدون الى احدى طريقتين : الاولى اعطاء المريض جرعة من المسكر وهي طريقة ضارة ، والثانية تخديره باسماعـه الموسيقى وتخف بذلك آلامه جزئياً . وقد استهوى الجمال الغامض طائفة من شعراء اوروبا فنافسوا الموسيقيين في هذا الصعيد ، وخلعوا على شعرهم كثيراً من الروعة الغامضة ، فعنوا بالنغم والايقاع يغمرونها بالحسن تعبيراً عن الخلجات العميقة وهي خلجات يزداد غموضها بازدياد عمقها . فنهج هذا النهج نفر من شعراء الفرنسيس ، ويعتبر بول فاليري حامل لواء هـذه الدولة

الرمزية. ولا تنس ما تخلعه الرنة الموسيقية على الشعر العربي من الجمال، سواء أكان ذلك في وحدة القافية ام في الوزن والتفاعيل . وقد تكون القصيدة خالية من الفكر والابداع ولكنك تسمعها فتثير فيك الحماسة وتهز اعصابك فترهفها لسل السيوف وطعن الرماح. مثال ذلك القصيدة المنسوبة الى عنترة ، ومطلعها :

حكّم سيوفك في رقاب العذل   واذا نزلت بدار ذل فارحل

او قول المتنبي :

الخيل والليل والبيداء تعرفني   والسيف والرمح والقرطاس والقلم

ويأتي بعد الموسيقى النحت والرسم وما يتصل بهما من الفنون . اما الشعر فهو سدرة المنتهى في سماء الفن . وكذلك شأنه منـذ القديم يوم كان اليونان حملة لواء الحضارة ، اذ تنطوي سائر الفنون الجميلـة تحت الشعر لانه كان ينشد في المسارح مصحوباً بالتمثيل والغنـاء والرسوم والالوان . هكذا كانت تجتمع دنيـا الفن على خشبة مسرح ، وطالما خدّر الشعر الانسان فسحره وألهب الجماهير فأفنى فيهـا الارادة ، ودك العروش ، وخلق الجمال حيث لا جمـال ، وانبت الربيع في صميم الصخر الاجرد وقد قلت من قصيدة لي في هذا المعنى :

ما الربيـع الطلق الا خلجة   مسّها الشاعر فاخضرت جنابا
خط اوراداً على البيد وفي   لفحة الرمضاء اظلالاً رطابا
ينعم العشـاق فيهـا كلما   ضاقت الدنيا فسامتهم عذابا

لقد رأينا في ما تقدم ان الفن يوقظ فينا القوى الكامنـة لتذوق الجمال ، وهو يتوسل الى ذلك بوسائل ثلاث : التقليد والتعبير والخلق.

اما التقليد فقد رأى فيه الطبيعيون (Réalistes) منتهى الكمال زاعمين انه على صاحب الفن نقل الطبيعة كما هي . فاذا صوّر الشجرة مثلاً ، فلينقلها الى لوحة على علاتها . وفي هذا الرأي انكار للمثالية . واذا استطاع المصور نقل الطبيعة فكيف يستطيع نقل الشعر الغنائي ، وليس من الذوق بشيء ان ينقل الينا وتر الموسيقى صياح الصائحين مثلاً . واذا اصبح الفن حقيقة مجردة فقد يفضي ذلك الى الاشمئزاز بل الى الرعب في بعض الاحيان . تصور انك تشهد رواية « روميو وجولييت » مثلاً ، وان هذه الحسناء التي تقوم بدور جولييت ستجرع السم امامك على المسرح ، فيتقلص وجهها الجميل ، وتغيض الحياة في مبسمها ، وتنهدُ هذه الوردة المتألقة مائتة ، وان هذا الموت حقيقي لا وهمي . لا ريب انك تكون اول الهاربين من قاعة التمثيل . ولكن صاحب الفن لا يستطيع الاستقلال عن الطبيعة تماماً ، لأنها الأم التي تغذيه والكوكب الذي يهديه ، يستوحيها ويضيف اليها من عبقريته سعياً في طريق المثالية .

اما العنصر الثاني فهو التعبير . فان الملهم يزف اليك الطبيعة وقد صفاها من شوائبها وخلع عليها من نفسه . فلو نظر الجاهل الى عتمة الليل لقال لك ان الظلام شديد ، وانه لا يبصر . ولكن الشاعر يحس رهبة الليل وسكونه وما فيه من عمق ، فيقول امرؤ القيس :

وليل كموج البحر ارخى سدوله عليّ بانواع الهموم ليبتلي

ان الطبيعة وحدها اي الحقيقة المجردة لا تشبع نهم الانسان ، والنفس البشرية تفتح آفاقاً وراء الطبيعة ، وهي توّاقة ابداً لايجاد ما

لا يوجد . الا ترى ان القبائل المتوحشة نفسها ، وأفرادها حفاة عراة يزيدون على انتاج الطبيعة شيئاً كأن يخضبوا اجسامهم بمختلف الوان الوحول ، او يتزينون بالوشم ويعلقون في انوفهم عقوداً من الاصداف ؟ أوَلا يدل ذلك على رغبة الانسان في التفنن والزيادة على الطبيعة ؟

اما العنصر الثالث في الفن فهو الخلق. وهو يتعدى التقليد والتعبير ، فينطلق العبقري في الاجواء الجديدة ، ويلج الآفاق الأبكار لانه ليس للالهام حدود . وهنا يبدأ عمل المخيلة الخلاّقة فتبدل الاشياء بأن تضيف اليها او ان تسمو بها فتصفيها من شوائب لو ذكرت لاساءت الى الجمال. فترى الشاعر يصف البحر بالعظمة والرحابة والعمق ، ويصف زرقته بانها مرآة الفلك وقد غطسَت فيها النجوم تتعرى وتتبرد ، ويتحاشى ذكر ملوحة البحر وما يلقى فيه من الجيف ، وما ينصبّ من الاقذار. لكن من أين تأتـّى للانسان ان يسمو الى المثالية ؟ لقد زعم افلاطون وتابعه على هذا الرأي بعض الفلاسفة ، ان الانسان قبل ان يهبط الارض شهد الجمال السماوي وما في العالم الآخر من مباهج وسحر ، فظل في نفسه رسيس من تلك الذكريات ، فهو يحن اليها دائماً ابداً ، وهو كلما خطا خطوة في الفن ارتفع درجة في سلم التذكر . ولكنه رأي واهن يفتقر الى الاثبات . والصواب ان الخالق فطر الانسان على حب الجمال والسعي الى المثالية ، واضاف الانسان الى ذلك اختباره الشخصي فتطور على الزمن واخذ في الصعود فتدرّج من الكوخ الى القصر ، ومن تقليد عواء الذئاب الى موسيقى بيتهوفن وشوبرت ، والمخيلة المولدة تأتي بالمعجزات . ترى شاعراً يصف صراعاً قام بينه وبين الاسد فتسري

في نفسك رعدة الخوف مما يصف من هول الانياب والاظافر ، وتكاد تحس بالزئير يمزق اذنيك على حين ان الشاعر لم يرَ في حياته كلها اسداً . وعندما نقول المخيلة الخلاّقة ، لا نعني بذلك انها تخلق الاشياء من العدم . ان الله وحده يستطيع ذلك . لكننا نقول انها تزيد وتنمي وتلوّن ما شاء الفن والنبوغ . الا ترى القصصي كيف يأخذ الحادثة التافهة ، فيجعل منها صرحاً ادبياً عالياً ترتد عنه العيون حسيرة ؟ ان الشاعر الخالد راسين اخذ عن التوراة بضعة اسطر ورد فيها ذكر عتليا، فأتحف العصور بمأساة قال فيها فولتير انها رائعة الفكر البشري .

ويشترط في الخيال المولد ان يعتصم بالعقل والذوق ، فقد يشط الخيال ولا يكون اذ ذاك مولداً بل مريضاً متهدماً فيأتي بالخرافات والاوهام اشباعاً لفضول الغوغاء ، فيتفلت حينئذ من رعاية العقل والذوق ويأتيك بامثال قصة علي الزيبق وفيروز شاه وامثالها . يلقى الانسان ما يلقى في هذه الحياة من الشقاء والالم ، فيأتي الفن وينقذه من براثن الشقاء ، ويحمله الخيال المجنح الى عالم اسمى من هذا العالم .

فاذا تعاظم شقاء الانسان كثيراً فاصبحت الدنيا في عينيه اضيق من عين البخيل ،واكتنفه الظلام فحبس انفاسه ،لجأ الى الخيال المولد فقال:

يا موت يا حلم الخيال النائي ... يا صبح أحلامي وحلو رجائي
انت الرسول الحق غير مدافع ... جلّت رسالته عن الالقاء
ما الموت الا رقدة سحرية ... مخضرّة الاحلام غبّ شتاء
ابدية سكراتها فنعيمها ... امواج لذات ومهد هناء [1]

(١) من قصيدتي « ألم » .

الوجدان

ان الوجدان الذي نتحدث عنه اليوم ليس الوجدان الاخلاقي الذي يعنيه المتكلم بقوله : « فلان طيب الوجدان صافي السريرة » ، ولا الذي يعنيه القاضي الجزائي بقوله : « اني مطمئن الوجدان لهذا الحكم» ، فذلك هو الوجدان بالمعنى الادبي . اما الذي نبحثه اليوم فهو الوجدان البسيكولوجي اي استطاعة النفس ان تعي ذاتها فيما تفعل ، وفيما يطرأ عليها من تغير . فانك عندما تكون فرحاً او حزيناً ، فالقوة التي تعي ما انت فيه من سرور او حزن وتسجلها هي الوجدان ، هو الوعي المسجل لما يطرأ عليك من الحالات ، وهو يقينك الداخلي الصميم المحتجب عن العيون فلا يشعر به سواك . وقد زعم بعض الفلاسفة انه لا يسجل الا التغير والانتقال من حالة الى حالة كما لو كنت محوطاً بصمت عميق فسمعت صداح البلبل ، ثم ازيز الرصاص ، او هدير الرحى ، فيكون الوعي قد سجل الفروق بين هذه الاصوات . والصواب انه لا يدوّن التغير فقط بل يستطيع ان يعي حالة تستمر ساعات طوالاً ، كما لو كنت في نشوة فرح مثلاً فان الوجدان يعيها مهما طالت وبدون ان يطرأ عليها تغير . ويكون هذا الوعي بديهياً حين تشعر بمرور سيارة او تهدم جدار . وهو ايضاً ما تدركه عندما تنطوي على نفسك بالتأمل وامعان الفكر . والبديهي يشترك فيه الانسان والحيوان على السواء . اما المنطوي فهو خاص بالنفس الانسانية ، وقد حسبه الفلاسفة الماديون

اشعاعاً من الدماغ وألحقوه بالمادة . ولكنهم اخطأوا خطأ فاحشاً لانه روحاني يعبر عنه بالكيفية لا بالكمية .

وقد زعم ليبنز (Leibnitz) وشوبنهور وسواهم ان هذا الوعي هو مجموعة حالات لا واعية ، اي حالات لو فرقتها الى وحدات صغيرة لما شعرت بها ولكنها متى تراكمت يعقلها الوعي . وقد مثلوا لذلك بهدير امواج البحر ،فقالوا ان هذه الامواج الصاخبة مؤلفة من تموجات ضئيلة بل من قطرات صغيرة جداً لا يدرك لها صوت الا ان تتكدس وتنمو فتسمع لها هذا الدوي ، مفترضين ان مجموعة الاجزاء اعطت هذه النتيجة الكبرى ، مستنتجين ان للجزء الصغير نتيجة صغيرة . ورد عليهم خصومهم بان النتيجة تقتضي مقداراً كافياً من الشدة ، فاذا تدنّى هذا المقدار فتكون نتيجته العدم تقريباً . مثال ذلك ضربة الابرة التي تقع على قذيفة البندقية ، فلو كانت اخف من اللازم لاثارتها لما بدأ اشتعال البارود ، وهو لا ينفجر الا دفعة واحدة بضربة كافية . اذن فمقدار ما يلتقطه الوعي ليست كمية تتراكم بل كيفية تنمو ، وقد مثل العلامة برغسون لهذه الحالة بالمثل الآتي :

حاوِل ان تطبق كف يدك وتشد بدون ان تزيد في مقدار الشدة . فاول ما تحس به هو تشنج في الذراع ، ثم يمتد هـذا الاحساس الى الكتف فالظهر ثم يجتاح الجسم كله حتى يتعطل النفس . ولكنك لا تعي هذه الحركات المتلاحقة ما لم تنبه الى ذلك لانه كان قد رسخ في ذهنك من قبل ان ثمة حالة وجدانية واحدة تتغير مقدارياً . والصحيح هو التغير في الكيفية لا في المقدار .

ان الوجدان لأشبه شيء بالنهر الذي يجري بدون انقطاع . فلا تتوهمنّ انه ينقطع في حالة الإغماء والنوم العميق ، ولكنه في هذه الحالة محتجب فقط . اما كونه يشبه مجرى النهر فليس ادل على ذلك من قولك لمن يعكر عليك تفكيرك اذا كنت آخذاً في نظم قصيدة او حل معضلة حسابية مثلاً : « اذهب يا فلان فلقد قطعت عليّ مجرى افكاري » . وهذا المجرى يظل في تغير مستمر فلا تمر النقطة الواحدة في النهر الجاري مرتين لأن التي عبرت قد ذهبت الى البحر . وتتلاحق القطرات وتتشابه ، ولكن الواحدة منها ليست الاخرى عينها . وهذا الذي حمل الفيلسوف اليوناني هراكليت على القول بأنه لا يستحم الانسان مرتين في النهر الواحد ، فزاد عليه فيلسوف آخر بقوله بل لا يستحم في الماء الواحد مرة واحدة ، لان الموجة التي تكر عليه في هذه اللحظة تختلف عن التي تليها في الدفقة الثانية . وفي تموجات الوعي هذه تموجات ظاهرة يمكنك ان تخلع عليها اسماً فتسميها فرحاً أو غضباً او حزناً بحسب حالاتك النفسية المتعددة . ولكن منها ما لا تستطيع ان تسميه ، فهو همزات وصل بين حالات مختلفة تتبخر وتطير في هذا الخضم المضطرب . وهي اشبه شيء بالصعاليك الذين يلتحقون بحاشية الملك تكسفهم ابهة الملك . ومهما انطويت على نفسك وامعنت في الملاحظة ، فانت لا تستطيع تبيُّن هذه الاشباح الوجدانية وتسميتها ، بل انك تعجز عن تسمية ما هو اوضح منها . فمن الاشياء ما تحسه ويتعذر عليك تبيانه . فكيف تستطيع ان تشرح للناس الفرق بين طعم العنب والبطيخ مثلاً ؟ وبجانب حالة الوعي الذي شبهناه بالنهر الجاري تقوم حالة اخرى هي

دون الوعي ويسمونها بالفرنسية (Le subconscient) . فقد يكون الينبوع جارياً تحت الارض ويجانبه بقعة مشبعة بالرطوبة ينبت فيها القصب والصفصاف ، فتستدل بذلك على قرب الينبوع ، وتعلم ان هذه الرطوبة هي ما يرتشح منه . كذلك تلمح ما دون الوعي لمحاً غير واضح للبصيرة . فلو كنت مكباً على مكتبك تنشيء مقالاً ، وجاءتك في تلك الساعة دعوة من صديق الى حضور حفلة عرسه في تلك الليلة ففرحت لهذا الخبر بدون ان تنقطع عن العمل فتصبح في موجة من الغبطة مع انك تكون قد صرفت همك الى تحبير المقال ونزعت من خاطرك قضية العرس . اجل ان حالة الغبطة هذه هي دون الوعي .

واهم من هذه الحالة حالة اللاوعي .

فما هو اللاوعي وهل له في الحقيقة وجود ؟

يعلمنا الاختبار انه قد يعرض للانسان مشكلة عقلية يحاول الوصول الى حلها ويجهد نفسه في ذلك فيستعصي عليه الحل في يقظته فينام ويستفيق في اليوم التالي ، فاذا الصعوبات قد زالت والمشكلة قد انحلّت على ايسر ما يكون . فمن أين تأتّى له ذلك ؟ وهل نزل عليه الوحي في اثناء نومه فانار هذه الدياميس التي استغلقت عليه في حال اليقظة ؟ كلا ليس هناك وحي ولا معجزة ، ولكنه اللاوعي قد فعل فعله في اثناء النوم على غير علم من صاحبه . وهكذا يتبين لنا ان هذه القوة الواعية تختلف درجاتها ، فندعوها في حالة وضوحها التام وعياً . فاذا انحطت عن ذلك وداخلها بعض الابهام سميناها دون الوعي . فاذا تلاشت

وانحطت درجة اخرى بحيث لا تشعر بها كموجة البحر الصغيرة لا تسمع لها صوتاً على رغم وجودها ، سمينا هذه الظاهرة اللاوعي . وهي كما قدمنا تكون على هامش الوجدان . والسبب في ذلك ان الانسان عملي . فاذا عرضت له خمسون حادثة في اليوم فلا يتنبه الا لواحدة او اثنتين منها ، ويحيل الحادثات الباقية على الاستيداع . غير ان هذه الإحالة لا تميتها تماماً بل تطرحها في الظل اي في المستودع لان كل ما يمر بالانسان يسجل في هذه القوة الباطنة . والبرهان على ذلك ما يحدثك عنه بعض الغرقى الذين انتشلوا من البحر . فانهم في اللحظة التي يهبطون فيها الى القعر يستعرضون ماضي حياتهم في بضع ثوان كأنهم يشهدون فلماً سينمائياً يعرض بسرعة البرق .

وان هذه الافكار المطروحة الى حين تبرز من مكمنها اذا أتيحت لها الفرصة وتخرج من القبو المظلم الى الدائرة النيرة ، فتتناول منها ما شئت . افترض ان مسافراً ركب القطار من بيروت الى صور لشأن هام ، فانه يلمح في طريقه البساتين التي يشقها القطار ، وينشق عبير الرياض ، ويرى الشواطىء الساجية . وقد يبقى في معزل عنها جميعاً لانه صرف همه الى الشأن الذي سافر من اجله ، وطرح هذه المشاهد كلها في الزاوية المظلمة . ولكنه لو حاول بعد حين وصف الرياض او شاطىء البحر وايقظ خاطره ، لجاءته هذه المناظر ملبية طائعة غير عاتبة عليه من اجل اهماله. اجل ان هذه الحواشي المهملة هي التي تغذي الذاكرة وتحيلها الى مخيلة مولدة ، ولها الفضل الاكبر على الشعراء والمشتغلين بالفن ، اذ انها الينبوع الذي منه يستقون. وقد كافأ الشعراء

هذه الحواشي المهملة بان خلعوا عليها اسماً جميلاً دعوه الالهام الذي يهبط عليهم من عل ، وليس هناك علو ولا سفل . وانما الفضل يعود الى ذلك الخزّان العميق الذي يدفع كنوزه المخفيّة غب الطلب وبدون شكوى .

قال هنري بوانكاره : « تحاول ان تقوم بعمل عقلي فيستعصي عليك فتستريح بعض الوقت ثم تعيد الكرة ففي نصف الساعة الاول لا تجد ما ترتاح اليه . ثم يأتيك الفكر بما تريد . وقد تنسب ذلك الى تجديد القوى بالاستراحة التي نلتها . والارجح ان اللاوعي كان يعمل في هذه الاثناء ، فلما عدت الى العمل تفجر وعياً ولبّاك » .

ولا تنس اهمية اللاوعي في حقل العاطفة ، فهو الذي يحملك على حب شخص تراه للمرة الاولى ، او على كرهه بدون ما سبب . وهو الذي يغير اتجاهك وسلوكك على اثر كتاب تقرأه ، او منظر تشهده ، او حديث تأخذ به مع رفيق . فمن زعم انه لا يتأثر بشيء من هذا فهو في ضلال مبين . ان ما يهمله وجدانك الواعي يلتقطه اللاوعي الحريص. فهو احرص من النملة واكثر منها ادخاراً ليوم الحاجة . وهو نشيط لا يكسل ولا يتراخى فاذا انت نمت فهو الكفيل ان يعمل لحسابك لا يتقاضاك اجراً ولا شكوراً .

الواجب الأدبي

قال شيشرون : ان في الكون نظاماً سرمدياً شاملاً معقولاً يأمرنا بالمعروف وينهانا عن المنكر ، لا يجوز خرقه او محوه او تبديله . وليس في استطاعة الشعوب والقضاة ان يحلوا شيئاً من روابطه ، وهو واحد في روما واثينا على اختلاف الامم والعصور ، ذلك هو الواجب .

وقالت حكمة الشعوب منذ فجر التاريخ افعل بالغير ما تريد ان يفعله بك الغير .

واذا نحن نظرنا في أعماق وجداننا ادركنا هذا الواجب ، لان الوجدان ينشر امامنا ما ينطوي عليه الضمير من خير وشر ، ويزن القيم بالميزان العدل ، ويقدر ويقرر ، وان هذا المبدأ الاخلاقي الذي يأمر بالخير ويشجب الشر هو غريزي في النفس . ولنضرب على ذلك مثلاً ايضاحاً لهذه النظرية :

افترض ان الاقدار جمعتك بصديق قديم في بلاد الغربة ، وقد أوشك الرجل ان يموت فاستودعك مبلغاً من المال لتدفعه الى ابنه الموجود في بلد آخر . ثم توفي هذا الصديق ولم يطلع على سره سواك ، وانت فقير مدقع والمال في يدك وليس بينك وبين الغنى الا ان تكتم السر وتمتع النفس بالطيبات بدون ان تعرض نفسك لدعوى سوء الائتمان ، فماذا يقول لك العقل وبم يأمرك الضمير ؟

لا ريب ان هذا القاضي العادل يقول لك اعط المال مستحقه ، فاذا لم تفعل فانت سارق . فهو لا ينظر الى نفعك وفقرك وغناك بل يأمرك امراً مطلقاً لا قيد فيه ولا شرط ، فتقوم عندئـذ في نفسك كراهيـة للشر وتخجل نفسك من نفسك اذا صرفت سمعك عن هذا النداء . فاذا قاومت التجربة وانفذت وصية الميت فانك تعلو في نظر ذاتك، وتشعر بغبطة حتى لترتفع الى عالم آخر من اللذة الروحانيـة : تلك هي لذة القيام بالواجب .

فاذا خضعت للتجربة وتملكت المال ، فعلى الرغم من هذا الغنى الذي تنعم به ، ومظاهر الترف والأبهة التي تحيط بك ، يهتف في داخلك هاتف يقول لك انك شقي ظالم ، وتضطرم في احشائك ثورة ، ويحز في اعماقك الالم المدوي ، وهذا ما يسمونه وخز الضمير . وليس وخز الضمير والندم واحداً ، فان بينهما فرقاً ظاهراً ، لان الانسان قد يلذعه وجدانه ولا يندم ، والنادم يحاول التفكير عما جنى للتطهر من الاثم ولنيل الغفران ، اما وخز الضمير فهو عقاب اصدره هذا القاضي العادل الذي لا يتأثر برشوة ولا بواسطة . وهو الوجدان الذي يصيح بنا ان هناك شيئاً فوق ميلنا ونفعنا وهو الواجب .

اذن ينجم عن هذا النظام الادبي موجب يوجه ارادتنا ، ولكنه موجب غير مجبر كالموجبات المدنية التي تنجم عن العقود وتقضي بهـا المحاكم العدلية . اجل ليس من قوة تستطيع اعفاءنا من النظام الادبي ، ولكن ليس من قوة تحملنا على انفاذه قسراً .

ان اللذة تعترينا وتستهوينا ، والنفع يجذبنا ، ولكن الواجب وحده يأمرنا . ولقد زعم بعض الفلاسفة المتهوسين أن الانسان ولد حراً ، فهو طليق من كل نظام . اجل ان الحرية حلته من القسر لا من الواجب الذي يتوجه الى عقله بدون تغيير ارادته . الحرية والواجب صديقان يتآلفان . ولولا وجود النظام الادبي لما كان للحرية معنى ، ولا يبقى حينئذ معنى للاختيار . فاذا تساوت السرقة والحسنة في القيم المعنوية فلمَ يختـار الانسان الاحسان الى الفقراء بدلاً من السرقة والاحتيال ؟

كما انه لا معنى للنظام الادبي بدون الحرية ، اذ لو كان الانسان مجبراً على عمل الخير لما بقي معنى للنظام الادبي الآمر .

ويتفرع على ذلك ان هذا النظام يجب ان يكون معروفاً ، فـاذا كان مبهما استحال انفاذه ، وان يكون مستطاعـاً لان الله لا يكلف نفساً الا وسعها .

والنظام الادبي نظام مطلق غير مقيد بشرط ، فـلو انك نصحت للتاجر الفلاني ان يتجنب الغش والكذب لينال ثقة الزبائن ، لانه متى حسن صيته جـاءه الكسب والشهرة وما يتصل بهما ، لكانت هـذه النصيحة مقيدة بشرط : اصدق تنجح. اما النظام فهو مطلق اذ يأمرك بالصدق لمجرد الصدق بدون اي التفات الى المنافع والملذات . والنظام الادبي شامل لكل زمان ومكان وانسان ، لا استثناء فيه ولا هوادة . وهو ربط علاقة الطبيعة البشرية بغايتها الاخيرة السامية ، وبما ان هذه الغاية واحدة فالطريق المثلى اليها واحدة . ولو كان هذا النظام مبنياً

على منافعنا الشخصية وميولنا ، لتغير بتغير الاشخاص والاقاليم لان ميولنا لا تستقر على حال . فان ما نراه اليوم نفعاً محضاً نراه غداً ضرراً محضاً . وان ما فيه نفعك فيه ضرر لجارك . اما الواجب فلا يتعارض مع مصلحة احد . وانك تستطيع تعميم الخير ، ولكنك لا تستطيع تعميم الشر بدون ان تقع في الفوضى والتناقض. فان الذي يحتال ويسرق لا يريد ان يفعل الآخرون فعله ، بل يبغي احتكار هذا النوع من الشر على ان يظل الآخرون مقيدين بالنظام العام . وان اللص لا يرضى ان يطرق اللصوص بيته ويسرقوا متاعه ، ومن مأثورهم ان الواجب هو ما نطلب من الغير القيام به .

اما طبيعة الواجب ومادته ، فهي الخير ولكن ما هو الخير ؟ لقد اجمع الناس قاطبة على وجود شيء يدعونه الخير يقابله في الناحية المعاكسة شيء آخر يسمونه الشر . وبديهي ان الاحسان خير والاقدام على القتل شر . ولكن ما هو السبب في هذا الاعتبار ؟

يزعم بعضهم ان القتل يعكر صفو البشرية ولا يتلاءم مع الغبطة التي ينشدها الانسان في هذه الحياة ، لذلك فهو شر . ويزعم البعض الآخر ان القتل مناف للعقل ومخالف للشريعة ، وهو يقود المجرم الى منصة الاعدام . وكل من هذه الآراء ينطوي على شيء من الحقيقه ، ولكن طبيعة الخير فوق كل هذه الاعتبارات . ان الانسان مجموعة قوى وميول يتعذر ارضاؤها جميعاً فهي في الغالب متناقضة لان الغريزة تدفع ، والشهوة تستهوي ، والمطامع تنفخ من كل صوب . فلو استسلم الانسان للطبيعة يتبعها في كل ما توحي اليه ، لآل امره الى الفوضى والدمار

خصوصاً وهو غير مركب من جسم فقط بل من جسم وروح . والروح هي الجزء الاسمى . وقد شبه افلاطون الجسم بالجواد الذي يجر العربة والروح بالسائق . فاذا ترك العنان للجواد السائر قاده الطيش الى المزالق الخطرة وافضى به الى الدمار . ان المرء ينشد الغبطة وينمو في هذه الحياة ، ولكن هذا النمو يجب ان يسير متزناً منسجماً بحيث لا تطغو عليه القوى الحيوانية ، بل تظل خاضعة للجزء الاسمى ، لهذا الحوذي الذي يسير المركبة فيغذي الجواد ويرفق به ويدفع عنه الاذى ولكنه لا يتركه يبطر ، ولا يرخي له العنان بل يجريه في طريق قويم . اذن فعلى الانسان ان يعيش وينمو ضمن دائرة النظام الادبي خصوصاً وانه يعيش في المجتمع . فاذا قامت في صدره ميول واطماع ، فان لغيره ايضاً مثل ما له من الحق فلا يكفل المساواة الا النظام الشامل . فكما ان النحلة تعيش لنفسها وللجماعة فكذلك شأن الانسان. لذلك قالت حكمة الامم من زمن بعيد ان تقدم الجماعة لا يكون بسوى العدل والمحبة والاخاء . وهذه هي العوامل الفاعلة في بناء صرح السعادة ان وجدت السعادة على وجه الارض .

قلنا ان طبيعة الواجب هي الخير لان مميزات الواجب هي نفسها مميزات الخير ، فهو مطلق شامل لا يتبدل . اما مبدأ المنفعة واللذة، فلا يصح اتخاذه نظاماً ادبياً . فقد يكون نفعك ضرراً لغيرك على حد قول القائل : مصائب قوم عند قوم فوائد . وقد يكون سرورك كدراً لغيرك فاذا انت تقيدت بالنظام وقمت بالواجب فانت كبير امام ضميرك . ولكنك مهما بلغت من الجاه والمال واقبل عليك الناس يمتدحونك

ويتزلفون اليك وكنت مجرماً ، فان في قرارة نفسك عقوبة لك . فاذا لم تشعر بشيء من ذلك فان ضميرك قد تحجر ومات لكثرة ما راوده من الاثم وناله من سهام الشر على حد قول المتنبي :

تكسرت النصال على النصال .

ولننظر الآن هل تقدمت الانسانية في المضمار الادبي ؟ زعم بعضهم انها تقدمت بتقدم الاختراعات والعلم ، وزعم آخرون ان الفضيلة تقهقرت وانحطت كثيراً عما كانت عليه في العصور الغابرة .

وفي الحقيقة نرى ان التقدم حصل في بعض نواحي الحياة ، فقد الغيت العبودية ودواوين التفتيش وما كان يلقاه السجناء من ضروب التعذيب وقتل الاسرى الى آخر الباب . ولكن التقدم الفكري لايعني التقدم الادبي ، فقد يكون اوفر الناس علماً مجرماً خطيراً . وليس تطور الشرائع وتوفير اسباب الامن والرفاهية دليلاً على فضائلها .

ولقد زعم بعضهم ان البشرية هي هي من الجهة الاخلاقية لم تتقدم ولم تتأخر . فالميول والافكار التي كانت تجول في صدر آدم وحواء تجول في صدر اولادهما ايضاً وعلى كل حال فان الجزم في حل هذا السؤال صعب ولكننا نرجو ان يأتي اليوم الذي يشعر فيه الانسان انه ظلٌ من العالم الأسمى يسير وبصره الى فوق .

المسؤولية

في حديث سابق ألمعنا بالواجب الادبي وفي حديثنا هذا نبحث في نتائجه التي يتفرع عنها الاستحقاق او المسؤولية. فعن فكرة الخير نجم الواجب ، وعن الواجب تفرعت الحرية ، لانه لو لم يكن الانسان حراً لما استحق ثواباً او عقاباً .

ونظراً لهذه الحرية التي يتمتع بها ، فهو يستطيع خرق النظام ، ولكنه مسؤول عن هذه المخالفة يتحمل تبعتها ويؤدي عنها حساباً . والمسؤولية التي نعنيها هي المسؤولية الادبية لا القانونية ، وهي مقيدة بشرطين : اولاً ان يكون الفاعل حراً ، ثانياً ان يكون العمل واجباً ملزماً .

وفي المسؤولية درجات ، لانه قد يطرأ على الارادة ما يضعفها او ما يلاشيها تماماً . فان المجنون غير مسؤول اما السكران فمسؤول عن تعريض نفسه للسكر الذي حمله على الاجرام . فهو اذا قتل او سرق وقد تلاشت ارادته فلا تنس انه اقدم على السكر حراً مختاراً ، وقد يساق المرء الى جناية تحت تأثير الاكراه المعنوي ، مثال ذلك ان تهددك قوة غاشمة بانزال اشد النكبات فيك ان لم تقدم على جريمة معينة، فماذا تفعل في مثل هذا الموقف ؟ ان الوجدان يملي عليك الثبات في وجه العاصفة مهما كانت شديدة ولكنه موقف حرج فقد يفقد الانسان من

شجاعته ويخضع وهنا لا بد من النظر الى عظم النكبة التي هدد بها الفاعل والى درجة شجاعته وطبيعة مزاجه .

ولكن اذا نجم اخلالنا بالواجب عن عادة سيئة الفناها فاننا مسؤولون عنها لان المرء يحصد ما يزرع . ان الذي يقذف بالحجر الى الهاوية لا يستطيع رده عندما يهوي الى الاعماق مجتاحاً في طريقه ما يصطدم به من نبات وحيوان ، ولكنه مسؤول عن دفعه الى المنحدر السحيق . وبدلاً من ان يكون التمادي في العادة السيئة سبباً مخففاً يكون سبباً مشدداً . وكذلك هي الحال في القانون الجزائي فان الذي يكرر الجرائم تضاعف له العقوبات .

والمسؤولية تزداد وتنقص بالنسبة الى درجة معرفة صاحبها فمن أعطي كثيراً يطلب منه كثيراً .

اما في نظر القانون فلا يعذر الجاهل ، ولا يستطيع احد ان يتذرع بعدم معرفة النظام .

وفي المسؤولية الادبية يكون المرء مسؤولاً عن جهله الناتج عن الاهمال . فان الطبيب الذي يسيء الى مريضه ، والصيدلي الذي يخطىء الدواء فيقتل العليل ، يتحملان تبعة جهلهما ، اذا كان سببه الاهمال والكسل ، لان الواجب يقضي عليهما بالاستنارة والتعلم . وكذلك القول في جميع ارباب المهن . والانسان يتحمل تبعة اعماله الشخصية مبدئياً ، ولكنه يصبح مسؤولاً عن جريمة يقترفها غيره في بعض الاحيان ، كالتبعة التي تلحق الاب من ولده القاصر ، او التي تلحق السيد من اعمال

اجيره ، او ناظر المدرسة من المخالفات التي يأتيها التلامذة المنضوين تحت ادارته . نقول هذا من باب التمثيل لا من باب الحصر لان المسؤولية الناجمة عن اعمال الغير واسعة النطاق وليس هنا مجال بحثها فانها داخلة في المباحث القانونية المتشعبة المذاهب والاجتهاد . ونقيض التبعة التي تلحق بنا عند خرق الواجب، الاستحقاق الذي نناله اذ نؤدي رسالتنا الانسانية كاملة فنسير في طريق الكمال والمثالية . وفي الاستحقاق كما في المسؤولية درجات وفروق فليس من يجازف بحياته في سبيل انقاذ الاطفال من الحريق اذا شبت النار في مدرسة مثلاً، كالغني الذي يتبرع ببضع ليرات لانشاء ميتم، خصوصاً اذا كان هذا التبرع سلماً الى الشهرة الفارغة وهو ما يجري في الغالب . وانما الاعمال بالنيات .

شروط الاستحقاق

زعم بعض المفكرين ان الانسان اذا تطوع لعمل خيري غير واجب كان اكثر استحقاقاً ولكنها نظرية تصدق من وجوه ويعتريها الخطأ من وجوه اخرى . فان الذي يحسن الى فقير ويتهرب من ايفاء دين مستحق عليه لا يأتي عملاً مشكوراً .

ويزعم الفيلسوف كنط (Kant) ان الثواب يجب ان يكون على قدر المشقة ، وهذه نظرية اخرى صحيحة من جهة ، فاسدة من جهة اخرى. فان العمل الذي يؤدى بمحبة وحسن نية قد يكون اجدر بالمكافأة من عمل شاق لم تتوفر فيه حسن النية والعاطفة النبيلة .

وفي الحقيقة يجب ان يتعادل الثواب مع مقدار الخير الذي ينطوي عليه العمل ، ومع مقدار الجهد الذي اقتضاه .

فلو فرضنا ان حريقاً شب في قرية، وتطوع الناس لانقاذ المنكوبين فانبرى من بين الجمهور رجل وامرأة خاضا السنة اللهيب حتى بلغا الطبقة العليا من البناية المحترقة ، ثم عاد الرجل يحمل على يديه طفلاً انقذه من الجحيم المضطرم ، لما كان اكثر استحقاقاً من المرأة التي تعذر عليها انقاذ طفل آخر لانها لا تملك رباطة جأش الرجل ولا عضلاته الفولاذية ، ولا قلبه الجريء . ويذكرنا هذا بفلس الأرملة التي قال عنها الانجيل انها جادت بكل ما عندها . ومن كان عصبي المزاج غضوباً وملك نفسه كان اوفر اجراً من اخيه الهادىء الناعم الحواشي .

وهنا يفضي بنا البحث الى تعريف الفضيلة . واصح تعريف لها انها التمرس بالاعمال الصالحة حتى يكسبنا هذا التمرس عادة القيام بالواجب .

اذن فالفضيلة تفترض العادة لتصبح ملكة ، لأن مأثرة واحدة منفردة يأتيها الانسان تحسب عملاً جديراً بالثواب لا فضيلة ، فكما ان المرء لا يعد سكيراً اذا سكر مرة واحدة فانه لا يحسب فاضلاً بعمل واحد منفرد . وكذلك التاجر في نظر القانون فهو لا يحسب تاجراً إلّا ان تتكرر الاعمال التجارية التي يقوم بها .

ولا بأس ان نلتفت الى العصور الغابرة لنتبين رأي الاقدمين في الفضيلة .

فقد زعم سقراط ، وتابعه على هذا الرأي تلميذه افلاطون، انها علم

الخير وان الرذيلة هي الجهل لان الانسان يسعى بطبعه الى السعادة . فاذا لم يتخلق بالفضيلة فلغباوته، اذ لو كان متعلماً مستنيراً لما اقدم على الشر فالذي يسرق يقدم على السرقة باعتبارها خيراً لا شراً . والفضيلة جميلة جذابة فحسبك ان تدل الانسان عليها ليدوس على ميوله الشريرة ويهرع الى هذه المملكة الرائعة يستظل بظلها . ولم يكن هذا رأي القدماء فقط بل تابعهم عليه كثيرون من المفكرين والادباء في العصور الاخيرة ومنهم فكتور هيغو(Victor Hugo)القائل: من فتح مدرسة اقفل سجناً. ولكن الواقع يثبت ضلال هذه الآراء فقد تعممت المدارس في الشرق والغرب ، وافضت النتائج الى ازدياد عدد المجرمين بل اصبح الجناة يتفننون في الاجرام .

واني بصفة كوني قاضياً متقاعداً قضى ست عشرة سنة في سلك القضاء اللبناني استطيع ابداء رأيي الشخصي في الامر . فقد لاحظت ان في النواحي التي يسود فيها الجهل تكثر حوادث القتل والجرح والسرقة وقطع الاشجار ، اما في النواحي التي يكثر فيها المتعلمون فتكثر دعاوى الاحتيال وسوء الائتمان والتزوير والتهرب من ايفاء الدين وتهريب اموال المديون بطرق شتى ، ومن هذا النوع الاخير الإفلاس الاحتيالي .

لا نكير ان العلم اذا رافقه وجدان نقي يردع صاحبه عن السيئات. وقد يقترف الانسان ذنوباً لو ادرك فظاعتها لما اقترفها ، ولكن الضمير القويم هو الاساس في الفضيلة ولقد اصاب الشاعر القائل :

لا ترجع الانفس عن غيها ما لم يكن منها لها زاجر

فانه لمح بذلـك الى قوة الارادة . وفي الحقيقـة ان للارادة الشأن الاكبر في الفضيلة . وان افلاطون الذي ضل في تعريفها من جهة قارب الحقيقة من جهة اخرى ، اذ قال : انها عافية النفس وانسجامها . امـا ارسطو فقد عرفها بقوله: انها تعوّد الخير والتزام الحد الوسط ، فالافراط في الاكل مضر كالصوم الطويل . وفضيلة الاقتصاد هي وسط بين البخل والاسراف ، والشجاعة محمودة وهي وسط بين الجبن والتهور . غير ان ارسطو وهو الحكيم الكبير قيـد هـذا الوسط بقيود تختلف باختلاف ظروف المكان والزمان والاشخاص ، فالوسط الذي يعنيه هو ان يسير الانسان نحو الكمال في طريق سوي ، لا يحيد عنه يمنة ولا يسرة . اما تفسير بعضهم لقوله ان يبقي الانسان مترجحاً بين الخـير والشر فهو تفسير مغلوط. اما قوله انها عادة فلا يفيد انه يقصد بذلك التقليد الاعمى والعمل الميكانيكي ، فيجب ان تكون الفضيلة مقرونـة بالمعرفـة وان تمارسها بملء الرضى والارتيـاح لا مجبراً عليها كما يجرع المريض الدواء الكريه ويحتمل مرارته بغية الشفاء .

يبدو لنا من كل ما تقدم ان عمل الخير يقتضي ثلاثة امور : ان نعرفه ونحبه ونجتاز العقبات التي تعترضنا في انجـازه . هدانا الله جميعاً سواء السبيل انه مصدر الكمال والخير .

الوجدان الأدبي

وضعنا عبارة الوجدان الادبي عنواناً لهذا الحديث تميـيزاً له من الوجدان البسيكولوجي ، لان الوجـدان البسيكولوجي هو الوعي المسجل لاعمالنا ، اما الادبي فلا يقتصر على التسجيل ، ولكنه يقف منا موقف القاضي الذي يقرر ويحكم ، فتحتم علينا بعد ذلك ان نبين اساس هذا الوجدان وطبيعته .

من البديهي ان يميز الانسان بين الخير والشر ، فان اعمالنا ليست سواء في ميزان التقدير ، فمنها الصالح الجدير بالثواب ومنهـا السيء الخليق بالعقاب . والوجدان هو هذه القوة المميزة الكامنة في نفوسنا . وترى المفكرين مجمعين على هذا الرأي ، ولكن الجدل العنيف يحتدم فيما بينهم عندما يحاولون تحديد منشأ وطبيعة هذا الوجدان .

فلقد زعمت طائفة منهم وهي فئة الفلاسفة التجريبيين (Empiristes) الذين يؤمنون بالاختبار وحده ، ان هـذا الوجدان نشأ عن العادات والتقاليد والتربية والشرائع البشرية . ولقد زعم قدماؤهم ان العدل هو ما يرضي القوي . اما العصريون منهم امثـال الفيلسوف سبنسر (Spencer) فقد زعموا ان العدل هو حق القوي ركزه العنف ومكنته العادة ، وقدّسه الزمن . اما مفكرو القرن العشرين من هذه الطائفة التجريبية ، فقد زعموا ان الوجدان يرتكز على الانظمة الاجتماعية ،

فليس هنالك خير وشر الا ما قررت النظم والشرائع انه كذلك . فان ارتكاب جرم لا يجرح الوجدان لان الجرم شنيع بحد نفسه . ولو لم تكن الانظمة والشرائع قد حرمت ذلك لما شعرت بوجود جريمة . وقد علل هؤلاء الفلاسفة لنظريتهم فقالوا : كانت اعمال الانسان القديم اي المتوحش متساوية في نظره اذ كان يعمل مدفوعاً بعامل الغريزة التوّاقة الى البقاء واللذة . ثم علم هذا الوحشي بعد اختبار طويل ان اللذة الموقتة تكلفه ثمناً غالياً ، فحاول ان يرجئها ويطيل في امدها ، وهذا ما يسمونه المنفعة لانها اجدى واثبت ، فأخذ الآباء ينهون الابناء عن اتيان العمل الفلاني لانهم اختبروه فوجدوه وخيم المغبة . هذا من جهة ، ومن جهة ثانية فان قادة الشعوب رأوا في اتباع النظام وفرض السنن فلاحاً لهم وللأمة التي يحكمونها ، فعلقوا الثواب على بعض الامور والعقاب على افعال اخرى حسبوها ضارّة .

فلذلك نرى اليوم وبعد مرور العصور ان بعض الافعال موجبة جديرة بالاستحقاق والمكافأة والبعض الآخر قبيحاً . فنجد ميلاً للأولى وكراهية للثانية . وهكذا نمت فكرة الوجدان الادبي وتطورت على الزمن بحكم الوراثة والتقاليد مختلفة باختلاف الاقليم والبيئة .

ولكن في هذا الرأي كثيراً من المغالاة ، لان الوجدان الادبي قائم في الطبع الانساني . اما النظم والتقاليد الاجتماعية فقد انمته واثبتته فينا ولكنها لم تخلقه خلقاً . فكما ان درس العروض والتمرس بفن الرسم لا يصير الانسان شاعراً ولا سيداً من أسياد الفن اذا لم يكن موهوباً ملهماً بفطرته ، فكذلك التربية والنظم الاجتماعية لا تخلق الوجدان الادبي في

المرء ، فضلاً عن ان الشرائع المدنية لا تنال الا الافعال الخارجية ولا تنال الافكار الخفية ، فهذا الصعيد حرام عليها . ولقد صدق سوفوكل (Sophocle) حين قال : ان هنالك شريعة إلهية غير مكتوبة وهي ليست منذ اليوم ولا الامس بل منذ الازل . فالوجدان الادبي وليد العقل وهو مطلق شامل محتوم على كل انسان . ورغم جزم الاختصاصيين في المسائل العقلية بأن هذا الوجدان مفقود عند بعض الاشخاص ، فالشواذ لا ينفي وجود القاعدة ، كما ان وجود العميان لا ينفي ان للانسان عينين يبصر بهما .

ولكن ما هي قيمة الوجدان الادبي ؟

يزعم بعض المفكرين ان الوجدان معصوم من الخطإ فيعتبرونه بمثابة الوحي الالهي يملي علينا واجبنا ، وينير امامنا السبيل فلا نقع في الضلال ابداً . واكثر هؤلاء تطرفاً جان جاك روسو القائل : « ايها الوجدان ، ايتها الغريزة الالهية والصوت السماوي والدليل الذي يهدي الانسان الجاهل المحدود ، العاقل الحر معاً ، انت القاضي المعصوم الذي يجعل المرء شبيهاً بالله » . وفي رأي روسو وامثاله كثير من المبالغة لاننا طالما شاهدنا الوجدان عرضة للتغيير والتناقض ، يعميه الضلال وتستهويه الشهوة . وهو يكون في بعض الاحيان صامتاً او حائراً لا يدري كيف يسير . فلو سلمنا بهذه النظرية المتطرفة لما بقي للتعلم من لزوم إذ ان الوجدان معصوم .

وتقوم بإزاء هذه الآراء التي تؤلّه الوجدان ، آراء معاكسة تساويها في التطرف ، فتزعم ان لا وجود له الا بفضل التقاليد . ويقول انصار

هذا الرأي لو كان الوجدان في الطبع البشري لوجب ان يكون شاملاً كالطبيعة نفسها ، ولو صحّ انه وليد العقل لوجب ان يكون واحداً في كل الشعوب ، وفي مختلف العصور . والواقع يثبت لنا انه مفقود في الأمم المتوحشة،فان بعض القبائل مثلاً يشجع السرقة والقتل وفي بعضها يقتل الابناء آباءهم والشيوخ العاجزين عن الكسب والصيد . اما في الشعوب المتمدنة فكان الاستعباد والتعذيب من الامور المشروعة ، واليوم اصبحت جرائم . وقيمة بعض الاشياء في بلد تتغير في بلد آخر ، فالبراز كان محللاً في ناحية من نواحي المعمور . وكل ذلك يدل على تغير الوجدان .

اجل ان الوجدان يتبدل بتبدل الزمان والمكان ، ولكن هنالك نقاطاً ثابتة منذ البدء لدى سائر الامم حتى لدى اعرقها في الهمجية وهي نقطة التمييز بين الخير والشر .

اما التغير الذي ذكرناه فسببه اختلاف درجات الرقي في الامم وتشعب العادات وطبيعة الاقليم ، وعوامل اخرى عديدة توجه المرء في سبيل وتصرفه عن آخر . ففي بعض الاقاليم المجدبة مثلاً ، حيث يخيم الفقر ويرتع الشقاء ، تنحصر جهود السكان بامر تأمين المعاش سواء كان ذلك بطريق الصيد او الغزو ويكون اذ ذاك افضلهم اشدهم همة في القتال ، وأمهرهم في الرماية . فاذا قتلوا آباءهم العاجزين عن سل السيف وتسديد السهم ، فانما يفعلون ذلك من الإملاق والفقر . ولكن هذا الشذوذ والخطأ في التطبيق لا ينفي القاعدة . فلو ان حاسباً جمع اربعة الى اربعة فقال انها تسعة بدلاً من ثمانية ، لما أثر هذا الخطأ في صحة القاعدة التي تجزم بان الاربعة مجموعة الى اربعة تساوي ثمانية .

وبعد ان عرضنا النظرتين في تقدير الوجدان الادبي ، نقول ان افضل الآراء في هذا الشأن ، رأي القائلين ان الحقيقة في الوسط ،فليس الوجدان معصوماً كما انه ليس وليد العادة والتقليد ، فهو يرشدنا الى الطريق الاصوب ويدلنا الى الخير والشر عندما يتكلم العقل وحده . وهي على كل حال هداية نسبية تختلف باختلاف الاشخاص والثقافة . ولكننا نعلم ان في داخلنا قوى غير العقل وانها تتكلم . ان السائر في طريق سويّ معبّد قلّما يضل ، ولكنه يصبح عرضة للضلال عندما يبلغ مفترق الدروب وتتشعب لديه السبل . ان في الانسان ميولاً وشهوات تضعه على مفترق الطرق ، ومن هنا يبدأ الزلل . ويتفرع على ما قدمناه اشياء كثيرة فيكون الوجدان جاهلاً ، وهو ما يكون في الصبيان القاصرين او المختلّي العقول ، او مستقيماً وهي استقامة نسبية لان العقل البشري ليس كاملاً فالكمال لله وحده ، او مترجحاً بين الشك واليقين فيما يقول ويفعل . وعلى الانسان ان يعمل بما يوحي اليه ضميره ، فاذا اخطأ فيشفع به حسن النية ولكنه اذا فعل العكس فماذا يشفع به . ولكن ذلك لا يعفيه من الاستنارة برأي من هو اعلم منه فان العناد والادعاء كلاهما خطأ . والاسترشاد واجب على المرء لانه عرضة للزلل كما قدمنا . فاذا خامر وجدانه ادنى شك تحتم عليه ان يستشير لئلا يزل ويخل بالنظام .

فاذا كان في القضية التباس بعد درسها وتمحيصها وجب عليه ان يأخذ بالرأي الارجح .

فأنت ترى بعد ان ألممنا سراعاً بدرس الوجدان الادبي انه موجود في طبيعة البشر رغم تبدله بتبدل المكان والزمان ، وان الانظمة والتقاليد لا تخلقه خلقاً بل تثبته وتوجهه في سبيل ان لم يكن هو السبيل الامثل فهو على الاقل السبيل الاقرب الى المثالية والكمال .

الخير الاسمى

ان نقطة الارتكاز التي يدور عليها بحث الاخلاقيات ،فتوجه سلوك الانسان في هذه الحياة ، موقوفة على الغاية التي يرمي اليها ويجعلها هدفاً اخيراً . فمن اراد الذهاب الى مدينة حيفا مثلاً اتجه من بيروت الى الجنوب ، اما من كان يبغي الوصول الى دمشق فيسير في طريق الشام ، وكذلك هي الحال في الاخلاقيات . فمن الفلاسفة من يرى الخير المطلق في الغايات العقلية الروحانية السامية ، ومنهم من يراها في الامور الحسية ، اما الفريق الثالث فيرى الخير كله في المنفعة . اما مبدأ اللذة فهو متفرع على مبدإ النفع . وقد توهم الناس ان المفكر ابيقور (Epicure) هو حامل لواء القائلين بوجوب اتباع اللذة ، ولكنها تهمة خاطئة نفندها في محلها . وصاحب هذا الرأي هو في الحقيقة ارستيب (Aristippe) الذي وجد في القرن الرابع قبل المسيح ، وتتلمذ لسقراط ، ولكن انىّ له ان يكون كمعلمه الخالد الذي مات في سبيل الحقيقة ، لم يلوث جبيناً ، ولم يأتِ فرية فقد كان أبا الفلاسفة ولما يزل . ومذهب ارستيب هذا يماثل نظرية الأديب العراقي جميل صدقي الزهاوي حيث يقول :

لا تقف قدام لذاتك مكتوف اليدين انت لا تأتي الى دنياك هذي مرتين

زعم هذا الفيلسوف اليوناني ان الخير كل الخير في اللذة ، وان الشر

كل الشر في الالم . فالحكمة عنده تقوم بانتهاز الفرصة بدون تأجيل الى الغد ، وبدون التفات الى النتائج التي تنجم عن لذة الحس . ويتفرع على ذلك ان قيمة العمل في نظره تتناسب مع مقدار اللذة الناجمة عنه ، وان الغريزة هي دليلنا الصادق فعلينا ان نستسلم للطبيعة نميل معها حيث شاءت لانها مصدر الحكمة والغبطة . وقد لقيت هذه الفكرة كثيراً من المؤيدين في اوروبا ، سواء في القرون الوسطى او في القرون الحديثة . فزعم فوريه (Fourrier) احد مفكري القرن التاسع عشر : ان الواجب فرضته البشر اما اللذة فمصدرها الله . اذن فيحسن بنا ان نطيع الله لا البشر وان نشبع هذه الميول لا ان نخنقها . وفي هذه الآراء من السخف والضلال شيء كثير . فهم يزعمون انهم يلبون نداء الطبيعة ، والطبيعة نفسها تكذبهم لان الانسان ليس فقط مركباً من جسد حيواني بل من نفس سامية لها غاية عليا وغبطة روحية . فاذا نحن تركنا للحيوان عنانه فقد حكّمنا الادنى بالاعلى ، فضلاً عن ان اللذة في الحيوان نفسه ليست غاية بل واسطة للعيش وحفظ النوع . ثم ان بعض الآلام نافعة للانسان ، فان المريض يختار الدواء الشافي ولو مرّاً . واذا انطوى الانسان على نفسه وجد في قرارة ضميره ما يغير هذه النظرية الخطرة . فقد يندم المرء على فرصة لذة فاتته ولكنه لا يشعر بوخز الضمير الذي يحس به عندما يأتي عملاً سيئاً . وقد يغتبط اذا كان في وليمة فاخرة ولكنه لا يحس بارتفاع نفساني غب تلذذ حواسه بالمآكل والمشرب بل يشعر بهذا الارتفاع عندما يأتي عملاً مشكوراً ، كأن يتحف الانسانية باكتشاف يخفف من آلامها او بحل

مشكلة علمية يعمل فيها العقل عملاً مجدياً . وانك لا تجد في مبدأ اللذة الصفات التي تجدها للنظام الادبي فلا هو مبدأ موجب ولا هو شامل فضلاً عن تغيره بتغير الاشخاص فان ما يسرك يسيء الى غيرك . ويشترط في المبدإ والنظام ان يكون مستطاعاً عامّاً، فكيف يستطيع الفقير مثلاً ان ينعم بملذات الحواس وهو الى الخبز احوج منه الى كل شيء آخر ؟ وكيف يتمتع بها المريض المتهدم، او الشيخ الهرم ؟ اما عن عواقبها الوخيمة في امراض النفس والجسد فلا تسل . هذا فضلاً عن ان الحياة الاجتماعية تصبح مستحيلة اذا كان الانسان يسعى للتنعم بكل الطرق ، لانه يستبيح اذ ذاك القتل والسرقة وسواهما في سبيل غايته حتى ليصبح اضرى من الوحوش واعدى من الكواسر . اما مذهب ابيقور (Epicure) فهو يختلف عن هذا المذهب ، انه يقول بوجوب القناعة والفضيلة ولكنها فضيلة ظاهرية مبدؤها المنفعة . فابيقور يقدس مبدأ اللذة ولكنه لا يدين بالغريزة العمياء والميل مع الطبيعة ، بل يعلم بوجوب اختيار اللذة التي لا يعقبها ندم او بلية فينصحك بتجنب اللذة التي تحرمك من اكبر منها ، ولا يرى ضرّاً بتحمل بعض الالم الذي يعقبه السرور او الذي ينقذنا في المستقبل من الم اشد . ويزعم انه يجب التوفيق بين سرور النفس وسرور الجسد ويأمرك بلزوم الفطنة والاعتدال ومعاملة الآخرين بانصاف ورفق ليعاملوك ايضاً بالمثل .

وقام بين مفكري القرن التاسع عشر تلميذ شهير لابيقور هو الفيلسوف الانكليزي بنتام (Bentham) فقد وضع المبدأ الآتي فقال : كل انسان اناني بطبعه فعلينا ان نعرف كيف ننظم هذه الانانية ، لذلك

فهو ينادي باللذة النافعة اي انه يعتنق مبدأ المنفعة ويقوم حسابه على هذا الاساس فيريد ان يسعى الانسان الى اقصى اللذة ببذل اقل العناء فيضحي بسرور حاضر لينال اوفر منه في المستقبل . ولكن هـذا الفيلسوف رغم اتخاذه المنفعة الشخصية اساساً فانـه يقول بوجوب الترفيه عن الآخرين ايضاً ، ويعتبر الانسان مخلوقاً اجتماعياً يفلح بفلاح الجماعة التي يعيش فيها كما ان النحلة تعمل لنفسها ولجماعة النحل ايضاً . فاذا فرح الانسان بفرح قريبه وعاونه على دفع النكبات فان اعمـاله كالشعاع تنعكس على الآخرين ثم تعود اليـه كما ينعكس الضوء على المرآة . والتضحية في سبيل الفكر انانية ولكنها انانية نيرة بصيرة . اذن ايكون الانسان كما يصوره بنتام آلة مفكرة تعمل في سبيل آلة اخرى هي آلة اللذة ؟

انا نرى في بادىء الامر وجوهاً متشابهة بين مبدإ اللذة ومبـدإ المنفعة ، فكلاهما اناني يرمي الى السرور . غير ان الاول مبدأ حيواني أعمى ، والثاني يرتكز على المقارنة والتفكير . يقول لك الاول عاقر الخمر ينشرح صدرك وينفتح خيالك ، اما الثاني فيقول لك عاقر الخمر ولا تكثر لئلا تضر معدتك وتسيء الى كبدك . ولكن مبدأ المنفعة ولو كان معقولاً فهو لا يسمو بالانسان كثيراً لانـه يصح ان يكون ارشاداً ونصحاً لا امراً موجباً . فانت عندما تنصح للتاجر الفلاني ان يكون صادقاً في المعاملة ، وان يرضى بالربح القليل لتنمو بذلك تجارته ويصبح غنياً ، تكون قد اوضحت له سبيل المنفعة ، ولكنه يستطيع نبذ النصيحة والاستغناء عن التجارة كلها والانصراف الى التصوف

مثلاً بدون ان يفقد شيئاً من انسانيته التي هو بها انسان . هذا فضلاً عن انه يتعـذر تعميم مبدإ المنفعة لاختلافه باختـلاف الاشخاص والاذواق . فمنفعة مدير المعمل تقوم باعطاء العامل من الاجر ما يمسك الرمق ، ومنفعة البائع تتناقض مع نفع المشتري . ثم ان في هذا المبدإ من الخطر ما لا يخفى على البصير . فالرجل الصالح الشهم الذي يأتي باعمال لا تعود عليه بالنفع ، هو غبي في نظر هذه الطائفة من المفكرين . اما المحتـال المزور الذي يقوم بدور اللصوصية على الوجـه الاكمل ويصبح صاحب قصور ومزارع ، فهذا الرجل الالمعي جدير باحترام بنتام واضرابه من المنادين بمبدإ المنفعة . ان في اعماق وجداننا همساً يدلنا على فساد هذه النظرية . فقد تمد يدك مهنئاً الرجل الاناني الذي جازف فربح واحاطه ذووه بمجالي التكريم ، ولكنـك اذا خلوت بنفسك واستشرت هذا القاضي العادل الذي هو ضميرك، فانك لا تشعر بما يحملك على احترام هذا الشخص . ولكنك تحترم رجلاً كسقراط كان يمشي حافياً في اسواق اثينا وليس لديه الا ما يسد به الرمق وقد مات في سبيل الحقيقة ولم يشأ ان يهرب من السجن — مع ان طريق الانقاذ تيسرت له — احتراماً للقانون ولئلا يكون هربه سابقة للتخلص من النظام . هذا برغم ان الحكم القاضي باعدامه كان حكماً جـائراً . عبثاً حاول ابيقور وبنتام اقناع البشرية انهما يبشران بالفضيلة، فالفضيلة التي اساسها المنفعة أوهى من خيط العنكبوت . وهي لا ريب زائلة بزوال النفع . وان الانسان الذي لا يرتفع عن مبدإ اللذة الا الى درجة المنفعة ، لا يسير شوطاً بعيداً في السمو . فان الشاب الذي تنصح له بان

يعتدل في الشراب لئلا يحرم نفسه منه في الغد بسبب التخمة مثلاً ، يستطيع ان يجيبك بسهولة انه لا يضمن حياته الى الغد . فمبدأ المنفعة اذن مبدأ غير مكين . وليس ادل على ذلك من المصير الذي بلغه تلامذة ابيقور نفسه ، فانهم لم يحفظوا من تعاليم المعلم الآمر بوجوب الاعتدال والقناعة شيئاً بل تفلتوا من هذه القيود الواهنة وتدحرجوا الى حضيض ارستيب ، زاعمين ان لا لذة الا لذة الجسد وخصوصاً لذة البطن لانه اقرب شيء الى فلسفة الطبيعة . وان عمل هؤلاء التلامذة هو الذي خلع على فلسفة ابيقور السمعة السيئة التي عرفت بها عند عامة الناس .

المحبة

في هذا العصر الذي تحجرت فيه قلوب البشر فتدنّت القيم الروحية حتى اصبح الانسان آلة في نظر اصحاب الالآت يقدّر بقدر انتاجه ، في هذه الحقبة من التاريخ التي يسأل فيها كم يساوي فلان ؟ فيجاب انه يساوي كذا من النقود ، اي ان لا قيمة له الا بما يدّخر من مال ويملك من عقار ، في هذه الايام التي ضلّ فيها المفكرون فاشاروا بابادة الضعفاء والاحتفاظ بالاقوياء ، بغية تحسين النسل ليدفع بهذا النسل الى ساحات الوغى فيذوب في غمرات النار ، نرى ان نتكلم عن المحبة . والمحبة لا تقتصر على احترام حق القريب وعدم الاساءة اليه في ما له وشخصه ، بل تقتضي ان نبذل في سبيله المال والوقت ، محمولين على ذلك بدافع القلب . فاذا كان في الهيئة الاجتماعية سعداء ينعمون بالاطايب مسرفين، فان الطبيعة تأبى ان يموت الفقراء جوعاً ، فيكون آخر ما يطبقون عليه الاجفان منظر هذا الفتات المتساقط عن موائد الاغنياء. وقد كان لهم به كفاف يمسك رمقهم لو لم يحل بينهم وبينه . ولا يكون المسيحي مسيحياً الا بإقامة احكام الانجيل الطاهر حيث يقول . من سقى احد اخوتي هؤلاء الصغار كأس ماء بارد باسمي ، الحق اقول لكم ان اجره لا يضيع . فعلى الغني مساعدة الفقير ، وعلى العالم تنوير الجاهل ، وعلى الفاضل ان يكون قدوة صلاح للاشرار . وبهذا تتم الالفة بين البشر ، وتكون الهيئة الاجتماعية عائلة كبرى يشد بعضها ازر الآخر . وان

واجب المحبة هذا ليس واجباً اختيارياً فان جريمة الانسان الذي يترك قريبه فريسة الجوع وهو قادر على اغاثته ، وجريمة المرء الذي يسرق قريبه ، سواء في نظر المحبة وان لم تتساويا في نظر القانون .

وفي المحبة درجات اولها ان نكافىء الجميل بالجميل. ومن هذا القبيل ما نقوم به من الوفاء لذوي القربى والاصدقاء الذين اسبغوا علينا من فضلهم فنعاملهم بالمثل ويسمى هذا النوع من الوفاء عرفان الجميل . وثانيها ان نحسن الى الغرباء الذين لا يربطنا بهم سابق معرفة وهذه هي المحبة بمعناها الصحيح . وثالثها ان نقابل الشر بالخير عملاً بقول الانجيل: احبوا اعداءكم ، وهذا منتهى الكرم والتفاني ولا تبلغه الا النفوس التي تخففت من ادران هذا العالم فجاوزت المنطقة الموبوءة الى دنيا جديدة بقيت وستبقى حرماً على غير الفئة المختارة . وبين المحبة والعدل فروق، فالعدل يوحي باحترام حق الغير اذ تعطي ما لقيصر لقيصر ، ولكن المحبة تقضي بان تعطي من مالك لقيصر. يقول لك العدل لا تفعل بالناس ما لا تريد ان يفعله بك الناس ، اما المحبة فتقول افعل بالناس ما تريد ان يفعله بك الناس . يقول العدل فلترجم الزانية ، وتقول المحبة من كان منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر ، اذهبي ايتها المرأة ولا تعودي الى الخطيئة . يقول العدل من اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم وتقول المحبة وان تعفو فهو اقرب للتقوى .

ان المساواة اساسها العدل،اما المحبة فاساسها الاخوة . فانما الانسان اخو الانسان شاء او ابى ، ولكنه الشر زيّن لقايين قتل هابيل .

ولكن لكل شيء حداً وللمحبة ايضاً حدودها . فان العدل مجبر ، وللدائن اكراه مديونه على دفع حقه . ولكن مستحق الاحسان لا يستطيع اكراه المحسن على التصدّق ولولا ذلك لاستحلّ السارق المسروق اذ يرى في ذلك استيفاءً لحق مغصوب .

ولا ريب ان العدل والمحبة لا يتنافيان، بل يمشيان جنباً الى جنب، ويكمل احدهما الآخر . والمحبة تنطوي على العدل لكنها ارحم منه واكثر شمولاً .

قال ارسطو ابو الفلاسفة : ان المتحابين في غنى عن العدل لانهم يتنافسون في عمل الخير ، ولا مجال للشر بينهم. وهذا كلام لا يحتاج الى برهان . فلو عمت المحبة الناس ، لما كان للمحاكم من وجود على الارض، لان سبب وجودها هو ما ينشب بين الناس من الخصومات . ولو أنك تحريت السبب في النزاع الذي يقوم بين الافراد ، بل بين الامم، لرأيت سببه ضياع شريعة المحبة تحت اقدام الانانية والمطامع والشهوات .

قلنا ان العدل مكمل للمحبة وهوقيد لها اذا حاول صاحبها الخروج عن الحد المعقول. فلو فرضنا ان مديوناً بذّر امواله في سبيل انشاء ميتم أو مأوى للعجزة ، ورفض اداء ماعليه لدائنه لارتكب خطأً جسيماً، وان العدل ليحول دون هذه المحبة الناقصة . وكذلك القول في رجل لا يملك من المال الا ما يقيم به أود عائلته فيتصدق بهذا المبلغ على الفقراء ويترك اولاده عرضة للبؤس والارزاء ، وان العدل ليحول بينه وبين هذا الضرب من الجنون ، فقد جاء : ابدأ بنفسك اولاً ثم بمن تعول .

وبديهي ان ينطوي العدل على المحبة : امـا اذا انكمش في دائرة

ضيقة ، كان جافاً بل اصبح عدلاً بربرياً . فان المالك الغني الذي يخرج مستأجراً فقيراً من عقاره لتعذّر دفع البدل انما يمارس حقا . ولكنه لو اخرجه في يوم مطير من حوله اطفال يرتدون اسمالاً يدفعون بها الزمهرير ، لما كان في هذا العدل الا قسوة . وانك لو مررت بجريح ألقته سيارة جانحة في طريق مقفر ، وهو يئن من جراحه ولا معين له سواك ، وفي وسعك ان تنقله في سيارتك الى مستشفى قريب ، فانك لا تستطيع التذرع بالقول،انه ليس لذلك الجريح عليك حق مفروض فتتركه وشأنه .

قال الاقدمون : التطرف في العدل أشد انواع الظلم . وان الدائن الذي اتفق مع مديونه على اقتطاع بضعةمن لحمه في رواية تاجر البندقية، اذا تأخر عن وفاء الدين في الاجل المضروب ، انما حاول تنفيذ عقد ناجم عن تراضي الفريقين. ولكن بئس عدل القوي يحزّ في جسم الضعيف. وما اشبه الحياة الاجتماعية بعجلات تكر على الطريق فيسمع لها ازيز ودوي يمزق الآذان لولا المحبة التي تنسكب انسكاب الزيت على هذه العجلات فتلطف من حدّة الصرير الذي يصم الاسماع . ولقد قامت في العصور الاخيرة على الاخص فلسفة تحارب المحبة ، زاعمة ان الاحسان ضار بالهيئة الاجتماعية وانه بدلاً من ان يزيل النكبات والارزاء البشرية يمددها ويطيل في اجلها اذ يبقي في عداد الاحياء ضعفاء ومرضى يقفون عثرة في سبيل تقدم الانسانية ، لذلك كان القضاء على البقية اصوب . وليس يجهل احد ان حامل لواء هذا التعليم في العصور الحديثة هو الفيلسوف الالماني فريدريك نيتشه الذي مات مجنوناً . ولكن فلسفته

هذه لم تدخل القبر معه بل تركت صداها السيء في المانيا ، وتعدتها الى مناطق اخرى من المعمور ، فاصبحت لا تدين بسوى القوة ومذهب تحسين النسل ، كما يجري في تحسين نسل الخيل التي تعد لحلبات الرهان.

ويرى القائلون بمذهب التطور والارتقاء أن عامل التقدم الاوحد هو سنة تنازع البقاءوبقاء الانسب،اي الحياة للاقوياء والموت للضعفاء. فقد زعم اشهرهؤلاء وهو هربرت سبنسر ان الذي لا يستطيع ان يعيش لا حق له بالعيش . وترى ان انصار هذا المذهب بدلاً من المناداة بتخفيف آلام البشر واقالتهم من عثراتهم واصلاح حالتهم بمداواة اجسامهم ونفوسهم يطبقون عليهم النظريات التي تطبق على الحيوان لا على الانسان العاقل .

ويزعم بعض المفكرين ان شرعة المحبة والاحسان تعوّد المرء على الكسل وتشجع التسول، وانما التسول جريمة يعاقب عليها القانون . وفي هذا الرأي كثير من الصحة ، لانك تجد كثيراً من المحتالين الذين يتسترون بالضعف ، ولكن هذا لا ينفي وجود من يستحق الرحمة ، فعلى البشرية ان تضع الامور فيمواضعها ، وعلى الزارع ان يبذر الحب في الارض التي تستحقه فلا يرشه على الصخر والاشواك .

وزعم بعضهم ان الشقي جلب الشقاء لنفسه فهو غير جدير بالرحمة لانه يحصد ما زرع . ولكن اذا صح هذا القول في فئة من الناس فلا يصح تعميمه، لان الالآم لا تكون دائماً عقوبة للمتألم، وكثيراً ما تكون امتحاناً لفضيلته . ثم ايها اللائم الفقير بفقره ، أغثه اولاً ثم عنفه بعد

ذلك ان شئت ، والا كان مثلك كمن يوبخ المشرف على الغرق باستحمامه في البحر وهو يجهل السباحة ، قبل ان ينقذه من الهوة الفاغرة . وقد اختلف المفكرون في تطبيق شرعة المحبة فمنهم القائلون بوجوب اسنادها الى الدولة او الجماعات وذلك ما نراه في المستشفيات والمياتم ومآوي العجز وجمعية الصليب الاحمر ، ومنهم من قال بل تترك للاشخاص . وفي كل من الطريقتين حسنات ومساوىء لا مجال لسردها . وقليلة هي النظريات البشرية التي لا ترى فيها وجهين احدهما اسود والآخر ابيض ، ولكن الذي لا ريب فيه هو ان شرعة المحبة هي شرعة سماوية وبها يكون الانسان اخاً للانسان .

أساس الاجتماع السِّياسي وأساس السُّلطة

لا ريب انه قد مر على الانسان حين من الدهر كان يعيش فيه عيش الحيوان ، يقتات بما تطوله يده من النبات والشجر ، وبما يصيده من الوحش والطير ، ويأوي الى كهف او مغارة يتقي فيها الحر او المطر . ثم اخذ الانسان بالتدرج في سلم المدنية حتى اصبح اجتماعياً ، يخضع للسياسة ويذعن للسلطان . ولكن كيف تم له ذلك ؟ هذا ما سنعرض له بايجاز في كلامنا الآن عن الاجتماع السياسي .

زعم الفيلسوف القديم ابيقور (Epicure) وتابعه على رأيه طائفة من فلاسفة العصور الاخيرة امثال هُبس واسبينوزا وروسو ، ان الاجتماع كان نتيجة تعاقد تم بين البشر . واننا نجتزىء هنا بايراد مذهب هبس وروسو ، وكلاهما يزعمان ان الهيئة الاجتماعية هي اتفاق مصطنع عقب الدور المظلم الذي عاش فيه الانسان وحشياً منعزلاً ، ولكن هذين الفيلسوفين يختلفان في نقاط عديدة :

يقول هبس : بما ان غاية الانسان الوحيدة هي ان ينعم بالعيش الرغيد في هذه الحياة ، فمن حقه ان يسعى الى ذلك بكل ما اعطي من قوة . ومن هنا نشأ النزاع المستمر بين البشر ، وقامت الحروب فاصبح الانسان عدواً لدوداً لاخيه الانسان . هكذا كان الامر في الطور الطبيعي فجرّ الانسان على نفسه النقمة والعيش المُنَغّص بدلاً

من الدعة والطمأنينة . وأحس عندئذ بوجوب الخلود الى الراحة والاستقرار ، فراراً من ويلات الحرب ، وألم العزلة والانفراد . فعبر من هذه الضفة الشقية الى الضفة الاخرى الاجتماعية ، وقد يكون فعل ذلك بالقوة والعنف ، كأن يقوم بين الافراد جبار يمتاز عن الآخرين بقوة الجسد او قوة العقل ، فيخضعهم لسلطانه بواسطة عقد ، اي اتفاق اذ يرى الافراد سوء مغبة الخصام الذي ينشب بينهم ، فيولون الحكم شخصاً او فئة تفصل في امورهم وتفرض عليهم السلام . وسواء نجم السلطان عن القوة ، او عن الاتفاق ، فان وجود الحكومة ضروري وهي جديرة بالاحترام والطاعة . ويشتط هبس في الرأي فيقول : ان هذا السلطان يجب ان يسيطر على حياة الانسان الخاصة والعامة ، على الاجساد والنفوس ، على الاعمال الخارجية وعلى الخوالج الوجدانية ، وذاك هو منتهى الاستبداد والطغيان . وقد بسط المؤلف نظريته هذه في كتابه لوفياتان (Leviathan) وقد وردت هذه اللفظة في سفر ايوب في التوراة وهي لفظة يرمز بها الى وحش وهمي هائل المنظر والقوة ، ومعنى الكلمة شبيه بما يرمز اليه اسم الغول في اللغة العربية .

اما جان جاك روسو فقد بسط نظريته في مؤلفه «العقد الاجتماعي» فقال : ان الانسان كان في البدء يعيش حراً مستقلاً متمتعاً بالسلام والغبطة ، ولكنه لسوء حظه لم يستطع التمتع طويلاً بهذه الغبطة اذ لم يقوَ وحده على مقاومة العناصر التي تهدد كيانه ، فاضطرته الاخطار المحدقة به للاجتماع . وان المجتمع شر لانه يجرد الانسان من حريته ولكنه شر لا بد منه وقد تآلف البشر وتخلوا عن استقلالهم الفردي

الطبيعي في سبيل الامة التي تولت السلطان واستأثرت بالحقوق جميعاً ، فهي اذ تأمر وتنهى ، انما تعمل بمشيئة الافراد الذين تنزلوا سلفاً عن حقوقهم الشخصية . غير ان هذا الاتفاق لم يحصل باجماع الآراء بل برأي الاكثرية . وان القوانين التي تسنها هذه الاكثرية هي تعبير عن ارادة الشعب مجموعة ، وانما الشعب يخضع لأوامر نفسه اذ يخضع للحكومة . فتكون الطاعة اذ ذاك مشروعة لا بغي فيها ولا عدوان. وبما ان الجامعة تألفت بعقد ففي وسعها ابطاله . وللانسان ان يفسخ العقد بملء اختياره بما انه عقده مختاراً . والفرق بين نظرية هبس وروسو ظاهرة : فالاول ينظر الى البشرية نظرته الى قطيع من الحيوانات جمع شمله بالقوة ، ويرى ان للحكومة ممارسة هذه القوة بكل ما لديها من قسوة وعدوان وطغيان . اما الثاني : فيزعم ان الانسان ولد حراً صالحاً مستقيماً فيجب ان يعامل بالحسنى واللين ، وهذا هو منتهى الديمقراطية . ولا تتجلى نظرة روسو واعتقاده بصلاح الانسان في كتابه «العقد الاجتماعي» فقط بل في كتابه « اميل » ايضاً ومداره تربية الولد . فيقول المؤلف في كتابه هذا ان الولد صادق صالح كريم بطبيعته ، فعلى المربي ان ينمي تلك السجايا فيه بدون ان يلجأ الى العنف والاكراه . وان زعمه هذا مخالف لتعليم فلاسفة التطور القائلين بأن الفرد يمر في ادواره المتعاقبة ، في الادوار نفسها التي مرت بها البشرية ، اي طور القسوة ثم طور المدنية وهم يرون رأي هبس في ان الانسان يولد بربرياً وانانياً كذوباً ، وعلى المربي ان يلاشي فيه بقايا الحيوانيه ويروضه كما يروض السباع. ولنلق الآن نظرة على رأي القائلين

بالعقد الاجتماعي فندرك ما فيه من معايب لانه متناقض تناقضاً اساسياً في افتراضه ، خاطىء في الوجهة التاريخية ، فضلاً عن انه وهمي باطل قانوناً .

ان ما زعمه هبس مخالف اولاً للطبيعة والغاية الانسانية . فان الانسان لم يكن في اي عصر من العصور ، في حل من الواجب . اما قوله بان لكل فرد الحق بكل ما في الكون فيفضي الى النتيجة الآتية : وهي ان لا حق لأحد بشيء . فالحق الذي لا يكون محترماً مصوناً ليس بحق ولا يستطيع الفرد ان يتخلّى عنه في سبيل الامة ، اذ كيف يضحي بشيء لا يملكه .

اما افتراض وجود العقد الاجتماعي فهو افتراض وهمي مجرد لم تدعمه وثيقة خطية او تقليد يصح الركون اليه . واذا كان قد وضع ففي اي زمان او مكان حصل ذلك ؟ ومن الذي اقره وامضاه ؟ هذا من الجهة التاريخية . اما من الجهة القانونية فهو على فرض حصوله ، باطل لان القانون يوجب على المتعاقدين ان يكونوا على علم وبينة فيتيسر لهم ادراك نتائج ما ابرموا . ومعلوم ان اولئك الاقوام كانوا على جانب عظيم من الغباوة والجهل فهم قاصرون ، وعقد القاصر لا يصح . هذا فضلاً عن ان العقد الموهوم واجب التجديد بتجدد الاجيال فان الاجداد لا يستطيعون تأييد حفدائهم الى الابد .

وكيف يصح الافتراض بان هؤلاء الناس المنعزلين المتنابذين يجتمعون في مكان معلوم ، وباية لغة تراهم تكلموا اذ ذاك واذا كان الضعفاء بينهم قد اقروا هذا العقد وتنازلوا عن حقوقهم الفردية في سبيل السلطة التي

تحميهم فمن اجبر المقتدرين بينهم على ترك حقوقهم ودخول هذا السجن الاختياري بالتخلي عن الحرية . واذا صح كل ذلك وكان اساس السلطة تعاقد اصطناعي فانه في وسع الاكثرية التي ابرمت العقد نقضه وهناك الفوضى والبلاء . اذ لا يبقى للعدل معنى . وعبثاً يقول هبس اذ ذاك اطع القانون لانه سنّ لمنفعتك ، فان المخاطب يستطيع الرد عليه بقوله اني ادرى بما ينفعني وما يضرني ، وانا حر في نقض عهدي والتحلل من هذا العدل الذي لم يكن موجوداً قبل التعاقد وانما ابتدع بدعة بعد تنفيذ هذه النظريات . نقول ان الاجتماع السياسي هو حالة طبيعية بجوهرها فان الانسان اجتماعي بطبعه وقد يستطيع العيش منعزلاً ، ولكنه لا يرتفع اذ ذاك عن الحيوان . ألا ان في المرء قيماً روحية لا تستطيع النمو وادراك الغاية والمثل التي أعد لها الانسان الا بالاجتماع .

وانما الشرط الاول لكل ما تقدم هو تمتع الانسان ببعض الحرية تمكيناً له من ممارسة حقوقه الشرعية . وذلك لا يتم في حالة العزلة ، اذ يكون الضعيف تحت رحمة القوي ، مهدداً ابداً في حياته وماله وعرضه . اما الاجتماع فيقي الفرد من هذه الاخطار . ولو فرض ان في استطاعة بعض عائلات قوية ان تدفع القوة باقوى منها ، فمن اين تتيسر للعائلة المنفصلة عن المجموع اسباب الرخاء والراحة اذا انفصلت ؟ وكيف تصطنع لنفسها ما يعوزها من المأكل والملبس والدواء ؟ وكيف تتدبر في سائر نواحي العيش وكيف يزدهر العمران وترقى الصناعات بالتخصص ؟

قال احد العلماء لا يكون الانسان انساناً الا بين الناس هذا فضلاً

عن الجاذبية الطبيعية التي تقرب البشر بعضهم من بعض فيتكونون عائلات فقبائل فشعوباً .

قال ارسطو : «ان الانسان حيوان اجتماعي وهو لا يستطيع النمو والعيش الا في الجماعة » اما ان نتساءل : متى دخل الانسان في المجتمع فهو سؤال أجوف يوازي قولنا متى دخل السمك في الماء . ولقد ضل روسو ضلالاً مبيناً بقوله ان الانسان ولد حراً والاجتماع قيّده ، وولد طاهراً والاجتماع افسده . وانّى لروسو ان يبلغ من بُعد النظر ما بلغه ارسطو القائل : ان من يعيش في عزلة تامة يجب ان يكون اما الهاً واما حيواناً . اما الاله فيستغني عن الاجتماع لانـه في ذروة الكمال ، واما الحيوان فانه مجرد من العقل . وان الانسان وحده قابل النمو ، سائر في سلم التقدم .

يزعم بعضهم ان العزلة تشحذ القرائح اذ يتكل الانسان على نفسه لأن الحاجة تفتق الحيلة ، ولكن هذا الزعم باطل . فكيف يتقدم في فن الجراحة مثلاً طبيب يضطر ان يكون خياطاً ونجاراً واسكافاً وزارعاً في وقت واحد ؟

ان الانسان اخو الانسان شاء او ابى ، والاجتماع طبيعي لا يحتاج الى قوة او عقد ، وهو يجري كما يتنشق الانسان الهـواء وكما يغوص السمك في الماء .

ما هي مهمة الدولة

للدولة كما للفرد حقوق وعليها فروض ووجائب ، إذن فما هو شأن الدولة في المجتمع ؟

لقد اختلفت الآراء في هذا الصدد ، اختلافها في اي موضوع آخر يخرج عن الرياضيات ويحتمل المد والجزر . ولنلقِ نظرة عابرة على اهم هذه الآراء قبل ان نحدد ماهية الدولة وشأنها .

زعم افلاطون — ومن يجهل اراءه السياسيـة — وعلى الاخص في كتابه الموسوم (بالجمهورية) . ان واجب الدولة الادبي يختلف عن واجبها المدني : فعليها ان تربي الانسان على الفضيلة موجبـة على الفرد التقيد بالادب والخلق القويم . ولا يخفى شطط هذا الرأي ، فان الحكومة تستطيع تقدير الافعال الخارجية ، ولكن انى لها ان تسبر غور الضمائر وتتغلغل في صدور الافراد تكبح فيهم جماح الهوى . الا ان باع الانسان لأقصر من ان يتغلغل في خفايا النفوس بل كثيراً ما تخفى عليه الافعال الخارجية والاهداف التي ترمي اليها . فـاذا تولت الدولة مهمة الوحي لتسيّر رعاياها كما يسيّر الراشد القـاصرين ، فقـد قضت على طموحهم واقدامهم . وتولت مهمة ترزح تحت اعبائها ، وجعلت من الشعب قطيعاً تسوقه بعصا الاستبداد . وهذا أمر يؤول الى الفوضى ويحمل الناس على كره الفضيلة والتهرب منها . اذن فمهمة الدولة مدنية لا اخلاقية لاهوتية .

وهي مجبرة على الاغضاء عن بعض هفوات لا ينالها القانون الوضعي ، فاذا تحرجت كثيراً وابت الا ان تعاقب على كل شاردة وواردة افضى الامر الى ضده .

ويقابل هذه النظرية المتطرفة نظرية اخرى في الطرف المعاكس ، هي نظرية مكياڤلي احد مفكري القرن السادس عشر ، الذي زعم في كتابه (الامير) ان على الدولة التحرر التام من الأخلاقيات ، لان هدف المجتمع هو فقط النفع الاجتماعي . فكل قانون يبلغ هذا الهدف هو تشريع صالح ، لان الغاية تبرر الواسطة مهما كانت الوسائل ، ومهما كان الطريق الذي يسلك . ولا يخفى ما في هذه النظرية من الفساد والخطر الاخلاقي ، لان للأنسان والحرية والمعاهدات قيم مطلقة. وعلى الدولة ان تتقيد بها ، كما يتقيد الافراد بالعقود التي يبرمونها . ويظهر ان المانيا تمشت كثيراً على نظرية مكياڤلي الذي اصبح اسمه مرادفاً لنقض العهود واللعب على الحبلين ، بل على حبال متعددة في وقت واحد . ولو لم يكن القانون مرتكزاً على المبادىء الاخلاقية لما وجب على الناس احترامه والتقيد به فما قولك في قانون يجبر الناس جميعاً على السير عُراة في الشوارع مثلاً أفيكون اذ ذاك قانوناً واجب الاحترام ؟

اذن فما هي في الحقيقة مهمة الدولة ؟

اول واجبات الدولة السهر على حفظ النظام وتأييد الامن ، اذ تكفل للافراد حياتهم وحريتهم ضمن دائرة القانون . وثانيها القيام بالمنافع العامة كاعمال الري وتحسين طرق المواصلات وعقد المعاهدات التجارية والسهر على الصحة العامة وما يتصل بهذه الشؤون من الامور

العمومية . وقد اشتط بعض المفكرين الغلاة فاوجبوا على الدولة ان تتولى الانتاج الزراعي والصناعي ، وان تقوم بالمهمات التجارية وتعمل على تربية الرعية كما يقوم الاب على تربية اولاده ، تمشياً على نظرية افلاطون . ولا يخفى ان ذلك يجعل من الافراد آلات حية تتناسل وتعيش مجردة من الطموح والامل. وقد ينعم هؤلاء الاولاد القاصرون بعطف الاب وحنانه في بادىء الامر ، ولكن هذا الاب لا يلبث بتمادي الزمان ان يستحيل الى طاغية مستبد ، لا قانون يمسكه سوى ارادته المتقلبة بتقلب الظروف . اما ان تقتصر مهمة الدولة على حفظ الامن وان تكون ولايتها ضرورة عارضة تتلاشى رويداً رويداً كلما تطور البشر صعداً في سلم الرقي بحسب زعم هربرت سبنسر (Spencer) فذلك ايضاً من قبيل الغلو في تعزيز الفرد ، وترى الصواب هنا ، كما تراه غالباً بين نظريتين متطرفتين ، التزام الوسط وهو المبدأ الذي قال به ارسطو العظيم يوم قال :

(La vertu se trouve dans uu juste milieu)

مثال ذلك ان بين البخل والاسراف حداً وسطاً وهو الاقتصاد ، والاقتصاد فضيلة . فمهمة الدولة اذن تقوم بالعمل على انجاح الرعية ، ساهرة معاونة ، فعليها ألا تستأثر بكل شيء ، ولا تترك الحبل على الغارب من جهة اخرى ، بل تعاون على الفلاح والعمران . وسيادتها تقوم بممارسة ما لها من حقوق ، واهمها ثلاثة : التشريع ، والقضاء ، والتنفيذ . وتكون هذه السلطات الثلاث منفصلة بعضها عن بعض ، فلا يكون المشترع قاضياً ومنفذاً معاً ، تفادياً من وقوع المظالم .

اما الشروط التي يجب توفرها في القوانين الموضوعة فهي ان تكون عادلة اي مستمدة من القانون الادبي ، وان تستهدف النفع العام موافقة للزمان والمكان، مستطاعة التنفيذ. لان الله لا يكلف نفسا الا وسعها. وان تنشر وتعمم على قدر المستطاع . وتقوم مهمة السلطة القضائية بتطبيق القوانين وتفسيرها بما يوافق روح المشترع. لذلك نرى الحكومات تختار لمنصب القضاء اختصاصيين عالمين بهذه الشؤون . فان القانون في يدهم كالمبضع في يد الجراح يستخدمه للنفع والخير لا للبتر انتقاماً او جهلاً . وقد تضاربت الآراء في الاساس الذي يرتكز عليه قانون العقوبات ، فزعم بعضهم انه وضع لتعويض الضرر الناجم عن عمل المجرم . ولكن كيف يصح هذا القول في من يعاقب من اجل محاولة جريمة ، كأن يدس السم في المأكول او المشروب بغية قتل شخص فيفتضح امره قبل وقوع الجريمة ؟ فاذا كانت العقوبة تعويضا عن ضرر واقع فان الضرر لم يقع بعد . ولو صحت هذه النظرية لوجب الاقتصاص من سائق السيارة الذي يسبب قتل احد المارة خطأً كما يقتص من المجرم الذي يردي شخصاً باطلاق الرصاص عليه بدون فارق بين العقوبتين .

وقد اخطأ القائلون بان العقوبة انما شرعت انتقاماً من الجاني ، فالانتقام انما يكون غبطة العدو بمرأى عدوّه معذباً مهاناً . واية لذة تستشعرها الهيئة الاجتماعية بمنظر المجرم مشنوقاً او مفصول الرأس عن الجسد تحت سكين المقصلة . اذن فما هو الاساس الصحيح الذي ترتكز عليه العقوبة ؟

يجب ان تكون العقوبة عادلة اذ تتناسب مع اهمية الجريمة ، وان

تكون ذات مفعول صحيح رادعة عن الشر بما فيها من تأديب وعظة ، رامية الى الاصلاح الاجتماعي . اما الحكم بالموت ففي مشروعيته آراء متضاربة لا مجال لتفنيدها هنا ، وهو ملغى في كثير من دول العالم اذ يستبدلونه بالحبس المؤبد . وارى ان الشرع الاسلامي القائل بان القتل انفى للقتل هو اقرب الى العدل والحكمة ، ويذكرنا حق الدولة في القتل بحقها في الحرب . وقد تشعبت الآراء ايضاً في هذا الشأن فقد زعم الفيلسوف الالماني نيتشه ان الحروب طبيعية ضرورية لان الحياة كلها معركة موصولة ، والحرب احداها . وانها العامل الاكبر في الرقي الاجتماعي . وزعم بعض المفكرين الآخرين ان الحرب محرمة في كل حال ، وانها اكبر ما تمنى به البشرية من النكبات والشرور . ومن هؤلاء المفكرين هيغو وتولستوي (Tolostoï) . ولكن بما ان الانسان اليوم هو انسان الامس والغد ، له طموحه وميوله ، وفضائله ورذائله ، فالسلم المستمر حلم جميل ولكنه حلم على كل حال . وقد رأينا في مطاوي التاريخ بل في الحروب الاخيرة ما حلّ من الارزاء بالدول التي جنحت الى السلم ، وغفلت عن التأهب للحرب . اجل ان الحرب لمن اكبر ويلات البشرية ، ولكنه يتعذر عليها الغاؤها . فكما ان الاشرار ويل على الخيرين ، ولكن لا مفر من وجودهم على وجه الارض ، فكذلك هي الحرب . وللدولة حق مباشرة الحرب اما دفاعاً عن نفسها وتكون اذ ذاك في الموقف نفسه الذي يكون فيه الفرد عندما يداهمه معتدٍ ، واما مطالبة بحق مهضوم عجزت عن الوصول اليه بالطرق السلمية . ولكن الدول كثيراً ما تتذرع بانها مهضومة الحق حيث لا حق ، ويكون

مثلها حينئذٍ مثل الذئب مع الخروف . واذا كان للدولة حق الحرب فليس لها ان تلجأ الى الاساليب الوحشية التي تتنافى مع المبادىء الانسانية كاستعمال الغازات السامة والقنابل الذرية والفتك بالاسرى وما شابه ذلك .

اما في حقل التعليم والتربية الوطنية فللدولة ان تعاون في تربية النشء ولها حق المراقبة صوناً للاخلاق، وتوطيداً للنظام والامن العام. ويجب عليها تشجيع العلوم والفنون وتعميم التعليم الابتدائي ، بدون ان تستأثر كل الاستئثار بهذه النواحي . لانها مهما بلغت من العطف على اولاد رعاياها فهي لا تبلغ درجة الحنان التي تنطوي عليها صدور الاهلين نحو اولادهم فانهم اولى منها باعداد مستقبلهم وفقاً لظروفهم الخاصة .

هذا قليل من كثير مما تقوم به مهمة الدولة وهي لا تستطيع القيام به على الوجه الاكمل الا اذا وضعت نصب عينيها هذه الآية : العدل اساس الملك .

واجب الأفراد نحو الدّولة

اهم واجبات الفرد الخضوع للقوانين لانها سنت للخير العام ، وهي ليست قيوداً للافراد على ما يزعم بعض مرضى العقول الذين يبغون التفلّت من كل قيد ويرون في نظام الأمن سلاسل لقيد شهواتهم ، انما القانون رابط وضع لنفع البشر كما وضع القيد للسيارة الجامحة ، يقيها من التزحلق الى الهاوية، ما لم يكن قانوناً جائراً يبيح دماء الناس واعراضهم وهذا شيء بعيد الاحتمال ، فان قوانين البلاد المتمدنة يرتكز معظمها على المبادىء الاخلاقية العامة . وهناك واجب آخر له مكانته العظمى في الامم ، الا وهو حب الوطن . وسنقف على شرح هذه النقطة في مقالنا هذا فلا نتعداها .

يروى ان شاباً صينياً انخرط في سلك احدى الرهبانيات الافرنجية ، وتلقن العلوم العالية حتى بلغ بها مقاماً رفيعاً ، وطوّف في اوربا ثلاثين سنة ونيفاً . ثم عاد بعد هذه المدة الطويلة الى الصين واستأذن رئيسه في زيارة والديه الشيخين . فذهب الى وطنه مصحوباً باحد رفاقه الرهبان. ولم يكن وطنه ذاك سوى بضعة اكواخ مبنية بجذوع الاشجار والطين. فاستقبله اهله بما استطاعوا من الحفاوة . واعدوا له ولرفيقه طعاماً خشناً مما يتيسر لمثل هذه القبائل الصينية المتوحشة . فاقبل الراهب الصيني العالم على هذا الطعام يتناوله بقابلية عظيمة وسايره رفيقه تأدباً، وبعد الفراغ من الاكل استلقى صاحبنا في ظل الكوخ للقيلولة ، وكان

اليوم شديد الحر . ولما استفاق من رقاده التفت الى صاحبه وقال : انه شهد اكبر الولائم والذّها في اوروبا . ونزل ضيفاً على الامراء ، وتوسد الوسائد المحشوة بريش النعام، ولكن ذلك كله لا يساوي في نظره هذه الاكلة وهذه القيلولة في ظل كوخه الحقير . يدلك هذا الحادث على تأصل حب الوطن في صدور بنيه .

أول ما يتفتح بصر الطفل يتفتح على وطنه حيث يقضي ايام صبوته ، فان نفسه متعلقة بهذا الصعيد الحبيب وما يتصل به من تأريخ وتقاليد وعادات . وجاء في الكلام المأثور ان حب الوطن من الايمان . وهذا الشعور بحب الوطن ينمو مع الانسان ، ففي ايام الطفولة الاولى يكون هذا المقر مسرحاً للعبه، ثم يغدو مسرحاً للهوه متى اطل على الشباب. وترافق هذه الفترة ذكريات عزيزة على الانسان ، فان ابن المزرعة الصغيرة لا ينسى هذه الحقبة من العمر ولو غدا ملكاً متوجاً في اكبر بلدان العالم وارقاها . ومتى بلغ الشاب اشده احس في نفسه دافعاً غريزياً يحمله على الدفاع عن هذه البقعة من الارض مهما بلغ عظم التضحية .

ومشكلة الوطن لعبت دوراً خطيراً في التأريخ وقد ذهب المفكرون فيها مذاهب شتى . فمنهم من انكر وجوب التعصب لوطن باعتبار ان الكون كله وطن للانسانية كلها فلا فوارق ولا حدود . ومنهم من تعصب لوطنه تعصباً شديداً حتى بلغ هذا الميل مبلغ القسوة والبربرية ، وهذا ما فعله اليونان والرومان في العهد القديم . وفي هذين الرأيين المتطرفين خطأ كثير لاننا اذا قلنا بوجوب حب الوطن والتعلق به ،

فذلك لا يعني ان نكون اعداء الانسانية اذ نرى في كل غريب خصماً لنا .

وسبب ضلال الاقدمين في هذه النظرية ، توهمهم بانه يتعذر التوفيق بين مصلحة العائلة ومصلحة الانسانية ، وان احداهما بطبيعة الحال عدوة للاخرى . ومن المؤسف ان يكون الفيلسوف العظيم افلاطون حامل لواء هذه الضلالة التي نشرها في كتابه «الجمهورية» ، وتمشى عليها اليونان في اسبرطة وسواها من المدن الكبرى . وقد وقع الرومان وهم ورثة اليونان في الضلالة نفسها ، بل اوغلوا فيها اكثر من اسلافهم معتبرين ان التمتع بالحرية والغبطة هو وقف على الرومان ، وان سواهم من الناس عبيد وَخَوَلٌ يستبيحون دماءهم كما يستبيحون دماء الحيوانات ، ويحرقونهم ويسخرونهم لاغراضهم كما تسخر البهائم . فتأمل ما افضى اليه تشدد الوثنيين في الوطنية . وقد اثرت هذه المظالم وامثالها في نفوس الناس حتى جاءت النتيجة معكوسة . وهبّ الفلاسفة الرواقيون هبّة واحدة ينادون باللاوطنية . ومن الغريب ان يكون في عداد هؤلاء الفلاسفة الذين يرون الكون كله وطناً لكل انسان ، الامبراطور الروماني الفيلسوف مارك اوريل (Marc - Aurèle) . ولا ريب انه كان يعمل عن اقتناع بصحة عقيدته لا بما توحيه مصلحة الامبراطورية الرومانية .

ولقد تجدد صدى هذه التعاليم في اوروبا في القرن الثامن عشر ، وعلى رأس هذه الطائفة جان جاك روسو فاعتبر هو وانداده ان العمل لمصلحة الامة انانية ، وان الشجاعة العسكرية ليست في الواقع سوى

قسوة وحشية ، يجب ان تزول بتطور الزمن وتقـدم المدنية . وأيّد الشاعر الموهوب لامارتين هذه النظرية في قصيدتـة المشهورة « نشيد السلام »ويبدو هذا الرأي للوهلة الاولى نظرية جميلة لانها تدغدغ الخيال الشعري ، وتستميل القلوب ، ولكن فيها من الغلو ما فيها ، فمن انعم النظر في الامر رأى انه لا تناقض بين حب الوطن وحب الانسانية . ومن الطبيعي ان يبدأ الانسان بحب نفسه واهله وقبيلته ثم يتسع هذا الافق رويداً رويداً فيصبح حب الدولة اي الوطن ، ثم يتعداه الى الانسانية جميعاً . وهذا هو النظام التدريجي المعقول الذي يبدأ بالاصغر ثم ينتهي الى الاكبر اما ان نحذف العائلة في سبيل الوطن ، او نطفر طفرة واحدة الى حب الانسانية بدون ان نمر بالوطن فكلتا النظريتين فاسدة مخالفة لنظام الطبيعة . ومثل من يحاول ذلك كمثل من يحاول زيادة ماء النهر فيقطع عنه الينبوع . وما خفيت ضلالة افلاطون على تلميـذه ارسطو الذي يصح فيه قول من قال : « رب تلميذ تفوق على استاذه » . فقد قال لمعلمه ليس الحب في هذه الدرجة من السعة لتغمر به هذا المقدار من الناس ، ومثلك مثل الذي يملك قليلاً من العسل ، فيرميـه في البحر ليزيل عن البحر ملوحته ويحوله الى حلاوة سائغة .

اما الفيلسوف باكون والخطيب الروماني شيشرون ، فقـد ذهبا مذهباً صحيحاً بزعمها ان حب الوطن يبدأ في العائلة . اما حب الانسانية الذي لا يرتكز على الوطنية فهـو وهم لا يتعدى الخيال والروايات المسرحية . وما رأيك برجل يهمل اعانة الفقراء المرضى من عشيرته ليتبرع بمبلغ من المـال لجرحى الحرب ، ألا ان « ذوي القربى اولى

بالمعروف » .

ان جان جاك روسو نفسه قال ، واظنه يعني ذاتـه : « احذروا هؤلاء الذين يتظاهرون بحب الانسانية ويهملون عائلاتهم » . ولا ريب ان هذا النوع من التضحية هو انانية مستترة ، فـان الذي يدعي حب الانسانية جميعها لا يحب احداً . ومن يزعم انه صديق الجميع ليس في الحقيقة صديقاً لاحد .

نستنتج من هذا البحث الموجز ان الصواب يكون في هـذا الامر وغيره في الطريقة الوسطى فان حب الوطن عاطفة طبيعية مشروعة تتأصل في الانسان ، بل هي واجب مقدس ولكن ذلك لا يعني وجوب التعصب واحتقار الغير ، وبذر البغضاء والكيد للآخرين انمـا البشر اخوة وعليهم ان يتحابوا ولكن ذلك لا يمنع اقامـة الحدود بينهم ، فيلزم كل انسان حده ويقف عنده .

واجبُ الإنسان نحوَ جسدِه

زعم بعض المفكرين ان الانسان مطلق الحرية فيما يتعلق بذاته، فهو اذا لم يسىء الى سواه بشيء فله السلطان على نفسه ، وله ان يتنزّل عن واجباته وحقوقه الشخصية كيفما شاء، وفي هذا الرأي ما فيه من شطط وخطإ جسيم . فان للإنسان قيمته الذاتية ومرتبته العليا في المخلوقات . قال الاقدمون : ايها الانسان احترم ذاتك . وقال الفيلسوف الكبير كنط (Kant) تصرف نحو نفسك ونحو القريب باعتبارك غاية لا واسطة . وليس من سداد الرأي ان نحترم القريب ولا نحترم انفسنا ، فقد جاء في الكلام العالي احبب قريبك كنفسك لا اكثر من نفسك ، وجاء في الحديث ابدأ بنفسك اولاً ثم بمن تعول . فمن احترم حق غيره وداس حق ذاته كان ملكياً اكثر من الملك .

وان خصوم هذا الرأي يدعمون حججهم الواهنة باقوال تبدو سديدة للوهلة الاولى يؤيدونها بالمثل الآتي فيقولون : لو سمح لك جارك ان تقطع اغراس بستانه ، او ان تدوس النبات والزهر الطالع في حديقته لما اقترفت ذنباً لو فعلته، على الرغم من الضرر الذي الحقته به، فكيف ترتكب جرماً اذا لم تجن الا على نفسك ؟

ولكن هذه النظرية لا تصدق حتى في المثل الآنف الذكر . فان الانسان لا يملك حق التصرف المطلق في اعماله اذا قضت ضرورة اجتماعية بالحد من حريته ، فعندما تكون ازمة السكن ضاربة اطنابها ، يمتنع

على المالك الغني ان يهدم بيوته ليجعل منها حديقة للنزهة . وعندما يعم الجوع البلاد ويهدد الناس بالموت لا يستطيع المزارع احراق بيادره ، او اتلاف محصوله بل ان دائرة التموين تأخذ منه حاصلاته قسراً لتوزعها على الطالبين ، فاذا صحّ ذلك في الاموال التي تشرى وتباع فبحجة اولى يصح في الجسد الانساني ، لان المرء لا يستطيع ان يسمح لغيره بان يقتله واذا اقدم هذا الغير على القتل عوقب بعقوبة القاتل ولا يجديه نفعاً ان يحتجّ برضى القتيل . ويتبين مما تقدم ان هنالك حقوقاً لا يصح التنزل عنها . هذا فضلاً عن القول بان الاساءة الى انفسنا لا تتعدانا هو قول خاطىء لان الفرد عضو في الهيئة الاجتماعية . وهو حلقة في السلسلة فلا يمكن ان تضطرب احدى حلقاتها بدون ان تؤثر على السلسلة ، ومثل الانسان في الجماعة مثل النحلة فاذا مرضت جنت على نفسها واساءت الى الخلايا جميعاً . وان العمل الشائن يعدي كما تعدي المروآت والمثل الصالح. وقد نجرّ على ذوينا واولادنا من الخجل والفضائح شيئاً كثيراً اذا نحن اسأنا الى انفسنا. وفي واجباتنا نحو جسدنا نجد ناحيتين احداهما ايجابية والثانية سلبية. فالاولى تقوم بتغذية الجسم وانمائه والمحافظة على النظافة، واخذ الحيطة لدرء الامراض والعاهات فقد جاء في الكلام العالي : ان لجسدك عليك حقاً ولكن هذا القول لا يعني الافراط والمبالغة في العناية بالجسد حتى العبادة ، فقد يفضي ذلك بالانسان الى التخنث وقد جاء في الحديث : تخوشنوا ان النعم لا تدوم . وقد يتطرف بعضهم في قهر الجسد بالصوم والتقشف حتى يؤول الى حالة من الضعف والخمول تؤثر في العقل . ومن هذا القبيل ما يجري في بعض نواحي الشرق الاقصى

بين البراهمة والبوذيين وبعض المتصوفين الذين اساءوا فهم التصوف فاصيبوا بالخبل وما يتصل به من الامراض فجنوا على الجسد والنفس في وقت واحد . والصواب الصواب هو التزام الحالة الوسطى فان الافراط في الامر كالتفريط فيه اما الواجبات السلبية فهي على نوعين .

اولاً — ان لا يضع الانسان حداً لحياته بالانتحار . ثانياً — ان لا يسيء اليها بالاستسلام للشهوات . وقد تضاربت آراء الفلاسفة في الانتحار ، واننا نكتفي بايراد بعضها . فقد قال سقراط قبل ان ينفذ فيه حكم الموت بساعات معدودة : « موقف الانسان في هذه الدنيا موقف الخفير ، وعار على الجندي ان يتهرب من الواجب فعليه ان ينتظر الامر الالهي بالخروج من الدنيا فيغادرها حينئذ كما اغادرها انا اليوم » .

اما افلاطون فقال : يجب ان يدفن المنتحر في مكان مجهول ، فلا تشيع جثته بأبهة واحتفال ، ولا ينقش على قبره شيء بل يسوى رمسه بالارض ، ويكون في عداد القبور الدوارس . ولا يستثني افلاطون من ذلك الا الذين انتحروا تخلصاً من وصمة عار لحقت بهم لنكبة لا تعوض . اما الفلاسفة الرواقيون فلا يرون شراً في الانتحار ، وقد تابعهم على هذا الرأي الخطيب الروماني الشهير شيشرون زاعماً ان الانتحار يكون في بعض الظروف واجباً .

اما الابيقوريون الذين يستهدفون اللذة في هذه الدنيا فانهم يرون فيه وسيلة للتخلص من الالم والمرض والشيخوخة ، فينصحون للشقي الذي تقطعت به اسباب الملذات ان يجرع الكأس المرّة اي الموت جرعة واحدة ، لانه قد حيل بينه وبين الطيبات . وقد انتشر هذا الرأي

الفاسد في الاسكندرية في العهد القديم حتى قامت جمعية تدعى جمعية المشتركين في الموت (comourants) وكان من اعضائها انطونيو وكليوباترا . وليس من يجهل كيفية مصرع كليوباترا التي عندما اظلمت في عينيها الدنيا اخذت ثعباناً وادنته من ثديها فلسعها فماتت . وقد اخذ بهذا المذهب في العصور الحديثة الشاعر الالماني الكبير غوته (Gœthe) في كتابه ورتير . وكذلك جان جاك روسو ولكنه رجع عن هذا الرأي الضال فقال : ان المنتحر لصّ يختلس نفسه من الهيئة الاجتماعية اختلاساً .

امّا « كنط » (Kant) فانه شجب الانتحار وانحى باللائمة على الآخذين بهذا الرأي ولا ريب انه على صواب في نظريته لان الانتحار جريمة اجتماعية فلو صحت نظرية القائلين بالانتحار لاستطاع المرء ان يتخلص من واجباته الاجتماعية كلها بتخلصه من الحياة . وليست الغاية من وجود الانسان في هذه الدنيا التمتع بالملذات والثروة والشهرة ، بل السعي في سبيل الكمال والمثل العليا التي ارادها له الله لا سيما وان الالم يكون في الغالب لتطهير النفس كما يصهر الذهب بالنار ، لا عقوبة للانسان ولا انتقاماً منه . فاي ذنب جناه ايوب الصديق ليبتلى بما نكب به من الارزاء ، ولكنها ارادة عليا يعجزنا تأويلها . فليس اذن من حقنا ان نضع حداً للحياة ساعة نشاء هذا فضلاً عن المثل السيء وعن الإضرار بالجماعة التي لا حقّ للفرد ان يستبد بحقها فيقطع هذه العروة التي تضمه اليها . وقد يرى بعضهم في المنتحر رجلاً شجاعاً يتمرد على غريزة حب البقاء ، وهذا ضلال مبين لان الجندي الشجاع يثبت في

المعركة صابراً على الشدائد وعلى السهام تنتابـه من كل جانب ولا يلقي السلاح ويلجأ الى الفرار الا الجبان الرعديد . وربَّ معترض يرى مسوغاً للانتحار في بعض الاحوال محواً لوصمة عار تلوث بها المنتحر ، كأن يكون مؤتمناً على مال فيختلسه لينفقه في سبيل الملذات ، او يكون قائداً محارباً فيرتكب جرم الخيانة وما اشبه ذلك من الآثام . ولكن ذلك كله لا يكون مبرراً للموت الاختياري فعلى الاثيم ان يتقي الفضيحة ويبتعد عن الاثم قبل الاقدام على الجريمة فاذا جنى فعليه ان يتحمل النتائج والمغبة الوخيمة تكفيراً عن سيآته فاذا انتحر، فقد اضاف جرماً الى جرم . وكما انه لا يجوز للمرء ان ينتحر فلا يجوز له ان يعرض حياته للخطر الشديد على حد قولهم :

ليس المخاطر محموداً ولو سلم .

ولكنه يسوغ للانسان ان يجابه الموت في بعض الاحوال مثال ذلك ان يتعرض شرف امرأة عفيفة للخطر . فاذا لم تستطع دفع المعتدي ولو بالقتل حق لها ان تنتحر ، وهذا أعلى ما تبلغه البطولة من التضحية في سبيل الشرف ، او كما لو وقعت كارثة حريق او طوفان وعرّض المرء ذاته للخطر في سبيل قريبه ولكنها حالات معدودة كما ترى .

قلنا انه يمتنع على المرء ان يسيء الى جسده بالافراط ونهك القوى بتعاطي المسكر وما الى ذلك من العادات الهدامة . وما من احد يجهل مضار إدمان المسكرات وتأثيرها السيء في العقل والنسل وما يحدث بسببها من الجرائم . وقد اثبتت الاحصا آت في مختلف بلدان العالم ان السكر كان اما سبباً مباشراً او سبباً بعيداً في اغلبية الجنايات

التي تقع سنوياً .

واذا انت بحثت في مستشفيات الامراض العقلية وجدت فيها كثيراً من السكيرين واولاد السكيرين ، هؤلاء الابرياء المساكين الذين ينطبق عليهم قول الكتاب المقدس : الآباء يأكلون الحصرم والابناء يضرسون. هذه هي كلمة مختصرة عن واجبات الانسان نحو نفسه وانما مردّها جميعاً الى العقل الذي هو قبس من النور الالهي وهو الزاجر الناهي .

الشك

الشك مذهب الحائر المرتاب ، لا يدري اين يضع قدمه ، ويزعم اصحاب هذه النظرية ان الانسان لا يستطيع علماً وشرعاً ان يتأكد من شيء ، فكل الآراء المعروفة تستوي في ميزان الريب ، فعلى العاقل الحكيم ألّا يجزم بشيء ، إيجاباً او سلباً ، وان هذه الحالة هي افضل حالات العقل البشري .

ولا يدور النزاع بين المشككين وخصومهم على وجود اليقين بحد ذاته ، بل على قيمته ، ولكن على الرغم من ذلك كله فان هناك أشياء لا يستطيع المشككون انكارها ولو زعموا انهم لا يستطيعون اقامة البرهان على وجودها او على عدمها من الوجهة الفلسفية . فاذا سألت احدهم مثلاً عن الجدار القائم بجانب الطريق ، أموجود هو ام غير موجود ، وامتنع عن الجزم بأي شيء ، ثم سار في الطريق وعلى غفلة منه التطم رأسه بالجدار فشجّ وتقطّر منه الدم أفلا يجزم بعد ذلك بوجود الجدار ؟

ويعترف المشككون بوجود الاشياء البادية لكل ذي عينين فيقولون لك أنهم يرون الابيض كما تراه انت ولكن الفرق بينك وبينهم أنك تثق بما يدلك العقل على وجوده وهم لا يثقون بقدرة العقل على الحكم الصائب ، وهم يشعرون بالبرد كما تشعر ولكنهم لا يجزمون بان تلك القشعريرة هي البرد . وعندما يمتنعون عن الجزم بشيء يناقضون

انفسهم لانهم يجزمون بأنهم في شك .

وهذا المذهب قديم في التاريخ ، وقد عمل به ودعمه فريق من فلاسفة اليونان القدماء المعروفين بالسوفسطائيين ، وقام منهم اساتذة خطباء زعموا انهم يستطيعون تعليم تلاميذهم الفصاحة ، فيتمكن واحدهم مثلاً من الدفاع عن نقطة معلومة مهاجماً او محامياً ، فبامكانه ان يشجب الانتحار او ان يحله وان يشجب السرقة او يجيزها فالآراء المتضاربة تتساوى في نظرهم . ويذكرنا ذلك بقول القائل :

انا ابو قلمون في كل لون اكون

واشهر الاقدمين في الشك هو الفيلسوف «بيرون» (Pyrron) المولود في القرن الثالث قبل المسيح . ونقطة الذهاب التي ينطلق منها الرجل هي تعذُّر معرفة الاشياء بجوهرها وطبيعتها معرفة تامة ، فهو يحسّ ان العسل مثلاً حلو المذاق ولكن المريض لا يشعر بهذه الحلاوة . ثم ان البشر يفترقون في التقاليد والمعتقدات فما تراه تلك القبيلة جريمة تحسبه قبيلة اخرى مكرمة وفضيلة . اذن فعلى العاقل ان يترك حكمه معلّقاً وتلك افضل الطرق لبلوغ السعادة والطمأنينة . فمن يرى ان لا حقيقة ولا ضلال ، ولا خير ولا شر ، فقد انقذ نفسه من كدّ الخاطر وصعوبة البحث ، وتخلص من الوساوس والمخاوف .

أما شك بسكال (Pascal) ومن جرى مجراه ، فهو من طراز آخر لانه في الحقيقة جدل ونقاش يفضي الى الايمان ، كما وقع للفيلسوف ابي حامد الغزالي المعروف بحجة الاسلام ، اذ بدأ بالشك ليبلغ اليقين وقد

بسط ذلك في كتابه الموسوم بـ « المنقذ من الضلال » اما الحجج التي يدلي بها المشككون تأييداً لرأيهم فأهمها :

١) – الجهل لانهم يزعمون ان الانسان لا يستطيع الوصول الى حقيقة الّا اذا بحث النظريات جميعاً وذلك يتعذر على المرء ، فالموضوع يتجاوز كل نطاق ، والحياة لا تستوعب هذا الفيض العميم ولاسيما وان العقل البشري محدود .

٢) – كل البشر مجمعون على وجود الضلال وكثيراً ما يخطئون ، والذي يخطىء كثيراً معرض للخطإ دائماً ، أوَ لسنا نرى في الحلم اشياء كثيرة نحسبها حقائق ثم نستفيق فنراها تبددت هباءً منثوراً .

٣) – تناقض الفكر البشري وتغيره لاسباب عديدة : منها تغير الزمان ، فما كان محموداً بالامس اصبح شائناً اليوم . لقد كان طَرْحُ صبيةٍ عذراء في النيل كل سنة واجباً مقدساً استرضاء للنهر الجاري ريّاً وخصباً ، اما اليوم فينظر المعاصرون الى تلك العادة نظرتهم الى جريمة تقشعر منها الابدان . ومنها تغير البلدان فقد كان لحم الآدميين في نظر متوحشي افريقيا وليمة من اطيب الولائم .

واعجب من هذا كله ، التناقض الذي يقوم في الشخص نفسه ، فشهواته تشنّ عليه حرباً لا يرضى عنها العقل فضلاً عن الحرب التي يشنّها العقل على نفسه ، فيكون تارة في جهة ، وطوراً في الجهة المعاكسة ، فلو كان ثمة حقيقة واضحة لكانت نظرة البشر اليها واحدة لا تتبدل . واقوى حجج المشككين هي الآتية :

قبل ان نجزم جزم اليقين في امر يجب ان نثبت مقدرة العقل على الحكم .

وتوصلاً لذلك نعمد الى العقل نفسه ، فالعقل هو الشاهد والمشهود عليه والقاضي في آن واحد . وهذا ما يفضي بنا الى الحلقة المفرغة او الدور . مثال ذلك قول بعضهم : ان المعدة تتولى توزيع الغذاء على الجسم ، والأعضاء لا تقوم الا بذلك ، ولكن بما ان الأعضاء ضعيفة فالمعدة ضعيفة لا تستطيع الهضم لتوزيع الغذاء على الأعضاء ، وهكذا يستنتج المشككون ان اليقين لا يستند الى العلم ولا يمكن اسناده الى العقل لانهم لا يؤمنون بسلطان العقل اما خصوم الشك فيردون على هذه الحجج بردود بعضها واهن ، وبعضها الآخر في منتهى القوة . فيقول احد ظرفائهم : بما ان المشككين لا يقرون ولا ينكرون ويستوي لديهم كل شيء فاضربوهم ضرباً اليماً حتى يقروا ان بين الضرب المبرح وراحة الجسم فرقاً . وبعض الفلاسفة ينصح لهم بالسكوت التام اذ خاطب احدهم هكذا : يا فلان انك تتكلم ، فان كنت تعي ما تقول فهذا دليل على استطاعة العقل ان يعرف ، وان كنت لا تدري ما تقول ، فالافضل ان تسكت لئلا تتهم بالجنون .

وهناك حجة اقوى هي هذه :

لا يشك إلّا الانسان الحي المفكر الذي يدري انه لا يدري ، وهو يبغي التوثق والوصول الى الحقيقة ، اذن فالعقل يستطيع معرفة شيء معرفة يقينية ، هي ان المشكك يعرف نفسه مشككاً .

ولا ريب ان أقوى البراهين على اليقين ، حجة الفيلسوف ديكارت

(Descartes) الذي ولج باب الشك ليبلغ قمة اليقين، كما فعل أبو حامد الغزالي من قبل فقال ديكارت : انا افكر اذن فانا موجود .

اننا نلقي كل يوم في حياتنا اليومية كثيراً من الاصحاب الذين نناقشهم في مواضيع تتناول العلوم الوضعية ، فيصرحون بما يخامرهم من الشك في بعض الشؤون ولكن هؤلاء لا يدخلون في فئة المشككين الذين تناولهم بحثنا هذا . فانما اولئك يشكون بمقدرة العقل على استيعاب اي شيء مهما كان بارزاً واضحاً، والحمد لله الذي لم يسمح بأن تكون اكثرية البشر من هذه الفئة ، اذن لأصبح العالم كله مستشفى بُلهاء يفوتهم العد ، ويكونون هم انفسهم في شك من انهم مجانين او عقلاء .

التطوّر

شغلت نظرية التطور عقول الناس في العصور الحديثة ، بعد ان سارت الحضارة شوطاً وتقدم العلم بتقدمها وعلى الاخص العلوم الطبيعية وما يتصل بها ، وقبل ان نبحث مبدأ التطور نقول كلمة في نظرية الاستقرار .

زعمت فئة من العلماء والمفكرين ان الاحياء خلقت كما نراها اليوم ، فالحصان الاول مثلاً كان شبيهاً بالحصان الذي نراه اليوم في ميدان السباق ، زاعمين ان الخالق سبحانه ، ابتدع النماذج وبثّ فيها روح الحياة ، ولقد اندثر بعضها وطوته العصور ، ونكاد لا نعرف هذه الحيوانات المندثرة إلا عرضاً كأن يحدث انهيار في ناحية ما ، أو يحفر الباحثون قصد الاكتشاف فيعثرون على هياكل عظمية لا نرى لها مثيلاً في الحيوانات الاليفة والوحشية التي نعرفها اليوم. وهم لا ينكرون بعض التطور الذي يطرأ على الانواع فتختلف اختلافاً ظاهرياً تبعاً للمناخ ونوع الغذاء وبعض الظروف الاخرى . وقد يصبح هذا الاختلاف وراثياً ، فان الزنجي لم يكن زنجياً في الاصل ولكن الاقليم أثر في لونه تدريجياً ثم استمر التغير بحكم الوراثة . وقد تتزاوج بعض الانواع المجاورة ، ومن هذا النوع الكلب الذئب (Chien loup) مثلاً فتبدو الفروق الظاهرية ، ولكن الاستقراريين لا يتعدون هذه الحدود ، فلا هم شهدوا تغيراً بديهياً جوهرياً طرأ على الاجناس ، ولا التأريخ أنبأهم

بذلك ، فلم يتحول الكلب الى حمار او الارنب الى نسر . والزنجي برغم سواد لونه ، وتجعد شعره ، وتهدل شفتيه لا يختلف طبيعياً عن الانسان الابيض ، وهم يعدون نظرية التطوريين افتراضاً مجرداً لا يؤيده دليل .

أما نظرية التطور فقد استهوت الجماهير لما فيها من الغرابة ، والجماعات مطبوعة على الميل الى الغرائب والخوارق ، اذن فما هي نظرية التطور ؟ زعم أصحاب هذا المذهب أن الاحياء التي نشاهدها اليوم لم تكن على هيئتها الحاضرة ، فلم تكن هذه الألوف من النماذج التي نراها اليوم بل كانت في البدء نماذج قليلة تطورت على الزمن وتعددت وهذا التبدل لا يشمل الحيوان فقط بل يتناول النبات ايضاً .

وعندما يذكر الناس التطور يتبادر الى اذهانهم اسم العالم دروين لأن اسمه اصبح مقروناً بهذه النظرية . ولكن هناك عالماً تقدمه فكان استاذاً له ولو فصل بينهما نصف جيل ، الا وهو العلامة لا مارك (Lamark) . وقد اوحى اليه هذه الفكرة وجود الانواع الملتبسة ، وهي التي يتداخل بعضها في بعض ، مثال ذلك الاسفنج فهو في طائفة الحيوان وان شابه النبات . ثم نظر لامارك الى الفروق بين اجناس الحيوانات الاليفة كالدجاج والارانب فزعم انه كل يوم يأتي ببرهان جديد على وجود حلقات هي همزات وصل بين الانواع ، فليست الانواع منفصلة انفصالاً تاماً كما توهمه العلماء الطبيعيون ، وان تقسيم الحيوان والنبات الى طوائف على الطريقة المعروفة ، ليس سوى تقسيم اصطناعي غير مرتكز على أساس علمي. وهو يرجح تداخل الانواع في

بعضها فتنقلب من جنس الى آخر ، ويعتبرها جميعاً وليدة بعض الانواع التي كانت في الاصل بسيطة التركيب قليلة الاعضاء ثم تطورت على الزمن مسيّرة بأسباب ثلاثة : البيئة والعادة والحاجة . وان هذه الاسباب وحواشيها تحدث في الحيوان اضطراباً داخلياً يحدوه على تبني هذه الطوارىء والخضوع لها مستجمعاً قواه لهذا التبدل ، فان لم يفعل كان نصيبه الفناء . وان هذه القوة الحيوية الداخلية هي التي تخلق وتبدل مدفوعة بعاملين عامل الحاجة وعامل العادة . فالحاجة تخلق العضو ، والعادة تقويه ، والوراثة تقره وتجعله مستمراً . ولكن الدليل يعوز لامارك (Lamark) في هذا الموقف فيعمد الى التشبيه فيقول : نرى في كل يوم ان التمرين يقوي الاعضاء والخمول يضعفها فاذا استمر الخمول زال العضو ، واستنتج ان الحاجة اساس الخلق . وضرب مثلاً على ذلك (البزّاق) العاري الزاحف على الصعيد ، فانه في زحفه هذا، يضطر الى تلمس الاشياء التي تعترضه فيخلق بدافع الحاجة أعضاء لم تكن له من قبل . ولكن خصوم هذا المذهب يردون عليه رداً مكيناً فيقولون ان الحاجة والعادة تقويان الاعضاء ولكنهما لا تخلقان خلقاً جديداً فالخلق عمل المبدع وحده . والاعضاء موجودة حتماً قبل الاستعمال والتمرين ، خذ مثالاً على ذلك الفرخ الحبيس في البيضة ، فاعضاؤه التي تتكون حينئذ لا تكون وليدة الحاجة ، فهو غني عن العينين لينظر وهو في سجنه المظلم ، ويستغني عن الجناح ليطير ، وعن المنقار لينقر الحب ولا حب هناك ولا بذور . إذن فالمبدع الحكيم هيأ هذه الاعضاء وسوّاها لحياة الجنين المقبلة . ومهما اشتط لامارك في

نظريته هذه فانه يمتاز على دروين بقوله : ان التطور يجري بتأثير غاية داخلية ، يسميها الشعور الداخلي .

وفي اواخر القرن التاسع عشر اتخـذ دروين نظرية (Lamark) عكازاً يتوكأ عليـه لدعم مذهبه الذي يدور حول نقطتين : الاختيار النوعي وتنازع البقاء. ويبني استنتاجه هذا على ما شاهدوه المجربون في التزاوج ، في مملكتي الحيوان والنبات . وهو تزاوج قام بـه الحراث والمزارعون فاختاروا من الاجناس ما يكفل تحسنها على الزمن بعامل الوراثة ، فنجم عن ذلك انواع جديدة من الخيول والابقار والكلاب وما سواها . وقد جاءت هذه النتائج ثمرة لعمل الانسان ، وهذا النوع من الارتقاء سمي الاختيار الاصطناعي . وزاد دروين : ان ما يبلغـه الانسان بإعمال الفكر ، واجهـاد الجسم في اختيار وتزاوج الحيوانات الاليفة ، تعمله الطبيعة في الاشياء البرية بحكم الاختيار الطبيعي على نطاق واسع ، في وقت مديد . فاذا ضاق الانسان ذرعاً واستعجل الاختيار المصطنع نظراً لقصر الحياة وقيمة الوقت فالطبيعة تعمل على مهل ، ولديها ملايين السنين . وفي هذه المدات الطويـلة يتم الاختيار الطبيعي ، وتتشعب الانواع في تحول دائم . ويزعم ان هـذا التبديل يتحقق بسببين . أولهما الكفاح من أجل العيش،وثانيهما تأثير الوسط .

أما الكفاح من أجل العيش فسببه ان الطبيعة توجـد في الاحياء عدداً وافراً لا تستطيع تغذيته ، فيقوم النزاع على الغذاء بين هـذه الجيوش اللجبة ، وفي هذه المعركة يسقط الضعفـاء ويبقى الاقوياء المزودون بسلاح امضى من سلاح سواهم فيورثون نسلهم ما لديهم من

قوة . فالاسد يورث الشجاعة ، والثعلب الحيلة ، والغزال الخفة وهلمّ جرّا . أما السبب الثاني فهو تأثير المناخ .

فلو فرضنا ان منطقة من الارض دبّ فيها الصقيع فتجمدت . فلا يستطيع العيش فيها من الحيوان الا ما طال صوفه فتمكن من مقاومة البرد كالدب الذي يعيش في المناطق القطبية ، اما الضعيف فيموت . اما الاقوياء فيخلفون ذرية تتبدل على الزمن ، فتختلف اختلافاً عظيماً عن أسلافها ، فان هذه الطيور التي تشق الجو بأجنحتها ، لم تكن في العصور الغابرة سوى زحافات تسعى ثم دبّت ، ثم نبتت أجنحتها فطارت .

ويلاحظ دروين تبدل الحيوان وهو بعد جنين ، والادوار التي يمر فيها ليبلغ كمال نموه ، ويدلك على المشابهة العظيمة التي يراها بينه وبين الاحيـاء السفلى حينما يكون في الادوار الاولى ، يريد بذلك اقامـة البرهان على ان الانسان — وهو ارقى الاحياء — يمر في اثناء تكوينه بالادوار التي مرّ فيها على التعاقب يوم كان هو ايضاً في الاحياء السفلية ، وهو متشكل في الرحم باشكال عديدة توضح لنا هذا « الفلم السينمائي » الذي مثّله في ثنايا العصور ، بادئاً من اسفل درجات سلم النشوء حتى المرتبة العليا وهي التي بلغها اليوم .

ولكن نظرية دروين تنطوي على كثير من الوهن .

اولاً لان التزاوج المفتعل الذي يفضي الى تبدل الانواع انما هو نتيجة اختبار طويل قام به الانسان العاقل المفكر ،فلم يكن من عمل المصادفة

او ابتكار الحيوان البهيم الذي يلبي فقط نداء الغريزة العمياء . واذا اغفل الانسان هذه الانواع الجديدة التي اوجدها بالزواج والتلقيح ، فلا تمر عليها مدة من الزمن حتى تعود سيرتها الاولى .

وابسط فلاح في لبنان مثلاً ، يعرف ان بزرة الزيتون الجوّي ، الذي تعب الفلاح في جعله مثمراً تزرع في الارض فتعطي نبتة برية لا ثمر فيها .

ثانياً ان الحفريات تدلّنا على انقراض بعض السلالات الحيوانية ، ولكن السلالات الموجودة اليوم وجدت ايضاً قبل التاريخ ، والهياكل العظمية لم تتبدل ، فكما كان هيكل القرد والفيل في تلك الايام فكذلك هو اليوم. اما قوله بان الانسان يمر في دور تكونه في الرحم، بالمراحل التي رافقته يوم كان في المرتبة السفلى ، فافتراض محض لا يؤيده برهان ، وتراه ينسب الى الطبيعة العمياء نتائج لا تصدر الا عن ذكاء وتفكير فنظريته تنطوي على خيال طريف ولا تستند الى علم مكين .

هذا من جهة تطور الاحياء ولكن هناك تطوراً آخر اوسع مدى ، وابعد صدى ، لان القائلين به نظروا الى المسألة من كوة الفلسفة لا من كوة العلم كما فعل دروين ، وادخلوها في باب « ما وراء الطبيعة» يرمون بذلك الى اخضاع المظاهر الطبيعية وأحداث الكون لنظام وحيد يكفل شرح كل شيء . وليست هذه المحاولة بجديدة ، ولكنها بدأت منذ فجر التاريخ،وشغلت القسم الاكبر من فلسفة اليونان وعلى الاخص

فلسفة ارسطو وقد تصدى لها في العصور الاخيرة الفيلسوف الالماني ليبنز (Leibnitz) واعتمدها الفلاسفة الوضعيون في اوربا ، ولكن هربرت سبنسر (Spincer) يعتبر حامل لوائها لانه وضع مذهباً كاملاً ، فلم ينظر الى القضية من جهة واحدة بل من جهاتها جميعاً ، ولم يبنِ غرفة واحدة بل شاد صرحاً ضمّ مظاهر الكون ، وما عسانا ان نبسط من هذا المذهب في كلمات لذلك ترانا نكتفي من البحر بقطرات .

يقول سبنسر ان الكون سار من البسيط الى المركب ، فلقد كان في البدء شيئاً واحداً مختلطاً ، ثم تفرق فتعدد ، وتمركز فاستقر .

ويزعم ان هذا التعريف يشمل الكائنات بما فيها الاجرام الجوية والارضية ، واصل الاحياء ، والفكر البشري ، وتأريخ الجماعات ، وصعيد العلوم والفنون .

وفي رأيه ان العالم كان في البدء شبيهاً بكتلة من ضباب يتداخل بعضها في بعض ثم تفرقت فنجم عنها النظام الشمسي اي الكواكب والنجوم ، زاعماً ان هذه الاجرام وان تفرقت بدداً فقد استمرت بينها رابطة التعاون والتجاذب وثيقة الاواصر . اما الكرة الارضية فكانت شعلة لاهبة فيها مختلف العناصر ، ثم اخذت تبرد فولدت الطبقات الارضية وتجمدت المعادن ، وسالت البحار ، وكانت المظاهر الطبيعية والكيماوية التي تألفت فخلقت نسمة الحياة على وجه الارض في شكل خلايا بسيطة نمت فتشعبت ، فكانت الأنسجة والاعضاء ، ثم الجهاز العصبي وهو اول عهد الكائن الحي بالاحساس . ثم جاءت الغريزة

فتطورت فكانت الذاكرة والقوى العقلية ، ثم الشعور والارادة. حينئذ صار الانسان انساناً .

ثم تطور هذا المخلوق الحي فراقه أن يكون أبناء جنسه في غبطة وراحة ، فاصبح اجتماعياً أليفاً ، يرى لذة في التعاون مع أضرابه ، وهذه الخطوة كانت أساس الاخلاقيات ، ثم تطورت الجماعة ونشأ الاختصاص ، فبدلاً من ان يكون الانسان صياداً وراعياً وبنّاء معاً ، انصرف كل واحد من الجماعة الى ناحية ، وجرى تبادل العمل والمنافع، ونظمت الجماعات سياسياً واقتصادياً وهلم جرّاً .

وشمل التطور النواحي الاجتماعية حتى العلوم والفنون ، فكان العالم — قبل دور الاختصاص — يرى لزاماً عليه أن يعرف كل انواع العلوم ، ثم أخذ التشعب يتسع تدريجياً ، فمن ألقى نظرة على المؤلفات الاولى التي أنتجتها أدمغة القدامى يجدها خليطاً من علم الفلك واللاهوت والطب والتشريع والشعر . وكان الشعر خليطاً بالموسيقى والرقص . ومن نظر الى الياذة هوميروس وجد فيها انواع الشعر جميعا من غنائي وقصصي وما اليها متداخلة . ومجمل القول ان كل شيء أخذ في التطور والتفرع سائراً في سلم الرقي ، وان العالم يسير من حسن الى أحسن ، فالهيئة الاجتماعية أعضاء متفرقة يعمل كل في ناحية ، ولكنها متعاونة مترابطة ، وافرادها عمال يسهمون في تقدم الحضارة ويؤازرون هذا المبدأ او القوة المجهولة التي تقدسها الاديان ، ولكنها قوة لا نعرفها .

هذا موجز نظرية سبنسر القائلة بوحدة الكون وهو كما ترى مذهب

يغري الناس — خصوصاً عندما يدخل في التفاصيل المسلم بها — بشكل خلاب ولكن الاساس يظل واهناً يعوزه الدليل ، وقد بقي سبنسر كما بقي التطوريون قبله في عالم الافتراض والخيال. فلم يشرح مصدر الهيولى والضباب الذي تبدد وكان أصلاً للاكوان فكان موقفه اذ ذاك شبيهاً بموقف الذي تسأله من أين تكوّن النهر فيجيبك انه تألف من الينابيع وماء المطر ، وان الماء وليد البخار المتكاثف ثم يقف عن الجواب بعد ان تطارحه بعض الاسئلة اذ يصطدم عقله بالمحرك الاول ، بالله جل جلاله ويسميه سبنسر ونظراؤه : القوة المجهولة .

ثم يزعم هذا المذهب ان التطور هو التقدم وهذا زعم باطل ، فالتطور هو انتقال من حال الى حال ، فقد يكون تقدماً وقد يكون انحطاطاً ، فأين مكانة اليونان اليوم من مكانتها العليا بالامس اذ كانت منبعاً لحضارات الدنيا ، واين عظمة الرومان ، بل أين عظمة الدول الإسلامية والحضارة التي طلعت من الصحراء وعبرت البحر الى الاندلس ؟

إذن فزعم سبنسر واهن من هذه الجهة ايضاً ، ومن جهات أخرى متعددة أهمها انه يعكس الآية فيخرج الاكثر من الاقل زاعماً ان تلك الذرة التي لا حياة فيها ولا عقل تطورت من تلقاء نفسها وبدون ان تديرها قوة عاقلة فخلقت الحياة والانسان العاقل . حقاً لقد جاء صاحبنا بمشكلة يتعذر ، بل يستحيل فهمها ، قاصداً بذلك انقاذنا من الجهل والتقييد بهذه القوة المجهولة وهي الله عز وجل . فما قولك بمصاب بحمى التيفوئيد يأمره طبيبه الحكيم بالاقتصار على عصير البرتقال فيأتي

طبيب آخر ويعتبر هذا السائل مرهقاً للمعدة والمصارين فينصحه بأ كل اللحم المشوي باعتباره أخف من العصير ؟

لقد بالغ الاستقراريون اي الذين قالوا ان الكون وجد على هيئته الحاضرة وكذلك بالغ سبنسر واصحابه ، والامر الثابت الذي أقره العلم هو وجود التبدل منذ فجر العالم . ولا ريب ان العلم سيفتح في المستقبل آفاقاً جديدة يطل منها على التبدل الذي رافق الانسانية ، وهذا الرأي الوجيه لا يخالف النظرية الدينية بشيء شرط أن نعتبره صادراً عن القوة الالهية ، التي وضعت منذ الازل نظاماً للعالم ، اذ ان التطور هو من ضمن هذا النظام ولقد أصاب الفيلسوف الالماني ليبنز حين قال ان الطبيعة لا تستطيع وحدها خلق شيء ، ولكنها تقدر على إنماء البذور الموجودة فيها فتمر هذه البذور من درجة القوة الى درجة الفعل. ان الارض تنبت شجرة اللوز وتجري في جذعها وأغصانها الحياة ولكنها لا تخلقها فان هـذه الشجرة الكبيرة الظلال الوارفة كانت موجودة بالقوة في البزرة الصغيرة. أما من يستند على التطور وحـده لحل المشكلة فلا ريب انه يقف مكتوف اليدين أمام وثبات ثلاث على الاخص : اولاً وثبة العالم من العدم الى الوجود ، ثانياً وثبة المادة من الجمود الى الحياة ، ثالثاً الخطوة من الحيـاة الى الفكر . وهذه الخطوة الثالثة هي القمة التي وقف عليها الانسان مشرفاً من علٍ على أرجاء هذا الكون الذي أعده له الله منـذ الازل ، فانطوت الاجيال وراء الاجيال مسارح للتبدل المستمر ، وجاء الانسان فتـاه بصره في هذا الخضم ورأى ذاتـه بجانب العوالم أصغر من حبـة الرمل بجانب

الاوقيانوس . أجل ولكن هذا المخلوق الضعيف أعظم المخلوقات لانه يفكر ولان فيـه روحاً متصلة بالله باللانهاية ، كلما حاول أن يمتهنها ويسويها بالمادة سمع في قرارة نفسه هاتفاً يقول له :

« أنا هو الرب إلهك لا يكن لك إله غيري »

التشاؤم ومشكلة الشر

المتشائمون في الدنيا اكثر من المتفائلين، ذلك ان مرارة الحياة تطغو على حلاوتها ، والمعذبون في الدنيا اوفر عدداً من الناعمين بطيباتها، ولقد اصاب من سماها وادي الدموع . وفي الدنيا متفائلون يحاولون عبثاً اقناع البائسين بأن يروا رأيهم في العيش ، مثلهم مثل الصحيح المعافى يحاول اقناع المريض بأن الاكل الذي يتناوله طيب المذاق ، ولكن فم المريض أصدق واكثر اقناعاً لصاحبه .

وليس التشاؤم مذهباً جديداً فهو قديم بقدم الحضارة ، وكان مهده الاول الهند ، واي المذاهب لم يتأثر بالفكر الهندي ، فان البلد الذي أطلع المهاتما غاندي، اطلع الوف الغانديين منذ آلاف السنين ، وبحسبه ان يكون مهد بوذا العظيم .

والتشاؤم متشعب الانواع ، فمنه ما يكون في مزاج الانسان الذي تلازمه الكآبة ، وقد ينجم ذلك عن هزائم مني بها في حياته الشخصية ، او عن اخفاق في حياته الاجتماعية ، فلا يرى الا الناحية القاتمة من الحياة ، وييأس من الناس جميعاً وينفر منهم او يلبسهم على دَخَل .

ومنه ما يُدعى التشاؤم الشعري، واصحاب هذه الطريقة ساخطون، ينظرون الى العالم نظرة الهزء والاشفاق معاً ، فلا يتورعون عن السب . وحامل لواء هذه الفئة من شعراء الغرب ، المتهتك الفاجر ، الشاعر

العبقري ، لورد بيرون .

اما التشاؤم الهندي فتناول الناحية الدينية لان بوذا علّم ان العالم حلم ثقيل ، وان الحياة كلها ألم لما يعتري الانسان من مرض وشيخوخة، ولما يناله من مساوىء ابناء جنسه ، ولما يضطرم في صدره من الميول والشهوات ، فخير للانسان ان لا يعود الى الحياة بطريق التقمص ، لان التقمص نفسه ألم. لذلك يجدر بالمرء ان يفطم نفسه عن كل ميل، ويخنق في صدره حب الحياة فلا يجهد ولا يعمل لشيء ، بل تنحلّ شخصيته تدريجياً ويتلاشى ، تلك هي النرڤانا أو نعيم الهنود البوذيين .

واهم انواع التشاؤم هو المذهب الفلسفي القائل بأن العالم شر في طبعه وجوهره ، وانه لا يتقدم بل يسير كرّاً الى الوراء ، وينحط من سيء الى اسوأ . وعلى رأس هذه الطريقة فيلسوفان ألمانيان هما شوبنهور وهرتمن . اما الاول فيزعم ان الشر يغمر العالم فليس في هذه الدنيا من الخير الا قبس ضئيل لا يكاد يكفي الانسان عوناً على تحمل الالم . ويستنتج من ذلك ان القوة التي تسيّر العالم هي قوة عمياء تبث الغريزة في النبات والحيوان للتناسل وتغمر المرء بالميول والشهوات لينمو ويتكاثر ، وهنا النكبة الكبرى لان الحياة ليست سوى الالم ويرى ان افضل علاج لهذا الداء ، ما رآه بوذا اي كبت الشهوات فلا يكون نسل ولا ولادة في ما بعد ، بل اضمحلال وتلاشٍ في احضان النرڤانا اي العدم .

اما هرتمن فيقول بوجود الخير نسبياً ولكن نسبته الى الشر جد ضئيلة فكان من الافضل للعالم الا يوجد .

ويذكرنا هذا الرأي بابي العلاء المعري، بل يذكرني بقصيدتي «النسر»

وقد نظمتها في غمرة من غمرات الالم ، ولكني استغفرت الله في اواخر القصيدة استغفاراً طويلاً ، ومن مقاطع التشاؤم فيها هذه الابيات :

ما اطيب العدم الهنيء وليته   خنق الحياة بناطق وجمادِ
واجلّ من سلّ السيوف بقاؤها   مدفونة الشفرات في الاغماد
ما الكون الا البحر يقذف شرّه   متلهب الامواج والازباد
في كل عصف منه فحة أرقم   ونواهش زرقاء غير بوادي
جيف على الآذيّ تنشر نتنها   وتبث وهن اليأس في الصياد
يا طالب المرجان حظك عاثر   فالبحر مقبرة وجوف فساد
تتآكل الحيتان في أغواره   مأخوذة بالحب والايلاد
كالناس فجّار وصرعى لذة   أبدية النزوات والايقاد

ويقول هرتمن ان الانسان توهم في بادي الامر انه مخلوق للسعادة في الدنيا، ثم تلاشى وهمه هذا لما شهد المصير الذي تؤول اليه مظاهر العظمة والترف والملذات ، فمنّى نفسه بالخلود والسعادة الابدية بعد الموت . ولكن الانسان بدل رأيه هذا في ما بعد وتوهم السعادة في تقدم البشرية الدائم على صعيد الحضارة علماً واختراعاً وهذا ايضاً ضلال في ضلال ، فما عسى العلم ان يخفف من آلام البشرية وشرورها . ويعجب هرتمن من الذين يحبون الحياة ، فيقول بعد المعري :

تعب كلها الحياة فما أعجب   الا لراغبٍ في ازديادِ

والحياة معركة لا يخرج منها الانسان ظافراً بل مغلوباً حتماً . ومنتهى آمال هرتمن أن يبلغ الاختراع أوجَه في المستقبل ، فيكتشف

آلة ما ، تبيد العالم بأسره فلا تبقى نسمة حياة على وجه الارض . وقد توفي الرجل في اوائل القرن العشرين ، فلو قدر له ان يبقى حياً الى اليوم ، لابتهج ابتهاجاً شديداً بالقنابل الذرية، لانها كفيلة بتحقيق حلمه .

وكما ان التشاؤم لقي رسلاً له في المانيا ، فقد لقي التفاؤل في ألمانيا نفسها سنداً في شخص الفيلسوف ليبنتز (Leibnitz) القائل : ان هذا الكون هو أجمل ما خلق الله من الاكوان المستطاعة ، لانه تعالى منبع كل خير . وكذلك يقول الحلوليون وعلى رأسهم الفيلسوف سبينوزا (Spinoza) وقد زعم الوثنيون القدامى ان : ليس شيء قبيحاً في بيت جوبيتر .

ولكن المتطرفين في التشاؤم كالمغالين في التفاؤل. يرى غلاة المتفائلين كل شيء حسناً ، فلا يهمون بنهضة ، ولا يجتهدون لتطور . وتمادي افلاطون في الابتهاج بالكون كتمادي بوذا في النظرة السوداء اذ يقول : القاعد افضل من الواقف ، والنائم أفضل من القاعد ، والموت افضل من كل ذلك .

واذا القينا نظرة شاملة على آراء المفكرين في كل العصور نجد ان منشأ الضلال هو التطرف ، وان الحقيقة – وقد كررنا كثيراً هذه العبارة – هي بين الطرفين . أجل ان في الكون شراً عظيماً ولكنه نقص في الخير كما ان العمى نقص في البصر . وفي نظرية المتشائمين كثير من الضلال ، اذ يرون التقدم البشري رجوعاً الى الوراء، ويرون في رقي الكائن ازدياداً لعذابه ، وان النبات أقل تعرضاً للوجع من الحيوان، وان الالم الذي يحيق بالانسان يربو على كليهما . وقد فاتهم ان اللذة والالم لا يكونان دائماً في الجسم . فقد يشعر الانسان الراقي – ولو

مريضاً متألماً – بغبطـــة نفسانية ، ونشوة روحية لا يبلغها الجاهل المتوحش ، ولو طفح وجهه عافية ونضارة . ان هـذه القوة التي تسير العالم ويزعمونها شريرة عمياء ، هي قوة حكيمة تركز في الكائن الحي طبيعة البقاء ، بما تغرزه فيه من ميل الى النمو والتناسل ، فاذا كان في الناس فئة تحب الموت ، فـالاكثرية تحب العيش . أو ليس شوبنهور نفسه – وهو الذي نصح للناس بالامتناع عن الزواج لئلا يجنو على سواهم – أقدم على معاشرة خليلة واستولدها سفاحاً .

وأصدق برهان على شذوذ نظرية المتشائمـين هو تكذيب الواقـع لآرائهم ، لانك ترى الناس في كل عصر ومصر يغالبون الموت ، مناضلين في سبيل الحياة ، يدفعون المنون بكل ما لديهم من وسائل . ولو كان الألم هو المسيطر لانتحر اكثر الناس بل الجنس البشري برمتـه . وان المنتحرين انفسهم ، لا يتخلصون من الحياة كرهاً لها ، ولكنهم أرادوها وردة بدون أشواك فخانهم الحظ ولمسوها شوكاً بلا ورد . والصحيح أن الحياة ليست جنة والناس فيها «على سرر متقابلين» وليست جهنّم يُشرب فيها الحميم . ولكنها مسرح للامتحان ومضمار للجهاد تختلط فيه الشر والخير ، ومهمة الانسان ان يخنق الشر ويوسع للخير .

وهنا يفضي بنا البحث الى عرض مشكلة الشر او الإلمام بها إلماماً خاطفاً لانها أوسع من أن تنحصر في مقال . ولقد حاول المفكرون منذ فجر التاريخ شرح هذه النقطة ، ولكن الشروح لم تزل ناقصة حتى يومنا هذا .

آمن الانسان بخالق حكيم مدبر لهذا الكون يغمره بعنايته، ويفيض

عليه من جوده وبهائه . ثم تطلـع الفكر الى ما حوله فرأى الشر في العالم . فهناك الجرائم الاجتماعية والامراض الفتاكة والحروب والطوفان والزلازل وما شابه ذلك ، وكلها شرور ونكبات ، فكيف يستطـاع التوفيق بين حكمة الباري وجودته ، ووجود هذه النكبات على وجه الارض ؟ ولقد كان في وسع الخالق ألا تقع هذه الامور ، فلمـاذا سمح بوقوعها ؟ الله نور والشر ظلام والنور والظلام لا يتفقان !

ولا ريب ان هذا التناقض الظاهري كان السبب في تفكير المزدكيين بوجود إلهين : احدهما «أهيرمزدا» مبعث كل خير ، وثانيهما «أهريمن» مصدر كل شر ، وانهما في صراع مستمر ، ولكن الغلبـة ستكون في آخر الزمان لأهيرمزدا . وقد وقع في هذه الضلالة أغوسطينوس الكبير نفسه قبل ان يصبح علماً من أعلام المسيحية . وانت ترى ان هـــذه النظرية عقيمة ، فمثل القائلين بها مثل من يعلل لوجود الظلام والبرد القارس بأن يفترض وجود شمس سوداء باردة غير الشمس التي نراها وهي مبعث القوة والحرارة والحياة. قالوا كيف يسمح الله الرحيم بأن يتألم بنو البشر في هذه الحياة ولا يكون لعذابهم نهاية الا بالموت وهو شر أيضـــاً . ولكن أنّى للانسان وهو ذو العقل المحدود بجانب اللانهاية أن يدرك حكمة الله ، ويحيط بغاية الخالق وهو المخلوق الضعيف ، ونسبة مايعلمه الى ما يجهله كنسبة نقطة من مـاء البحر الى البحر . وما أوتينـا من العلم الّا قليلاً .

قلنا ان النقطة التي تسترعي انتباه الانسان في مشكلة الشر هي – على الاخص – الألم الذي يعتريه . ويرى أعلام المفكرين ان الانسان

مسؤول جزئياً – على الاقل – عن المصائب التي يلقاها . فهو لو تجرد من الانانية والكبرياء والميول والشهوات ، وعن هذه المخيلة التي ينظر من خلالها الى أتفه الارزاء فيراه جسيماً لخفف كثيراً من آلامه . ثم ان الله اذ ركب الحس في طبيعة الانسان زوده بصفة تكون سبباً لفرحه ايضاً ، لان في الحياة افراحاً واتراحاً .

وللألم منافعه من وجوه عديدة فلولاه لما اهتدى الطبيب الى معرفة الداء فاستأصله ، وأبرز الامثلة على ذلك الزائدة المعوية . ولولا الشعور بالبرد لما ابتدع الانسان الكساء ، ولولا التعب لما اخترع الآلات والمراكب التي تحمله على الارض والماء ومناكب الهواء . لذلك كان الالم مهمازاً للانسان يدفعه في سبيل الرقي صاعداً أبداً . هذا فضلاً عن كونه مطهراً للنفوس ، فالألم هو اللجام الذي يكبح جماح الحيوان العاقل ، اذا بطر واشتط في طغيانه ، ويسقط عن عينه هذا الحجاب الخادع ويعلمه ان دون الورد اشواكاً .

أما الموت فأي شر فيه وهو النتيجة الطبيعية لكل مركب فضلاً عن كونه طريق الخلود . ولكن المتذمرين اذا أقنعهم هذا الرد على مشكلة الشر الطبيعي الجسدي البحت فانهم يعيدون الكرة من جهة أخرى ، متسلحين بوجود الشر المعنوي فيقولون ان المظالم والآثام التي يرتكبها الانسان هي مخالفة صريحة للامر الالهي واعتداء على العدل السماوي ، فكيف يسمح الله بوقوعها ؟ ولماذا خلق الانسان شريراً فاسد الطبيعة ؟

أجل كان في استطاعة الله ان يخلق الانسان طاهراً ، ولكن الذين

يقولون بذلك يتجاهلون مسألة الحرية ، وبدونها لا يكون الانسان إنساناً وهي حرية مقيدة بالواجب والنظام . فلو كانت مطلقة لتساوى المرء والحيوان ، ولو حرم منها الانسان وأجبر على عمل الخير لكان مسيّراً فلا ثواب ولا عقاب ، وعندما يعمل الشر يكون الله قد فعله بواسطة الانسان ، وحاشا أن يكون ذلك . ولو خلق الانسان طاهراً بريئاً من كل عيب لكان إلهاً أو ملاكاً على الأقل . ان حكمة الله أجل مما نرى . تبارك الله احسن الخالقين !

ومشكلة الشر لا تناقض العناية الالهية ، ولا تفل منها شيئاً ، فان الله يستطيع استخراج الخير من الشر ، فيلهم العنكبوت ان تنسج من لعابها شركاً تصيد به الذباب فيكون قوتاً لها ، ويسمح للانسان ان يفتك بالحيوان ليغتذي بلحمه ، ويبتلي عباده بظالم جائر فيوفر للمظلومين الأجر والثواب او يعاقبهم جزاءاً وفاقاً لما ارتكبوا من آثام . ومن هذا القبيل قول القائل : الظالم سيف الله ينتقم به ثم يعود فينتقم منه .

ولقد راودت مشكلة الشر خاطر المفكر الكبير جان جاك روسو ولكنه هتف في النهاية قائلاً : ماذا؟أو كان على الخالق ان يبدع الانسان حيواناً حتى لا يكون شريراً ؟ كلا ! أللهم اني اشكرك لانك خلقتني حراً ، اشاطرك الجودة والسعادة !

الحلوليّون

قال المفكر اللبناني الكبير ، المرحوم جبران خليل جبران :

« يا رب أنا أمسك وانت غدي ، وكلانا ننمو معاً في التراب أمام وجه الشمس » .

فان كان جبران يعني ما يقول فجبران حلولي أو هو ما يسمونه بالفرنسية (Panthéiste) . وليس جبران وحده من أتباع هذا المذهب فبين ادباء العرب فئة تدين بهذا المذهب الضارب بجذوره في صعيد التاريخ القديم ، والمنتشر حتى اليوم في أقطار العالم وعلى الاخص في اذهان المفكرين، والسبب في ذلك أن مذهب الحلولية يستهوي النفوس والقلوب الطيبة . ولكنه استهواء شعري لا أكثر فهو في الحقيقة مذهب فاسد كما سنبين ذلك .

يرتكز المذهب الحلولي على نقطة اساسية هي الوحدة الجوهرية بين الله والعالم . فيقول الحلولي إما ان يكون اللامتناهي شاملاً كل شيء وإما لا ،فان كان هنالك شيء لم يتناوله اللامتناهي فمعناه أن اللامتناهي قابل الزيادة والنمو ، اذن فالله هو كل شيء وما هذا الكون الفسيح إلا مظاهر متعددة للالوهية .

والحلولية نوعان : اولهما مادي بحت وكفري محض ومؤداه ان العالم هو الله ؛ وثانيهما خيالي متطرف ملخصه : ان الله وحده موجود

وان العالم لا حقيقة له معروفة إلا ما نراه من مظاهر . ويزعم الملاحدة ان الحقيقة التي لا ريب فيها هي وجود العالم، وان الله هو القوة والروح الملازمة لهذا الكون ، وانهذه القوة آخذة في النمو المستمر الذي يخلع الحياة على الأحياء. وقد كان هذا الرأي مذهب الرواقيين اليونان وعلى رأسهم الفيلسوف زنون (Zénon) . وحمل لواء هذه الضلالة في الشرق الاقصى المفكر الصيني تشووي (Tchoui) ، الذي زعم انه متم للاصلاح الذي بدأه كنفوشيوس وهو في الحقيقة جد بعيد عن كنفوشيوس الحكيم المعتدل . أما في العصور الاخيرة فقد نادى بهذه الفكرة الفيلسوف شلنغ (Shelling) القائل ان في الكون قوة حيوية لا تزال في تطور صاعد ، كانت كامنة في النبات ثم تحركت في الحيوان ثم استيقظت تمام اليقظة في الانسان ثم ترقت به ورقي بها ساعياً دائباً نحو مثالية لن يدركها ابداً .

وهذه الفكرة أوحت كثيراً الى داروين ونظرائه في مذهبالتطور. وتزعم فئة أخرى من الحلوليين وهي أقل إلحاداً من الاولى ان الجوهر الثابت هو الله ، وان العالم مظاهر فرارة متبدلة . بهذا علم الايليون اليونان (Les Eléates) وبهذا قالت الافلاطونية الجديدة في مدرسة الاسكندرية ، وكذلك الفيلسوف سبينوزا (Spinoza) زاعماً انه لا يمكن فصل العالم عن الله ولا فصل الله عن العالم. وخلفه هيجل في القرن الثامن عشر ولكن هؤلاء الفلاسفة ، برغم ما يتمتعون به من الشهرة العريضة ، خبطوا خبطاً عظيماً ، فدغموا الله بالعالم والعالم بالله فوقعوا في تناقض لا توفيق بعده ، لانهم مزجوا المتناهي باللامتناهي ، والثابت

بالمتبدل ، والعابر الفاني بالازلي الدائم ، وذلك مزيج يرده العقل الذي لا يستطيع تصور الشتاء والصيف على سطح واحد .

اما القائلون منهم بان الله في تطور مستمر فانهم يخرجون الاعلى من الادنى ، والروح من المادة . والحقيقة هي عكس ذلك فان القليل يكون في الكثير فالعشرة تنطوي على الخمسة ولا يعكس .

ولم يزل الحق بجانب الفيلسوف الوثني ارسطو القائل بأن العقل موجود قبل القوة والسبب قبل المسبّب والله تعالى موجود قبل كل شيء. ويبدو ضلال الحلوليين أكثر وضوحاً عندما تضعه على المحك النفساني . فعندما تعتبر مثلاً ان زيداً مظهر من مظاهر الكون لا سوى ذلك ، فقد نفيت عنه شخصيته المستقلة وأصبح آلة مسيّرة بقوة عمياء . فلا يمكنك اذن ان تعاقبه لجريمة ارتكبها لانك محوت شخصيته ولاشيت حريته ،فأعماله وحركاته في هذه الحالة أشبه شيء بحبات السبحة يجمعها خيط واحد هو هذا الانسان ، ولكنها حبات متفرقة ، غير متداخلة، يمكنك تحريك واحدة منها بدون ان تتحرك الاخرى .

وان وجداني يعلمني اني شخص كامل مستقل لا قطعة من هذا الذي يدعونه الكل (Le Tout) ، واني فرد من افراد المجتمع ، له حقوقه وعليه واجباته مستقلة (ولا تزر وازرة وزر اخرى) .

يقول الحلوليون بوجود الخلود ولكنه خلود ادنى من العدم لانه في نظرهم بقاء الجوهر ، اي هذا الكل اللامتناهي . مثال ذلك ان امرأ القيس يموت فلا يشعر بشيء بعد الموت فينسى (قفا نبك من ذكرى

حبيب ومنزل) ولا يسأل عن الخمر ومواقف الريبة مع عنيزة ، بل يندمج في هذا الكل ويتلاشى كما تتلاشى قطرة الماء في البحر ، غير عالمة من أين أتت والى اين تعود إن تبخرت واستحالت مطراً . وكذلك امرؤ القيس فقد يعود ثانية الى الحياة لابساً هذه المرة جسد نابليون الاول فيكون قائداً عظيماً ويخطب بالفرنسية ناسياً البلاد العربية ومواقفه على الغدران وذبح ناقته للعذارى والتاجن عليهنّ .

وأفظع أخطار الحلولية هي ما تجره على الاخلاقيات من نكبات وارزاء . انها مذهب يؤله كل شيء ، ومتى ألهت كل شيء فقد بررت كل شيء . الجهل والخطيئة والمعاصي الخ .

قال المؤرخ في معرض الكلام على ديانة المصريين القدماء : لقد ألهوا في مصر كل مظاهر الطبيعة ، الكواكب والنجوم والنيل والشجر والحيات والسنانير والبقر ،أجل لقد ألهوا كل شيء ما عدا الله. ملخص القول ان الحلولية إلحاد ولكنه إلحاد علمي ، فيه تناقض غريب فالله هو كل شيء والله ليس بشيء ، كل ذلك في وقت واحد .

فالحلولي الذي يزعم اني انا وانت وهو آلهة يزعمنا معصومين عن الخطأ ، ويزعم الخطأ نفسه مظهراً من مظاهر الالوهة ، فأي فرق عملي بين من يرى هذا الرأي ومن يكفر كفراً صريحاً فينكر وجود الله ، وبالنتيجة وجود الدين والاخلاقيات والنظام وما يتصل بها إنهما صنوان وكفتا ميزان .

قال صاحبي وهو رفيق جبران انه سأله يوماً عن معنى قوله : « يا

رب أنا امسك وانت غدي وكلانا ننمو معاً في التراب امام وجه الشمس»، فوعده جبران بالجواب بعد حين ولم يجب .

والسائل والمسؤول كلاهما يعلم المراد بذلك . ألا رحم الله المسؤول فقد كان من انبغ نوابغ الشرق مهما كان مذهبه ، وحفظ لنا السائل فهو في الذؤابات العلى علماً وخيراً وخلقاً .

الرّواقية

الرواقية مذهب فلسفي عرفه العالم في اثناء القرن الثالث قبل المسيح. ويعتبر هذا المذهب ردّاً عنيفاً على أتباع ابيقور (Epicure) فوجب علينا اذن ان نعرّف المذهب الابيقوري اولاً ليتسنى لنا بعد ذلك ايضاح مذهب الرواقيين .

بلغت الفلسفة اليونانية أوجها في عهد افلاطون وارسطو العظيم ، التلميذ الذي فاق معلمه . وقد شغلت افكار المفكرين في تلك العصور قضية (ما وراء الطبيعة) . وانها لمشكلة خطيرة دار حولها العقل الانساني منذ بدء الفكر ، لان المرء لا يقتصر على التفكير في ما يعرض له كل يوم من مشاكل الحياة ومظاهرها بل يحاول ان يخترق الحجب ليرى ما سيؤول اليه امره بعد الحياة الدنيا . ومن هنا بدأ البحث في ما وراء الطبيعة فأبلغه الفيلسوفان افلاطون وارسطو الذروة التي لم نستطع ان نتجاوزها في القرن العشرين ، واننا لا نبلغها الا بشق النفس فنشرف منها على آفاق شتى .

غير ان الفكر اليوناني تعب من التصعيد في الآفاق العلى ، فرأى بعد عهد الفيلسوفين العظيمين ان ينزل الى الارض ويستريح قليلاً ، فيصرف همه الى النظر في الاخلاقيات والحياة العملية فيتخيّر افضل الطرق

مستنيراً بآراء الاساتذة السابقين لانهم جالوا في هذا الصعيد ايضاً جولات بعيدة المدى .

وما الابيقورية الا احد هذه المذاهب العمليـة ، وقد وسمت بهذا الاسم نسبة الى مؤسسها ابيقور المولود سنـة ٣٤١ ، المتوفى سنة ٢٧٠ قبل المسيح في بلدة من ضواحي اثينا . وقد كان ابوه اختصاصياً في اصول اللغة وقواعدها ، اما امه فكانت تتعاطى العرافة والتنجيم . ولما بلغ ابيقور السادسة والثلاثين من العمر استقر في اثينا حيث اشترى حديقة اسس فيها مدرسة للفلسفة زاول التدريس فيها طول حياتـه . وكان الرجل لين العريكة لطيف المعشر قوي العزيمة ، وليس ادل على ارادته الحديدية من صبره الطويل على الالم الذي قاساه في مرضه الوبيل الذي أودى بحياته .

وقد أثـّر ابيقور في أتباعه تأثيراً عظيماً حتى كادوا يؤلهونه . وفي عداد تلاميذه اعاظم رجال ذلك العهد ، ومنهم لوكرس (Lucréce) وقيصر وهوراس .

اما مذهب ابيقور فطويل نجتزىء منه كلمات تدل على نظرتـه الأخلاقية. فالرجل لا يؤمن بالحياة بعد الموت. وذهاباً من هذه النقطة يرى ان ينشد الغبطة في الحياة الدنيا ويعتبر قوام السرور طمأنينة النفس والراحة وتجنب الألم والخلود الى السكون ، زاعماً ان الطموح الى الشهرة والمجد، والسعي لكسب المال، والحب العائلي وما يتصل بذلك، هي من اسباب الالم والقلق الدائم ، فعلى المرء ان يتحاشاهـا ، وينصح بالتجرد من الحب والخوف والميول ، ويقول بوجوب ممارسة الفضائل

والاعتدال في العيش .

اما الرواقية فقد سميت كذلك لان اربابها كانوا يجلسون في رواق مستطيل ، وهي هنا ترجمة للفظة (Stoïcisme) الفرنسية . ومؤسسها هو الفيلسوف زنون (Zénon) المولود في جزيرة قبرص وكان معاصراً لابيقور .

وفلسفة زينون تدور ايضاً على طلب السعادة ولكن عن طريـق تختلف تماماً عن طريقة الابيقوريين،لانه طريق الكد والعمل، فاعجب لهذا الفيلسوف الذي يرى السرور في العذاب لا في الراحـة الي يحسبها شراً . وفي رأيه ان هركيل (Hercule) هو المثـال الاعلى للبشرية ، لانه قام باعمال عظيمة تدنيه من الالوهة .

والرواقية تدين بالحلولية معتقـدة ان العالم مسيّر بأسباب جبرية خفية ، وان الانسان مركب من عنصرين كلاهما مادي ، ولكن النفس الطف من الجسد ، وهي نسمة مضطرمة مفكرة تبعث الحيـاة في كل شيء، وان العالم مجموعة اجزاء بينها ارتباط وثيق . فالكون في نظرهم شبيه بحيوان هائل اعضاؤه الكائنات، وان روح العالم هو الله او القوة العاقلة التي تسيره ، وان روح الانسان قبس من النار الالهية رافقته يوم مولده وستعود الى مكانها بعد الموت ، وتسمى هـذه الشعلة في الانسان روحاً وعقلاً وفي العالم الهاً . ولنضرب لك مثالاً على ذلك :

تطلع قطرة الماء من البحر بخاراً ، ثم تتراكم غيماً ، وتتحلّ مطراً، فتنفجر الارض عن ينبوع غزير. ولنفرض ان هذا النبع انبجس في سهل

البقاع فكوّن نهراً فدعي هذا النهرباسم الليطاني فان هذا الاسم يتبدل عند بلوغه شاطىء البحر فيدعى نهر القاسمية ، ولكن الليطاني والقاسمية مسيل واحد ينصب في البحر ، عائداً الى مصدره الاول .

اذن فالكلمات الثلاث : الله، العقل ، الطبيعة ، تعني شيئاً واحداً. وانك لتسمع بعض الذين يميلون الى الالحاد في ايامنا هذه يقولون ما يقارب هذا القول، فيزعمون ان الله والطبيعة شيء واحد ، وهم فئة من السطحيين الذين يرهقهم التفكير العميق .

ويزيد الرواقيون على ذلك ان كل شيء مسيّر بقضاء وقدر ، فكل ما تعتبره وليد الاتفاق او الحرية هو جبرية محضة ولكننا نجهل الاسباب فنسمي الاشياء بغير اسمائها .

وكنت اود — لو اتسع المجال — تفنيد نظرية الجبرية، ولكني أُحيل القارىء على نظرية الفيلسوف برغسون في الحرية وقد بسطها مفصلاً في كتابه الموسوم : «بمعطيات الوعي البديهية» .

(Essais sur les données immédiates de la Conscience)

فاني لم اجد في المتقدمين ولا في المتأخرين من حل المشكلة كما حلها برغسون العظيم .

ومن الغريب ان تجد الرواقيين انفسهم يلجأون الى الله ويعتبرون الانسان مسؤولاً عن أعماله ، وهذا تناقض واضح بين قولهم وعملهم . ولكنهم لا يهتمون كثيراً للتوفيق بين النظرية والتطبيق فيكتفون بالتسليم والاذعان للواقع ، فان الحكم والحرية تقومان عندهم بالصبر على ما يكون، اذ يعتبرون الواقع صادراً عن العقل اي عن الله، فلا يكون

الاحتجاج اذ ذاك الا اعتراضاً على الله . ومن طالع سفر ايوب رأى أن اصحابه الثلاثة الذين عادوه إبان محنته ، عنفوه على شكواه وتذمره معتبرين ان كل اعتراض يثيره ايوب الصديق ، هو ثورة على العناية الالهية ، ولكن هناك فرقاً شاسعاً بين إله التوراة وإله الرواقيين .

ويرى الرواقيون ان اصل المعرفة الحس، لاننا عندما ندرك الاشياء بواسطة الحواس الخمس يبقى منها في نفوسنا اثر يلتقطه العقل ثم يتفهمه فيصبح هذا التفهم فكرة عامة ومنها يكون العلم . فان العين مثلاً ترى حيواناً يسير على الاربع فيلتقط العقل هذه الصورة ثم يتفهمها فيدرك ان هذا الحيوان الطويل الذنب، الرهيف القوائم، البارز الصدر، السريع الجري ، وكل ما شابهه من الحيوان هو من فصيلة الخيل . ولا ننسى اهمية هذه الفكرة يومئذٍ وهي اساس التجريد في الفلسفة .

ويشبه زينون الحس بالكف المبسوطة، والالتقاط بالكف المنقبضة نصفياً، والادراك بالكف المقبوضة تماماً، والعلم بالكف المنقبضة انقباضاً شديداً تشدها اختها القبضة الثانية .

فالرواقية اذن ترتب درجات المعرفة بحسب مراتب القوة والجهد ، وعلى قدر جهاد المرء وتشدده ترتفع مكانته في الفضيلة. ومن هنا ندرك قوة الرواقيين وصبرهم على الشدائد حتى انهم يواجهون الموت باسمين . وقد بسط الشاعر الفرنسي الفرد دي فيني (Alfred de Vigny) صورة رائعة للرواقية في قصيدته التي عنوانها : موت الذئب. فصور لنا ذلك الحيوان الذي أرداه الصيادون فوقع يتخبط في دمه ، واخذ يلحسه بلسانه وظلّ راسخاً كالطود لا يستثير شفقة ولا حناناً ولا شماتة ،

بل يغمض عينيه كما يغمضهما للنوم .

اما في الاخلاقيات فالرواقيون يعتبرون ان الخير الأوحد هو الفضيلة لا سواها . وان العمل الفلاني لا يكون شراً او خيراً بحد ذاته ، بل بالارادة التي نصرفها اليه ، وبتعبير اوضح ان الاعمال بالنيات .

وقد تفرعت على هذا المبدإ نتائج عديدة: اولها ان كل شيء ما عدا الفضيلة لا شأن له ولا اهمية . فاللذة والالم ، والغنى والفقر ، والصحة والمرض ، والحياة والموت ، ليست خيراً ولا شراً بنفسها ، فالشر الوحيد هو الرذيلة . وثانيها ان الفضيلة لا تكون الا مطلقة ، فالاعمال الحسنة تتساوى ، وكذلك السيئات لا درجات فيها ، فمن اخطأ في واحدة اخطأ في الكل ، ومن حاز فضيلة وحيدة نال الفضائل كلها . فترى مما تقدم ان اصحاب هذا المذهب يقفزون من الطرف الى الطرف المقابل. فمن لم يكن حكيماً عاقلاً كان مجنوناً،ومن لم يكن مسرفاً فهو بخيل ، وقد قال الناظم :

بين تبذير وبخل رتبة   وكلا هذين ان زاد قتل

اما هم فقد دللوا على نظريتهم بالمثل الآتي :

ان الغريق غريق سواء غرق على مقربة من شاطىء البحر او في اللجة . وثالثها ان ثواب الفضيلة في الفضيلة نفسها وهي أعلى مراتب الغبطة ، ومهما طرأ على الحكيم يظل سعيداً ، فهو سيد نفسه ،وثروته عقله ،وانها لثروة لا تنالها ايدي اللصوص . اجل ولكن ما هي الفضيلة في نظرهم؟

قال زينون : يجب ان يعيش الانسان وفقاً لاحكام الطبيعة ، وبما

ان العقل هو الذي يميز الانسان عما سواه فقد تحتم عليه ان يتصرف بموجب احكام العقل الذي لا ينحصر فينا فقط بل يتعدانا الى الكون بأجمعه ، لذلك وجب علينا السعي في طريق الكمال، والعيش في وفاق واتحاد مع سائر الناس لانهم اخواننا في الانسانية التي تؤلف عائلة كبرى عديدة الافراد ، فلا تقوم الفواصل بين هؤلاء الاخوة ، فيكون العالم كله وطناً واحداً للجميع . ويجب ان نخنق فينا كل الميول لانها مضادة للعقل ، وعن ذلك نجم مبدؤهم المشهور : تحمَّلْ واحرم نفسك .

ولقد طرأ على مذهبهم بعض التعديل باختلاف الزمان . فلقد اجمع أتباعه على السير في هذه الحياة وفقاً للنهج الذي تمليه علينا الطبيعة ولكنهم اختلفوا في تفسير هذا النهج ، فزعم بعضهم ومنهم شيشرون الخطيب الروماني الأشهر ان ذلك يعني تلبية نداء الميول التي تحملنا على الغذاء والرقاد والتناسل ، ثم السعي وراء المعرفة والشهرة ، وان نقوم بواجباتنا الاجتماعية وكل ما يتصل بها من رقي في سلم المعرفة . فيكون الناس فئتين الفئة العادية وهي التي تبلغ ما يتيسر لها ، والفئة الممتازة التي تعمل لا للنفع الشخصي العادي بل للفضيلة في سبيل الانسجام الكوني . وانت ترى ان في هذا التفسير خروجاً على الاصل الذي ينظر الى الخير المطلق او الشر المطلق ، ويرى الاعمال بالنيات ويتساوى لديه الغريق على الشاطىء والغريق في اللجة .

ويرى بعضهم ان الخضوع لحكم الطبيعة طاعة للعقل الذي يملي علينا مسلكنا الخاص ووجوب اتحادنا مع سائر البشر . وان العقل هو كد وجهاد اي قوة ايجابية . وبما ان الميول والشهوات هي قوة سلبية

فعلى العاقل ان يخنقها فيه فلا يبالي بالخوف والألم والرحمة لانها مضادة للحرية ، وعليه ان ينقطع عن اللذة ويتحمل العذاب فيجب ان يبدأ بتقوية الارادة والتمرن على الاحتمال بدون تذمر او شكوى . وهذه النظرية بلغها الرواقيون في دورهم التطوري الثالث ، وفيها ايضاً خروج عن الاصل ورجوع عن التشبث بالجبرية واعتراف بوجود العناية الالهية وخلود النفس. ولقد اوجبت هذه الفئة من الرواقيين، ومنها ابيكتت (Epictète) العظيم —وسنتكلم عنه— على أتباعها ان يتصلبوا ويتحملوا الألم كما يستقبلون اللذة ، فلا يتأثرون بالغضب والحب والحقد حتى ولا بالشفقة لانها ضعف ، ولا يتمنون الأماني التي لا يد لهم في تحقيقها . وليس في مقدور الانسان سوى ارادته يتصرف بها كيف شاء ، اما الخارجة عن مقدورنا فهي الصحة والمرض ، والثروة والفقر ، والرفعة والهوان، وهي اشياء لا اهمية لها، فليس الموت شراً ولا الصحة خيراً. وانما نظرنا اليها بهذا المنظار يجعلها كذلك . قال ابيكتت : لا تعلق سعادتك الا على ما في يدك .

ومن نظر بعين الانصاف الى مذهب الرواقيين رآهم محقين في زعمهم ان الفضيلة خير وان الرذيلة شر ، ولكنهم يغالون في كلا القولين. ومن الخير الا يستسلم الانسان للحس فيكون ضعيفاً مائعاً ، ولكن ليس من الخير ان يعمل على ازالة الحس فينقطع قلبه عن الشفقة ، واين الخير في القسوة . وجدير بالانسان ان يخنق الميول الفاسدة لا ان يلاشي كل ميل فيه . وما الفنون الجميلة الا وليدة الميول ، ولولاها لما كانت موسيقى بتهوفن وباخ ولا روائع رافائيل وليونار دي فنشي (Léonard de Vinci) ولا شعر شكسبير ودانتي ، ولا صوفية ابن الفارض ومحيي الدين ابن عربي

وسواهم من اعلام البشرية في الفن والتصوف والقداسة .

ومما يؤخذ على هذا المذهب عدم ترتيب الدرجات في الخير والشر ، وسكوته عن واجباتنا تجاه القريب واقتصاره على بحث واجباتنا السلبية نحو انفسنا ، وإهمال الايجابية منها وهي الاهم . فهو يقول : لا تفعل كذا ، ولا يقول قبل ذلك افعل كذا . وانت ترى ان القوة هي الركن الاساسي في هذه النظرية الرامية الى تحميل الانسان فوق طاقته ، والصواب في الحكمة العليا القائلة «لا يكلف الله نفساً الا وسعها». ولولا وجود بعض اشخاص نادرين طبقوا احكام الرواقية لحسبناها مستحيلة التنفيذ ، ولصلح فيهم قول السيد المسيح له المجد ، يوم خاطب الفريسيين قائلاً : انكم تحملون الناس أحمالاً ثقيلة وانتم لا تمدون اليها يداً .

ولا نكير ان لهذا المذهب فضله الكبير ؟ اذ نشأ في حضن الوثنية فكان موئل النفوس الكبيرة تفيء اليه في الظلام الدجي فيصونها عن السقوط في حمأة الرذائل ويرفعها الى مكانة اخلاقية . وان لم يوصلها الى الذروة ، وكان المعجبون بهذا المذهب اكثر من اتباعه الحقيقيين لأنه دعا البشر الى التآخي وجاهر بوجوب الغاء العبودية ، وعدم الاتجار بالرقيق. وتلك مأثرة عظمى لا ندرك اهميتها اليوم بعد ان قال الانجيل الطاهر احبوا اعداءكم ، وقال الاسلام لا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى ، وبعد ان ساوى عمر بن الخطاب بين السوقة الفقير وجبلة بن الأيهم .

وانها لمأثرة كبرى للرواقيين يوم كانت الدنيا تغص بالعبيد ، وسنذكر في الحديث المقبل علمين من اعلام الرواقية هما : مرقس اوريلوس (Marc-Aurèle) الامبراطور الفيلسوف ، والفيلسوف العبد ابيكتت ، فيلتقي القطبان .

مرقس أوريليس أو الامبراطور الفيلسوف

(MARC - AURÈLE)

لا يعظ الناس مثل رجل عظيم يكون هو نفسه مثلاً حياً للأخلاق الكبيرة فيعمل بما يقول ، او يعمل بدون ان يقول . ولا فضل للزاهد اذا كان مملقاً فقيراً بل الفضل للمثري الكبير اذا كان زاهداً . كما انه لا فضل للسبع اذا كفّ عن تمزيق ضحاياه لانه منزوع الأنياب والاظافر . والرجل الذي نتحدث عنه الآن كان امبراطوراً وحسبه ان يشاء لتنقاد اليه الرغبات ولكنه لم يرغب الا في الخير .

ولد الرجل في الربع الاول من القرن الثاني للميلاد وكان اندلسي الأصل ، شهد النور في روما ، وكان ابوه رمزاً للقوة والخلق القويم وقد توفي وابنه لم يخرج عن الصبوة بعد . أما والدته ليسيليا فكانت من اتقى النساء وافضلهن، فهي لم تقتصر على الارتداع عن الشر بل لم يقف خاطرها على فكرة شريرة مطلقاً — على ما يزعم المؤرخون — وكلا الابوين وثني من نبلاء ذلك الزمان . وكانت الام مضطلعة بآداب عصرها ؛ وحرصاً على صحة ولدها الضعيف البنية ، وتلافياً لما قد يجره عليه الاختلاط بالتلامذة من عدوى اخلاقية فقد اختارت له الاساتذة يعلمونه في البيت . وبرزت في الولد اعظم صفاته منذ صغره ، فبدت عليه الرصانة والصدق والميل الى الفلسفة وظل هذا الميل ينمو بنمو اجتهاده . ومنذ بلوغه الثانية عشرة من سنيه اظهر ميله الى الرواقية

ورغب في التقشف ، فحاول ان ينام على الارض ، ولكنه نزولاً على رغبة امه رضي ان ينام على جلود الحيوانات . ولم يثنه اطلاعه الواسع على اللغة والتمرس بالفنون الجميلة عن ميله الفطري الى الفلسفة . ومن دواعي الفخر ان يكون احد اساتذته لبنانيـاً الا وهو مكسيموس الصوري،غير ان ابرز اساتذته الذين لقنوه علم الخطابة هو كورنيليوس فرونتون (Fronton) . واننا نكتفي بمقطع من كتاب بعث به الى استاذه ، وهو ينمّ عن قدره لمعلمه ، وعن تواضعه وميـله الى الفلسفة الرواقية والخير. قال الامبراطور : « ان في رجوعك يا استاذي عذابي ونعيمي معاً ، اما نعيمي فلا تسلني عن سببه ، واما عـذابي فلأنك عهدت الي بموضوع اعالجه ولم امسه حتى الآن ، ولم يكن ضيق الوقت سبباً في ذلك ، بل ثناني عنه انعـكافي على مؤلف اريستون (وهو فيلسوف رواقي) . وهذا الكتاب يهديني الى طريق الخير والفضيلة ، واراني بعيداً جداً عن اقطاب الفضيلة الخيّرين فتأمل كيف يحمر وجه تلميذك خجلاً لانه بلغ الخامسة والعشرين من سنيه ، ولم يزدن بعد بهذه الحلى النفيسة ، لذلك تراني اعاقب نفسي فأثور وانقطع عن الطعام».

وقد تزوج فتاة صالحة هي فوستين بنت الامبراطورة . ورزق اولاداً مات اكثرهم في الطفولة . وعندما تسنم العرش الروماني لم يبدل الرجل شيئاً مـن تواضعه واخلاقه الملائكية بـل اضطلع بمهام الامبراطورية الواسعة الاطراف لا يمل ولا يهمل برغم النكبات التي المت بها من طوفان واوبئة وحروب متواصلة لم يكن فيها الا مدافعاً . وكانت هذه الحروب تقتضي نفقات ابى ان يرهق بها كاهل الرعية فعمد

الى فرش قصره والمجوهرات الخاصة به وبالامبراطورة فباعها بالمزاد العلني وتمادى البيع مدة شهرين بالنظر لكثرتها . ثم ارتدى الثوب العسكري وراح يقاسي مع جنوده ما يقاسيه آخر جندي من البرد والتعب والحرمان. ويذكر المؤرخون معجزة وقعت في احدى المعارك ملخصها : ان جنوده اجهدهم العطش وكادوا يهلكون ، فجادتهم السماء بمطر منعش فاستقوا . اما اعداؤه فقد امطرتهم السماء برداً وصواعق مزقتهم فانهزموا شر هزيمة . وقد نسب بعضهم هذه المعجزة الى رقى السحرة وهذا طبعاً من قبيل الخرافة، وعزاها بعضهم الى وجود بعض اتقياء المسيحيين في جيشه ، ولكنني اجرؤ على القول بانه اذا كانت ثمة اعجوبة فقد وقعت من اجل الامبراطور الصالح ، لان الفضيلة لا تتقيد بدين او مذهب ، وقد يكون غاندي على وثنيته قديساً عظيماً .

وقد خانه أحد قواده كاليوس وكان حاكماً على سوريا فأشاع موت الامبراطور اذ علم انه مريض، ونادى بنفسه امبراطوراً . فعزم مرقس على المجيء الى سوريا ليفاوض القائد الخائن قائلاً : اني ساتنازل عن العرش بدون اراقة دم جندي واحد اذا رأى مجلس الشيوخ أن خصمي أفضل مني لمصلحة الامبراطورية . وعلم الجند بكذب القائد فوثبوا عليه فقتلوه . واحتز أحد الضباط رأسه وجاء به الامبراطور فبكى ، وصرف وجهه عن هذا المشهد قائلاً : لماذا حرمتموني من لذة الغفران لعقوق كنت أبغي اكتساب صداقته من جديد .

أما وقد حرم هذه اللذة فهو يصفح عن جميع الخونة الذي تواطؤوا عليه مع القائد القتيل.وكان الامبراطور يستقبل بالهتاف والفرح ، ولم

يستطع اليهود فهم الجميل ، فظلوا عصاة مارقين ، فاكتفى الامبراطور أن هتف : آه يا مرقس اوريلس ستتألم كثيراً لان بعض الناس لا يفهم جودتك . وقد ماتت الامبراطورة التي كانت ترافق زوجها في حروبه فتكون بمثابة أم للجنود المرضى حتى لقبت بأم المعسكر . فحزن عليها زوجها ودفنها دفناً لائقاً بمنزلتها . وكانت وفاتها في خريف سنة ١٧٦ بينما كانت عائدة مع الامبراطور الى مقر الملك . وقد ولدت هذه الزوجة الصالحة ثلاثة عشر ولداً وظلت طول حياتها مثالاً أعلى للتواضع والخير ، وقد أقام الزوج هيكلاً بجانب قبرها عهد بحراسته الى الكهنة . وبلغ الامبراطور في طريقه أثينا مدينة النور ، وكعبة الفكر في العالم القديم ، فلم يغفل عن تشجيع العلم ، وكيف يغفل وهو العالم الفيلسوف والمحسن الخيّر . فأعطى الهبات السخية لعلماء أثينا ، وأجرى على اساتذة الفصاحة والفلسفة مرتبات سنوية يقبضونها من بيت المال ، بصرف النظر عن المذاهب والآراء ، فقد أعطى كل المدارس مثلما وهب مدرسة الرواقيين التي تمذهب بمذهبها ، وشملت هباته أيضاً مدرسة الابيقوريين خصوم الرواقيين الالداء . ذلك ان النفوس الكبيرة لا تميز في الخير بين ملة واخرى ، عاملة بالحكمة القائلة : « الخلق كلهم عيال الله ، واحبهم اليه أنفعهم لعياله » .

ان مرور الامبراطور بأثينا ايقظ في نفسه رغبة جديدة في الانعكاف على مناهل الحكمة . ولكن هذا التقشف العميق لم يصرفه عن ادارة الامبراطورية الكبرى كما يدير الاب الشفيق عائلته معتبراً كل فرد من رعيته ابناً ، وكل انسان على وجه البسيطة اخاً . وقد رأى

تخليداً لذكرى الامبراطورة الفقيدة ان يقوم بعمل يماثل الاعمال التي كانت تمارسها في حياتها . فانشأ في روما مؤسسة خيرية تقوم على تربية وتهذيب خمسة آلاف من بنات الفقراء . ثم اسقط عن كاهـل الطبقة الوسطى من الشعب جميع البواقي من الضرائب العائـدة لبيت المال ، واحرق في الساحة العامة كل السجلات المدونة فيها تلك الديون . وكان يعامل الناس على اساس الكفاءة والجدارة الشخصية ، لا على اساس النسب والمركز الاجتماعي. ومن سجاياه ايضاً ميله الى السلام ، فلم يعمد الى حرب الا بعد استنفاد كل وسائل السلم فاذا لم يُجدِه اللين شيئاً قام الى الحرب اشجع ما يكون البطل الجريء ، مضحياً بنفسه في سبيل الوطن ، وقد مات في ساحـة الحرب غير قتيل . وملخص ذلك ان البرابرة الجرمانيين هاجموه هجومـاً عنيفاً فاضطر للمجيء بنفسه الى ساحة القتال مصطحباً ابنه ولي عهده . وجعل مقره العام على شاطىء نهر الساڤ (Save) حيث تقوم مدينة ڤينا اليوم وكان ذلك في اواخر شتاء سنة ١٨٠ للميلاد . واصيب الامبراطور بداء الطاعون الذي كان يجرف المئات من معسكره كل يوم . فايقن بدنو اجـله فجمع اركان حربه واوصاهم بابنه قائلاً : « فليكن بمثابة اولادكم فيلقى بعد فقدي اباً في كل منكم » فأثرت كلماته تأثيراً عظيماً في اولئك الجنود الذين لا يعرفون الدمع الا في عيون غيرهم من الناس ، فانهمرت عيونهم بالدمع . فقال لهم : « لمـاذا تبكون ، اني اسبقكم جميعاً الى حيث نلتقي » . وقبيل وفاته استدعى ولي عهده واوصاه بالجهاد في سبيل روما وكان الوداع مختصراً ، لان المحتضر اختصره خوفاً من تسرب العدوى الى

ولده . وسمعه المحيطون به في الساعة الاخيرة يقول : تبـاً للحرب واهوالها فالويل لمثيرها . وجـاءه في المساء امين سره يتلقى اوامره فاجابه : اذهب الى الامبراطور -- يريد بذلك ولي عهده-- فانه الشمس الطالعة اما انا فقد أوشكت على الغروب . ثم غطى رأسه كما يغطيه النـائم واسلم الروح في ليل ٩ نيسان ، وشهد ذلك الليـل موت الامبراطور الفيلسوف الذي عاش قديساً ومـات بطـلاً في قلب معسكره ، وترك للفكر ثروة رائعة هي مجموعة خواطره التي يسمونها الفِـكر (Mes pensées à moi-même) . وهي صفحات مشرقـة تتجلى فيها تلك النفس التي وان هبطت من العالم السماوي الى الارض ، فقد ظل معظمها في الاجواء العلى ، يسطع عدلاً ومحبة .

كان الامبراطور يجلس للقضاء محوطاً بالمستشارين الحكماء ، ينزل على رأيهم السديد ، ويدافع عن حقوق الفقراء والعبيد . وقد لامـه بعض المؤرخين اذ لم يرفع الحيف عن المسيحيين المضطهدين في ذلك العهد ، ولكن المنصفين منهم ينسبون هذه المظالم الى عمّاله المنتشرين في أقطار الارض،حين كان الرجل مشغولاً بالحروب الدفاعية. ويعترف مؤرخو المسيحيين أنفسهم بأنه كان فريد عصره ، وفي الاطـلاع على خواطره أصدق دليل .

ولقد دونت هذه الخواطر في أوقات مختلفة كان يختلسها اختلاساً من خلال الأعمال المرهقة اذ لم يهادنه الزمن لان الحروب التي نامت زمناً طويلاً في عهد أسلافه استيقظت في عهده ونمت بذورها قبل أن يتولى العرش،فشغلت الثورات معظم أيام حكمه. والمذكرات نتيجة الاختبار

والتأمل العميق . وهو لم يدونها ليذيعها على الناس ، بل كتبها لذاته ، اذ كان ينطوي على نفسه كل يوم فيحاسبها حساباً دقيقاً فيقوم بمهمة المدعي والمدعى عليه والقاضي في آن واحد ، ولا رقيب عليه الا الله . والوجدان النقي يحاسب صاحبه على أصغر الهفوات ، ذلك ان النفوس الطاهرة ترى الهفوة حيث لا تراها النفوس العادية ، كما ان نقطة الحبر الاسود تظهر في الثوب الابيض ولو صغيرة . وتراه يسرد خواطره بكل بساطة فتنعكس عليها نفسه كالمرآة لا كدر فيها ولا شوائب .

كان مرقس اوريلس رواقياً ، والرواقية تدين بالحلولية فتعتبر العالم كله مظاهر عديدة للنفس الكلية العاقلة التي تسيّر الكون ، وتنظر الى المرء كقبس من هذا الكوكب العظيم فتضن بهذا القبس أن يتلوث بالادران اذ تريده نقياً كمصدره. ولم يضف الرجل الى مذهب الرواقيين مذهباً جديداً ولكنه خلع عليه رداء بهياً بما أضفى من شعوره الخاص. ولنا في ذلك الدليل الاكبر على أهمية تطبيق النظريات وتأثيرها على العمليات ، فقد يكون القانون أرفع ما يكون حكمة وسداداً ، ويتولى تطبيقه فظ غليظ فيسيء الى المجموع والى القانون نفسه . ألا ترى ان الزنبور (الدبور) والنحلة يمران كلاهما بالزهرة فتستحيل سماً في ابرته وعسلاً في فمها ؟

ومما لا ريب فيه ان مارك اوريل الامبراطور الفيلسوف من ألمع الشخصيات التاريخية العالمية أخلاقاً وعلماً وصلاحاً ، فاذا جاز اطلاق لقب قديس على الذين بلغوا الذروة في سلم الكمال الانساني فانه حري بهذا النعت ولو كره المتعصبون .

بقي ان نختم كلمتنا في الرواقية بالتحدث عن ابيكتت (Epictète) الفيلسوف العبد الفقير .

ولد الرجل في منتصف القرن الاول للميلاد في فريجيا (Phrygia) من ابوين عريقين في العبودية ، فورث ذلهما مدى سنوات طوال قضاها ذليلاً في خدمة سيده ابيفروديت (Epaphrodite) .

وقد كان سيد هذا عبداً لنيرون الامبراطور الظالم ، فأعتقه الامبراطور من العبودية ولكنه لم يعتق اخلاقه مما اعتلق بها من القذر ، ومما انطبع فيها من صور المظالم . وبدلاً من ان يتعظ الرجل فيعامل ابيكتت بالحسنى وهو لم ينس بعد مرارة الهوان ازداد تشدداً وقسوة. ولا يسعنا المرور بهذه الظاهرة الخلقية ، قبل ان نعلق عليها ملاحظة نراها تتكرر في كل زمان وقد اختصرها الامام الاعظم علي ابن ابي طالب (ع) بقوله : « احذروا صولة الكريم اذا جاع واللئيم اذا شبع » . ومن اسطع الادلة على صحة هذه النظرية ، مظالم احمد باشا الجزار والي عكا وحاكم هذه البلاد ايضاً في اواسط القرن التاسع عشر ، فلقد كان عبداً . وكذلك القول في كافور الاخشيدي والكوافير من حديثي النعمة المترفين. ولكن اشبه الحالات بحالة ابيكتت مع سيده ، ما تراه بين الرؤساء والمرؤوسين في صفوف القوات التنفيذية ، فانك تجد جندياً متذمراً مما يلقى من جور رؤسائه ، ثم لا يلبث ان يتدرج في المراتب فيصبح رئيساً ، ويصير آية في الظلم والاستبداد فكأنه يحاول ان يستوفي من مرؤوسيه ما لحق به من الجور، ولكنه لا يستوفي

فقط رأس المال بل الفائدة المركبة ايضاً . وهذا ما فعله ايبفروديت (Epaphrodite) بعبده .

قسا القدر على ابيكتت فمني بالعرج منذ الطفولة وكأن هذه العاهة مضافة الى خشونة معلمه لم تكن بالكافية لابتلائه فحاول المعلم الوحش ان يلهو بتعذيب عبده فلفّ ساقه بآلة ضاغطة وشدد النكير ليرى ما يكون من امر الضحية فنظر اليه المسكين باسماً يقول : سترى انها تنكسر . وقد انكسرت الساق فعلاً فنظر الفيلسوف اليه وقال بكل بساطة : الم اقل لك انها تنكسر ، ولم يزد . هذه الحادثة وامثالها تدلك على مقدرة الرواقيين على الاحتمال ، وعلى الدرجة الرفيعة التي بلغوها في عالم الصبر .

ان شهداء الاديان المنزلة تحملوا مثل هذه المشقات واكثر منها ، ولكنهم فعلوا ذلك تلبية لنداء الايمان او طمعاً بنعيم الآخرة ، اما الرواقيون فقد فعلوا عملاً بمذهب فلسفي لا يرتكز على الوحي بل على رأي العقل .

وقد فعلت صلابة ابيكتت ونفسه الكبيرة المتجلدة فعلها في نفس معلمه ، فان نقطة الماء على رخاوتها تفعل في الحجر الصلد فتفتح فيه الأخاديد . فقد سمح لعبده أن يحضر مجالس الطلبة الرواقيين فتلقن الدروس ينهلها نهلاً حتى اذا انعتق من ربقة العبودية أصبح أستاذاً للفلسفة الرواقية .

وكان يعيش في كوخ حقير لم يضطر الى اغلاق بابه خوفاً عليه من اللصوص . وتقاطرت اليه التلاميذ من كل صوب مأخوذين بخلقه العالي

وفصاحته البسيطة الخالية من التكلف والتعقيد يشيع فيها التواضع العميق. وقد بلغت الحماسة من بعض أتباعه أن اشترى السراج الفخاري الذي كان يستضيء به الفيلسوف بمبلغ يساوي في عملتنا الرائجة اليوم ثلاثة آلاف ليرة لبنانية أو خمساية دينار أو ألف دولار تقريباً .

وقد جرى الاستاذ في تعليمه على طريقة سقراط في الاستجواب وتضييق الحلقة على الخصم أثناء الجدل ، ولم يكن يتورع عن استعمال التعابير العامية أحياناً ولكنها تعابير تلفت النظر فتخرج حامية كما حُبل بها في دماغ الفيلسوف ، فلا تضيع نضارتها في التعاريج والتصنع الذي يلجأ اليه المفتنّون ، فصرف همه الى بث الفكرة الرواقية ودعم مذهبها عملياً. ولم يدون شيئاً من تعاليمه ولكن أحد تلاميذه فلافيوس (Flavius) دوّن بعض خاطرات استاذه ، كما سجل أفلاطون آراء سقراط ، ولم يبق الى عصرنا الحاضر من هذه المفكرات سوى بعضها . وقد جمعت في مؤلف صغير اسمه كتاب ابيكتت .

ولم يكن هذا الكتاب مهوى افئدة الوثنيين وحدهم ، بل أفئدة المسيحيين أيضاً حتى اصبح دستور الزهاد الناسكين منهم ، وقد ترجم الى لغات عديدة واكثر من تأثر به في العصور الاخيرة المفكر الكبير باسكال .

وان هذا التراث لمن أقوى وأنفس ما وصل الينا من الفكر اليوناني . ومن اطلع على خاطراته رأى نفساً جبارة في جسم هزيل ، في حصن رفيع لا تنال منه يد الزمان ، لانه يستقبل الارزاء هازئاً ،

وانها لتزل عن قننه كما يتزحلق الثلج عن الرعان الشوامخ . فالرجـل يرى حسناً كل ما يقع في هذا الكون من خير وشر ، لان هناك حكمة عليا توجه الامور في طريق نجهلها ، ويتعذر علينا ادراك الغـاية التي تستهدفها . لذلك تراه يعيش في جو يستشعر فيه السعادة ، مهما تفاقمت الخطوب ، من فقر الى مرض وعاهات جسمية . وهو يريد ان تسري هـذه العدوى الخلقية النبيلة الى سواه من الناس ، ولكن الاشخاص الذين من هذه الجبلة اندر ما يكون ، لان الطريق وعر والمجال يشق بل يستحيل على غير الجبابرة الذين اعدتهم العناية للشؤون الكبيرة ، فانهم يجوزون اللهيب ولا يحترقون .

نفسية الجماهير

بساطة الجماهير

يروى عن احد وجوه اللبنانيين انه كان عائداً من فرنسا فمرّ بدائرة جوازات السفر في مرسيليا فابرز اوراق هويتـه . وكان في المكتب موظفان فلحظ احدهما ان صاحبنا اللبناني من طائفة الروم الكاثوليك (Grec - Cathoolique) فاظهر الموظف عجبه من ذلك وقال للمسافر : كيف تنتمى للروم والكاثوليك في وقت واحد ، فاما ان تكون (Grec) واما ان تكون (Catholique) . وعبثاً حـاول صاحبنا اللبناني افهامه ان لا تناقض في الامر فلم يفلح . واخذ الموظف جواز السفر ودفعه الى رفيقه قائلاً : اعتبره مارونياً فهذا اسهل . وتدلك نفسية هذا الموظف على عقلية الجماهير وبساطتها فهي لا تستطيع احتضان فكرتين في وقت واحد ، بل هي تتفهم فكرة واحدة على الاكـثر . فاذا هي تصورت بطـلاً مثلاً فانهـا تخلع عليه كل الصفات المتعلقـة بالبطولة . وعبثاً تحاول افهامها ان الانسان مجموعة متناقضات وقـد يعتريه خور في العزيمة لسبب ما . ذلك لانها تنفر من الصعوبة وتصرف فكرها الى هدف واحد لا تنظر الى سواه . وهي من هذه الجهة تشابه الانسان الفرد ، ينفي من ذاكرته كل النوافل التي لا علاقة لها بنفعه . فقد تمر به ، في اليوم الواحد ، عشرون حادثة لا يأبه الا لواحدة منها وهي التي يحسبها مفيدة له عملياً .

ولا تستطيع الجماهير ان تفهم ان الشاعر يستطيع ان يكون فيلسوفاً

او رياضياً . فهي تريد ان تنعته نعتاً واحداً فهو اما الشاعر واما الرياضي وهذه نظرة خاطئة. فان طاغور الشاعر الهندي الاكبر جادل العالم الرياضي انشتين في الرياضيات ويقال انه جدله . وان افلاطون هو فيلسوف واديب معاً. وكذلك القول في برغسون فهو فيلسوف واديب ايضاً . وقد ورد في قصة حرب البسوس ان بطلاً اسمه الفنْد – وهو في الحقيقة ابو بجير الذي قتل المهلهل ابنه بجيراً – أسر المهلهل وجزّ ناصيته واطلقه ولكن احد سامعي القصة غضب غضباً شديداً واتهم المؤلف بالتزوير زاعماً انه لا يستطيع احد ان يأسر المهلهل .

ويقع حادث في بلد ما ويكون لهذا الحادث عشرات الاسباب ولكن العامة لا تنسبه الا الى سبب واحد . فلو حدّثت احد اللبنانيين العاديين عن الازمة الاقتصادية وغلاء المعيشة–ومعلوم ان لذلك عشرات الاسباب التي لا يحيط بها إلّا العارفون بالاقتصاد السياسي – لأجابك فوراً ان الذنب ذنب الحكومة . فقد وحّد الاسباب جميعاً وصهرها في عامل واحد . ويذكرنا هذا بالنادرة التي ملخصها ان مواطنَين اجتمعا في دار غربة وكان احدهما يتأهب للعودة الى موطنه فسأل الآخر عما يوصي به الى اهله فقال له : ابلغهم اني مصاب بارتخاء في المفاصل وبطء في الكبد وضعف في المعدة ورمد في العينين . فقاطعه الآخر وقال له : حسبك سأقول لهم انه مات والسلام .

ولو حاول خطيب ان يقف في جماعة مثلاً ويذكر لهم حسنات مرشح سياسي وسيئاته وهو يبغي في نتيجة كلامه معارضة هذا الشخص ولكنه ينصفه فيذكر له بعض الصفات، لقاطعه حزبه بالصفير

وربما بالشتائم لان الجماعة لا تستطيع ان ترى في خصمها سوى سيئاته ولا ترى له حسنة واحدة . وذلك اسهل عليها واقرب تناولاً فهي لا تقوى على التحليل والدقة ، ويعميها الغرض فلا ترى الا ما تريد ان تراه ، وتختصر الطريق ، وتكره البحث المجدي والاطلاع العميق ، لذلك يلاقي المجددون صعوبات كثيرة في طريقهم اذ يخرجون على المألوف الذي جرت عليه العامة بحكم العادة والتقليد . وعندما اكتشف الفونوغراف تعوذ منه الكثيرون ظناً منهم بان الشيطان هو الذي يتكلم فيه ، اذ استحال عليهم التصديق بأن العلم يستطيع التقاط صوت الانسان وحفظه في صندوق . وانما تختلف درجة البساطة باختلاف الشعوب والاقاليم والثقافة ، ولكن ما قدمناه يصح في الاكثرية .

وعندما تتشعب الآراء في جماعة وتضطرب اضطراباً قوياً ينقسم الجمهور الى جهتين كل واحدة منهما في طريق ، فيصح اذ ذاك القول المأثور : من لم يكن معنا فهو علينا . اما المعتدلون في الجماعات او الحياديون المترددون فقلما يفلحون لان الجمهور تحدوه الحماسة ويحب المتطرفين الذين يختصرون الفكرة ويحملونها الى الشعب موجزة واضحة حامية ، اما التردد والبرودة فلا تجديان نفعاً خصوصاً في هذا العصر وهو عصر السرعة .

والشعب يحب تمثيل الاشياء وتصورها . فكل ما هو في عالم الغيب والمبهمات لا يؤثر فيه ، لذلك تراه يقيم التماثيل ويرسم الصور فترسخ الاشياء في ذهنه كما ترسخ في الرخام. وهذا هو اساس المسرح والتمثيل. والفرق عظيم بين رواية تقرأها في كتاب او تشهد تمثيلها اذ تشاطر

الممثلين عواطفهم . ومع علمك بأنها رواية مختلقة فانها تسيل مدامعك او تثير فيك الحماسة وما شابه ذلك من المشاعر . وقد يحدثك محدث عن العمليات الجراحية فلا تضطرب ولا تتأثر ولكنك لو شهدت بعينك عملية جراحية كبرى لتأثرت وربما سقطت في اغماء طويل . واذكر اننا كنا تلامذة احداثاً في احدى المدارس فدخلنا الكنيسة يوم العيد وكان بين الصور صورة تمثل جهنم والشياطين ، فبات اكثرنا يرتعد فرقاً تلك الليلة . فان اعترض معترض ان ذلك يؤثر في عقول الصغار ، رددنا عليه بحادثة وقعت في جنوبي لبنان منذ خمسين سنة تقريباً . وموجزها ان اهل قرية اعتزموا بناء كنيسة في مزرعتهم وكانوا يستجدون اكف المحسنين للقيام بهذا البناء الضخم . فقصدوا احد كبار الوجهاء الملاكين وهو من غير ملتهم فبسطوا له القضية فسألهم : على اسم اي قديس تقيمون الكنيسة ؟ فأجابوه انها ستقام على اسم القديس انطونيوس الناسك . وأروه الصورة فنظر اليها فوجدها تمثل زاهداً كئيباً مقوس الظهر فصرفهم غير راضين . ففكر احدهم ان يأتيه بصورة القديس جرجس فعادوا اليه في الاسبوع التالي واعلموه بأنهم سيقيمون الكنيسة على اسم القديس جرجس. وكان الرجل فارساً مقداماً تستهويه البطولة والشجاعة فما ان رأى رسم القديس جرجس وتحته الجواد منتصباً على رجليه وقد طعن الفارس التنين فأرداه يتشحط في دمه ، حتى خلبه هذا المنظر فصاح : آه يا خضر ، يا راعي الادهم ، لا شلت يمينك . وتبرع للكنيسة بعشرين ليرة ذهباً .

وقد يبلغ حب تجسيد الفكرة والرمز عنها بالمظاهر الخارجية بلغاً

يفوق الحد . لذلك كان يقدم الوثنيون على التضحية بالذبائح متوهمين ان آلهتهم تسر برائحة الشحم واللحم وترتاح اليها كما يرتاحون اليها هم انفسهم . وقد يزول الايمان من النفوس وتظل الرموز والعادات . وأعرف بين المسيحيين عدداً من الملحدين ولكن اكثرهم يرسمون اشارة الصليب عندما يمرون بجانب كنيسة . فاذا كان الفرد يحب الخوارق فالجماعات تقدس الخرافات تقديساً ، وهي الى القصص اميل منها الى التاريخ، واقبال الناس على الروايات شاهد على ذلك . ولاريب ان كتاب الف ليلة وليلة لقي من النجاح ما لم يلقه ديوان المتنبي والبحتري . وقراء القصص البوليسية اليوم يزيدون عشرات الاضعاف عن قراء « سلامبو » لفلوبير (Flaubert) او الاخوان « كارامازوف» لدوستويفسكي او « الانسان ذلك المجهول » للدكتور كاريل .

واذكر اني كنت مصطافاً في احدى القرى الكسروانية سنة ١٩٤٠ فجاء للسلام عليّ وجوه القرية فشكرت لهم هذه المكرمة . فسألني احدهم وهو عضو الاختيارية في قومه هل اعتقد بوجود الجن في بلادنا . فأجبته بالنفي ، فأكد لي ان شاباً من قريته كلف بامرأة من الجن حتى سمي « لحود الجنية ». وكأنه اراد امتحاني في التاريخ فسألني عن سبب تسمية نهر ابراهيم بهذا الاسم فاوضحت له النقطة التاريخية وعلاقة المقدم ابراهيم بالتسمية ، فهزّ رأسه استنكاراً وتابعه الحاضرون على ذلك . فسألته رأيه فقال : ان ابراهيم الخليل عليه السلام كان يعبد الله ، اما اهله فكانوا من عبدة الاصنام وقد اعتزموا قتله لمروقه من دينهم وضربوا لذلك موعداً ،فهرب منهم فاتبعوه فالجأوه الى صخر عظيم فاحدقوا به

ولم يبقَ له مهرب ، فاسند ظهره الى الصخر واستغاث بربّه فانشقت الصخرة وتكشفت عن مغارة هائلة لجـأ اليها سليماً ، وانبجس الماء سيلاً جارفاً فحمل اعداءه الى البحر. والمغارة هي مغارة «افقا» وسمي النهر من اجل ذلك « نهر ابراهيم » . ويدلك هذا على ان الجماهير تصدق بسرعة ما يوافق ميولها ، وتأبى تصديق ما يخالف رغباتها . وقـد يموت زعيم كبير او قائد خطير فترى الجماهير تتردد كثيراً في تصديق الخبر لانها تضن بهذا الرجل الكبير على الموت ، واذا صدقت بموته بعد لأي ومشادة فقد تبقى مدة منتظرة عودته الى الحياة . هـذه هي الجماهير وهذه هي بساطتها .

كيفيّة استهواءِ الجماهيرْ

ان عقلية الجماهير تكون على الغالب بسيطة وثـّابة ، بعيدة عن روح النقد والتحليل ، لا عمق فيها ولا روّية . فاذا لاح للجماعات ما يوافق ميولها واذواقها مشت بدون ما تبصّر لانها تؤخذ بالكلام البـراق وزخرف القول. وهي لا تستطيع التجريد بل تميل الى الواقع البيّن ، وتعجبها الحكايات والنوادر ، وهي الطريقة المثلى لاجتذابها . واذكر ان معلم مدرسة حاول ان يفهم تلامذته الاحداث الفرق بين الافعـال الجامدة والمشتقة فتعذر عليه ذلك ، فضرب لهم مثلاً على الافعال الجامدة الديك ، وعلى المشتقة الدجاجة وافراخها ، فلما سألهم يوم الامتحان عن كيفية التمييز بينها ، اجابوه بمَثـَل الديك والدجاجة .

ولا ريب ان كتاب كليلة ودمنة بلغ من الشهرة حـداً بعيداً لا من اجل واضعه بيدبا الفيلسوف او معربه العبقري عبدالله بن المقفع ، بل لان فيه حكاية الاسد والثور ومحاورات تدور على ألسنة الحيوانات . وكذلك القول في حكايات لافونتين ، وهي حكايات ملؤها حكمة الاجيال وفلسفة الدهور ، ولكنها حكمة لا تدركها الا الخاصة ، اما العامـة فتؤخذ بالواقعات والحوادث . ومن يجهل حكاية الذئب مـع الخروف ومغزاها استبداد القوي بالضعيف وسطوة القوة الغاشمة بالحق .

ولا ريب ان بول فاليري (Valéry) هو من اعظم شعراء اوروبا

اليوم ولكن العامة لا تعرف منه الا اسمه. ذلك لان معظم شعره خالٍ من الرواية الواضحة وتبسيط المعنى. والجماهير تستهويها البساطة وتنفر من الصعوبة وكدّ الخاطر ، وذلك امر طبيعي لان النزول اسهل من الصعود . وحسب قادة الجماعات ان يدركوا الوتر الحساس فيها لتأتمر بامرهم ، وتنهج نهجهم حتى في حياتهم الخاصة . وتراهم يعمدون الى العبارات الواضحة التي يفهمها الاطفال والشيوخ على السواء ، لان عقل الجمهور كعقل الطفل . وقلما تشذ الجماعات عن ذلك الا اذا كانت قليلة الافراد، وقد اخذ افرادها بقسط من الثقافة كجماعة الاطباء والمحامين مثلاً .

وكثيراً ما يستعمل الزعماء العبارات التي يتناولها الفهم بسرعة وترسخ في الاذهان اذا كرّرت، وقد لجأ الخطباء الى مثل هذه الاساليب في خطبهم . ويشترط في مثل هذه الحالات ان تكرر الجمل الجاهزة بحماسة واندفاع لان العدوى لا تسري الى الجماعة الا اذا كان المتكلم سليط اللسان، ناريّ الإلقاء. وان الخطيب هو مصدر السيال الكهربائي الذي يفيض على الجماهير ، فاذا كان بارداً متثاقلاً تعذر عليه نقله الى غيره فيصبح كالمطرب الذي يغني خلواً من الاحساس، او الواعظ الذي يشك في ما يقول .

وقد تنبه التجار لهذه الشؤون، فهم يعلنون عن بضائعهم بالكلمات الجذابة ويكثرون من الاعلانات . واذكر انني منذ سنين كنت ارى اعلاناً عن سيارات فورد وقد كتب بحروف كبيرة ونصه: اشتر فورد تربح ذهب . فعبارة تربح ذهب مما يلفت النظر . وكانت الصيدليات

في بيروت تعلن عن حبوب ركّبها الدكتور روس وتدعى حبوب الحياة للدكتور روس فلا تكاد تدور في منعطف طريق الا وترى على الجدران اعلاناً عن هذه الحبوب. وهي في الحقيقة مسهّل خفيف ولكن لفظة الحياة في الاعلان تغري الزبائن وتحملهم على الشراء لان الحياة عزيزة على المرء .

ومن الاسماء ما يثير في الخاطر سلسلة من الذكريات والصور بحكم تداعي الافكار . مثال ذلك ان يذكر امامك الأرز مثلاً فيتبادر الى ذهنك منظر الثلج ورؤوس الجبال العليقة بالسحاب . وترى بعض مصانع العطور في فرنسا تسمي عطرها مساء باريس (Soir de Paris) ، وهي تسمية تثير في خاطرك ما شهدته في باريس او ما سمعته عن لياليها الحافلة بالمسرات . وان دهاقين السياسة في البلاد الديمقراطية يمهدون لانتخابهم بمنهاج جريء وغامض معاً اذ ينادون بالاصلاح والمشاريع العمرانية والاقتصاد واحقاق الحق واقامة العدل والعمل على رفاهية الشعب ولكنهم يُجملون ولا يفصّلون ، فيرى كل واحد من ناخبيهم امانيه مبسوطة في هذا المنهاج ، ولو دخل المرشح في التفاصيل لفسدت الخطة وثار الخلاف .

وعلى ذكر التفصيل اذكر نادرة جرت في احدى المحاكم الصلحية من زمن بعيد ومؤداها ان شخصين تنازعا على مياه السقاية المتاخمة ارضهما، فادعى احدهما ان له فيها سبعة امتار ولجاره ثلاثة، وزعم المدعى عليه ان العشرة امتار هي مناصفة لكل منهما خمسة . وحاول الحاكم ان يفصل بينهما فتعذر عليه ذلك وكان على جانب من الغباوة ، فاجبرهما على المصالحة اذ سأل المدعي هل يطلب اكثر من حقه، فاجابه لا ابغي

سوى حقي وبمثل ذلك اجاب المدعى عليه ، فأمر الحاكم كاتبه ان يدوّن اتفاقهما. وكان الامر شتاء فلما جاء الصيف عاد الجاران الى السقاية فعادا حتماً الى النزاع .

لذلك كان السياسيون يغدقون المواعيد جملة وهم يدركون موطن الضعف في الناخبين ، فاذا جاؤوا قفراً يحتاج الى الري وعدوا اهله بالري والخصب ، او دخلوا منطقة عسيرة المواصلات وعدوا اهلها بالطرقات المعبدة ، فاذا لم يكن هذا ولا ذاك فهم يعدون اصحابهم بالوظائف ، وهذا اطيب الوعود واشهى الاحلام .

وان بعض المرشحين يضعون في مناهجهم ما يرضي الاحزاب المختلفة على تعددها لانهم يطمعون في استمالتها جميعاً . وتذكرني هذه القصة في السياسة بسلوك بعض الشعراء الذين يلقون قصائدهم في الحفلات فاذا اعياهم الفن وندّ عنهم الخيال المجنح عمدوا الى استمالة الجمهور بشيء من البهلوانية اللفظية فاقحموا في ابيات القصيدة كلمة توراة وانجيل وقرآن داعين الى المؤآخاة فلا يلبث الجمهور ان يصفق لهم ، وعلى الاخص اذا جاءت هذه الالفاظ في القوافي .

اما وعود السياسيين فكثيراً ما تكون سحابة صيف ولكنها تنفع اصحابها وبخاصة اذا كان الشعب متذمراً من حالته الحاضرة ، لان الامة لا ترى الامور على ضوء الحقيقة وعلى ما هو الواقع بل كما تتمناها ان تكون . وهي تنتظر وقوع الاعجوبة على يد زعمائها ، وقد يكون الزعماء مخلصين يريدون الخير والفلاح لأمتهم ولكنهم لا يستطيعون

المستحيل ولا يقدرون على اختراع الذهب وبث الرفاهية في الشعب وتوظيف ابنائه جميعاً .

ويتوجه السياسيون الى قلوب الناس وميولهم ، فتارة ينذرونهم بان البلاد في خطر وطوراً يعللونهم بالأمل الخصيب . فتراهم يرجفون ويتخرصون اذ يبثون في الجماعات مثل هذه العبارات: البلاد في خطر ، الوطن مهدد ، وانهم هم المنقذون فلا يرجى الاصلاح الا عن يدهم ، ولا تستقيم الامور الا بهم . وتستمال الطبقة الفقيرة من الشعب على الاخص بوعدها باليسر والرخاء ، وبتعداد مظالم الاغنياء ، وتبيين بطرهم وعتوّهم وما يلقاه الفقير الذي لا يأكل اللقمة الا مغموسة بعرق الجبين . ثم يقال لهم ان مطامعهم وميولهم انما هي حقوق مقدسة يجب ان يبلغوها باسم الانصاف والعدل . وان هذه المواعيد تلاقي جوّاً رحيباً في صدور المتحمسين المدفوعين بعوامل الحسد والرغبة في الانتقام ، حتى ان الثائرين انفسهم والمصطادين في الماء العكر يتغنون باحقاق الحق ، ويتلبسون بلباس الفضيلة ، ويبدون رغبتهم في توطيد النظام ، وهم الذين يعملون في الخفاء على تهديم الأمن وخنق الفضيلة . وكثيراً ما تجوز الحيلة على الجماعات الجاهلة فيسيرون كالآلات الجامدة بين ايدي الهدامين حتى يبلغوهم مآربهم .

ولنا في الثورة الفرنسية اسطع الادلة على ذلك . ومتى هاج الشعب اصبح في حالة مماثلة لحالة الجنون ، فهو كالنار تجتاح الاخضر واليابس ، وقد تجتاح مضرمها ايضاً لان اشعالها اسهل من اطفائها .

ومعلوم ان خطيب الثورة الفرنسية ميرابو لم يرد ان يبلغ بالثورة

الحد الذي بلغته ، بل كان يبغي الاصلاح فقط ولكن الامر خرج عن طاقته . وعندما يبلغ هؤلاء الذين نادوا بالحق والانصاف مراتب الحكم فانهم كثيراً ما ينقلبون ويصبحون في عداد الطغاة . وذلك كان شأن دانتون وروبيسبيار وسواهم من قواد الثورة الفرنسية . وتعود ساسة الجماهير ان لا يقفوا في وجه الغوغاء في طغيانها وهيجانها لان وقوفهم هذا كتعرض الاحمق للسيل الجارف . فان القواد يلجأون في مثل هذه الحالة الى صرف الجماعات عن الفكرة التي تلهيهم بتوجيههم في سبيل آخر ، كأن تلفت انظارهم الى حادث تافه في نفسه ، ولكن القادة يفخّمون هذا الحادث ويعظمونه فيكون ذلك من قبيل الالهاء والتخدير .

وانما ضربنا لك هذه الامثال لترى ان الجماعات الوافرة العدد تعمل خصوصاً مدفوعة بالهوس ، وان عبقرية زعمائها تنحصر بمعرفة مطالع الانواء ومجاري الهواء .

تأثير الألفاظ في الجماهير

يزعم بعضهم ان المهم في الجملة هو المعنى لانه وحده مظهر الفكر ، اما المبنى فقلما يصرفون اليه اهتماماً لانهم يحسبونه قشوراً . وهذا رأي خاطىء لانه يتعذر فصل المعنى عن الكلمة كما يستحيل فصل البياض عن الثلج . قال شارل بودلير (Beaudelaire): لا يمكن فصل المرأة عن زينتها لان ملابسها وما تزدان به من الالوان تؤلف مع جسدها وحدة كاملة لا تتجزأ . ويصح مثل هذا القول في اللفظة لانها تحمل المعنى وتستقل به ، فاذا البسته غيرها فقد بدلته .

وقد تنبه الشعراء لهذه النقطة الخطيرة ، فترى جمال البيت يقوم بكلمة ولا يقوم بغيرها . فقد قال شوقي في قصيدته « ام المؤمنين » :

واخلعي الالقاب الا لقباً عبقرياً هو ام المؤمنين

فلو حذفت عبقرياً لحوت روعة البيت .

وقال سعيد عقل متغزلاً :

يا نهلة الخمر المضلّة وترَنّح النغم المولّه

فلو بدلت لفظة نهلة بجرعة مثلاً لنقلت السامع من جوّ الشعر الى مختبر الطب ، وذكرته بجرعة الدواء .

ومن قصيدة لي في وصف ادب جبران قولي :

كانتشاء الروح من فوح الشذا   واعتلاق الطلّ بالنبت الطرير

فان حسن التخيّر قام في هذا البيت بعبارة اعتلاق الطل. والامثلة على ذلك تفوق الحصر .

وتأثير الالفاظ في الجماهير بعيد المدى ، لان الجماعات لا تقيس الكلمات بالمقياس الذي يستعمله الرجل المثقف الهادىء الاعصاب، ذلك لان نفسية الجماهير نفسية ملتهبة لا تُعمِل العقل بل العاطفة والخيال . وترى الخطباء وقادة الجماهير يعمدون الى طائفة من الكلمات تفعل في النفوس فعل الكهرباء، ومن هذا القبيل الفاظ الحرية والاخاء والمساواة. واي خطيب لبناني يقف في الجماعات هاتفاً باسم لبنان والارز الخالد والوطن ولا يقاطع بالتصفيق . واذا كان الشعب يعاني ازمة اقتصادية وقد تجهمت في وجهه سبل العيش، فوقف فيه خطيب وهتف : فليحي الشعب ، فلا ريب انه يحمل على الأكف وينادى باسمه على كل لسان، ذلك لانه عرف ان يختار هاتين اللفظتين في الوقت الملائم .

ولا يشترط ان ينتقي خطيب الجماهير الفاظاً واضحة المعاني ، فقد تكون الالفاظ المبهمة ابعد صدى وابلغ اثراً في نفوس الجماعات، كلفظة الحرية مثلاً فانك تستطيع ان تضع المؤلفات في شرح هذه اللفظة ، ويحملها كل سامع على محمل ويشرحها على هواه ، فيفسرها القاتل بمعنى تحليل سفك الدماء واستباحة الاعراض، ويحملها السارق على انها سبيل لنهب الاموال ، ويحسبها المغرم بفتاة اجازة لخطف عروس احلامه على الرغم من ذويها، وتصور امثال هذه المعاني المطاطة الى آخر الباب.

ومن هذه الكلمات المبهمة عبارة «سيادة الامة» . فان الغوغاء

تحملها على محمل يسيء الى سيادة الامة والحرية معاً . وكثيراً ما يجري ذلك في التظاهرات العامة ، فيهجم المتظاهرون على التجار الآمنين يحطمون حوانيتهم وينهبون امتعتهم ، ويجبرونهم على اقفال متاجرهم بالعنف بعد ان يمطروهم سيلاً من الشتائم . ولا يدعون لهؤلاء التجار شيئاً من حرية الكلام للاعتراض ، وانما يفعل المعتدون كل ذلك باسم الحرية وسيادة الامة، وفي هذه الحال لا تكون السيادة للامة بل للرعاع وسفلة الناس .

ولا تقل لفظة الديمقراطية عن سابقاتها اثارةً للنفوس واطلاقاً للعواطف المكبوتة ، ومثلها لفظة التجدد . فاذا هتفت بالجماهير منادياً بالتجدد لقيت كثيراً من المؤيدين ، لان الناس يملون حالة الاستمرار ويتمثلون انقلاباً يفضي الى احسن، وقد يؤدي الانقلاب الى مصير اسوأ فيردد قول الشاعر :

رب يوم بكيت منه فلما   صرت في غيره بكيت عليه

السبب في ذلك هو ميل الانسان الى التخلص من الحاضر ، فهو في تغيير مستمر ، لا تمر به دقيقة كسابقاتها . وفكرة التبدل هذه اوحت الى برغسون (Bergson) نظريته في التغير الدائم ، فضجت بها اندية الفلسفة والادب في اوروبا. ويحب الانسان المستقبل لانه لم يزل في حيز الممكن ينطلق فيه الخيال ، والخيال امل خصيب وأفق رحيب؛ ويحن الى الماضي لان الذاكرة تكون قد نقّته من شوائبه فلا تلتقط منه الا ما يلائمها ويسرها . وفي الالفاظ سحر يفعل في الجماعات ولا يهز الفرد

المفكر . وكثيراً ما شهدت في الحفلات الخطابية حماسة الجمهور تتدفق كأنها انطلقت من سجن اذ تدوي القاعة بالتصفيق لذكر الامير بشير او فخر الدين المعني ، مع ان هذه الاسماء لو ذكرت لك في معرض حديث لما احدثت فيك هذه النشوة . ومن يجهل كلمة نابليون الاول المشهورة عند بلوغه اهرام الجيزة اذ افتتح الكلام بهذه الجملة التاريخية التي حملت في حروفها الحكم بهزيمة المماليك وهي : «ايها الجنود ، من اعالي هذه الاهرام اربعون جيلاً تنظر اليكم بإعجاب». واكثر اللبنانيين يعرف مكانة المرحوم رشيد نخله في الزجل ، وأرى ان افضل ما قاله في الوطنية قصيدته التي دعا فيها الى الإخاء ونبذ الطائفية وقد افتتحها بهذا المطلع المشهور :

عينك ابو سعدى تجي وتشوف   داسوا عرينك في بلاد الشوف

فان عبارة عينك ابوسعدى هي التي رفعت مستوى المطلع . ولو قال الامير بدلاً من ابي سعدى لأضعف كثيراً من المعنى . ولا يقتصر تأثير الالفاظ على ما يختار منها في الادب والخطابة ، ولكنك ترى كل يوم في الحياة العادية اهميتها ونتائجها .

وقد تعبّر عن المعنى نفسه بجملتين احداهما لا تغضب احداً ، اما الثانية فتعرض قائلها للوم او الى أدهى منه . ومثال ذلك ما يجري كل يوم بين المحامين في المحاكم . فبعد ان يبسط المدعي دعواه ، يرد عليه خصمه المحامي بقوله : ان ما جاء به الزميل مخالف للواقع او ما يشاكل هذه العبارة. فلو انه قال له : كذبت ،لتغير الجو تماماً . وحسبنا ان نورد لك بعض الامثال لترى مبلغ سحر الالفاظ . فلو ان طبيباً

كتب لك في صفة الدواء المركب من اجزاء عديدة عشرين غراماً من الملح العادي لقلبت شفتيك استخفافاً . ولكنه لو بدل هذه اللفظة بكلورير الصوديوم (Chlorure de sodium) لكان لهذه الكلمة الاخيرة وقع في نفسك. ومعلوم ان كلورير الصوديوم هو الملح الذي لا يخلو منه مطبخ في هذه البلاد . وقد يؤثر الاسم على الشخص فلو انك خلعت على اجمل نساء العالم اسماً من هذه الاسماء الثقيلة على القلب واللسان لافقدتها كثيراً من بهجتها .

واني اختم هذه الكلمة بنادرة وقعت لي منذ سنين . فاذكر اني دخلت بعض المطاعم ، ولفت نظري من اسماء الاطعمة لفظة شاتوبريان . فذكرت الاديب الفرنسي الشهير المعروف بهذا الاسم ، وأغرتني اللفظة لانها مؤلفة من شقين اولهما معناه القصر والثاني اللامع —على اختلاف في الكتب— وقد تصورت قصراً يقوم على رابية ، وهو يتلهب عند الاصيل في غمرة من اشعة الشمس . فقلت في نفسي انها والله صورة شعرية رائعة ،ولا بد ان يكون هذا اللون من الطعام ألذ المآكل. وطلبت الشاتوبريان فوضع الخادم بين يدي لحماً مشوياً على الطريقة الفرنجية اي انه ضغط عليه بين حديدتين محميتين فنضج .

اما وقد ذكرناك ، ايها السامع ، بتأثير الالفاظ ، فاعلم كيف تستعمل هذا السلاح ، وانت العليم ان شاء الله .

سلطان الهوس في الجماهير

يبلغ الهوس من الجماهير مبلغاً عظيماً لان العواطف الاجتماعية عمياء، واسبابها عديدة، ولكنها ترد الى ثلاثة اسباب جذرية : الأمل والخوف والاعجاب . وعلى هذه الاصول الثلاثة تتفرع مظاهر عديـــدة ، فان الانسان يشعر بضعفه في المجتمع ولذلـك فهو يستظهر بقوة قد تكون منظورة او غير منظورة، ولكنه يشعر بوجودها فيستقوي . ويستدل بالعقل وحده ، وبقطع النظر عن الوحي والايمان ، على وجود خـالق لهذا الكون ، ويستنتج ان هذا الخالق هو مصدر القوة والكمال ، ومعدن الحكمة والجمال يستطيع ان يثيبه ويعاقبه ، لذلـك فهو يضرع اليه بالصلوات طمعا في ثوابه وخشية عقابه . واذا المت به مصيبة لم يجد الى دفعها سبيلاً، وعجزت القوى الانسانية عن ردها فلا يبقى له سوى هذه القوة العليا يضرع اليها ، ويلقي باثقاله وهمومه بين يديها وهي قوة الله عز وجل . ولكن الانسان يستصعب التجريد ، وبما ان له عيناً تبصر وقلباً يحس فهو يستظهر بالقوى التي يراها ، ويتعلل بالمبادىء التي يداعبها خياله . فاذا صحّ هذا القول في الفرد فهو في الجماهير اصح ، اذ تطبق عليه هذه النظرية على صعيد ارحب ونطاق بعيد الحدود .

واذا انت تأملت عقلية الجماعات وجدتها تنشد القوة لأنها منتهى آمالها ومنبع مخاوفها، وعليها تبني نفعها وضرّها. لذلك تراها في العهد

القديم تعبد الشمس والكواكب والنار والاشجار والماء والحيوان. وقد بلغ منها الاعجاب بأبطالها وكبرائها مبلغاً عظيماً حتى انها ألّهت بعضهم واصبحت هذه الالوهية إرثاً يتلقـــاه الخلف عن السلف ، كما جرى لفراعنـة مصر في العصور الخوالي ، وكما هي الحـال في الامبراطورية اليابانية . ولمَ نعود القهقرى لاقامة الامثال على ذلـك ، أوَ لم يبلـغ الهوس بالشعب الالماني وهو شعب يعيش في القرن العشرين وقد بلغ الذروة العلمية من وجوه شتى ، ان اقام الصلوات للفوهرر لأنـه رأى فيه رمز القوة والنهضة ورجا عن يده القوة والحياة ؟

واذا تقصيت التاريخ تجد ان تكريم او عبادة اعاظم الرجال رافقت المدنية منذ فجر التاريخ على اختلاف الدرجات ، وفقاً لرقي الشعوب وانحطاطها، وتبعاً لأمزجتها واقاليمها. وحسبك اذ اتطلعت الى الشرق ان تلقي نظرة على آثار بوذا وكنفوشيوس ولاوتسو لتتحقق من صدق هذه النظرية . ولا يقتصر اندفاع الجماهير على تأليه اشخاص بل يتعداه الى تأليه المبادىء . فترى الديمقراطيين يؤلهون الجمهورية ، والملكيـين يعبدون الملكية ، والفاشستيين الفاشستية . اما الثورة الفرنسية فرأت تأليه الشعب ، وقد عمد هذا الشعب المؤله في جنون ثورتــه الى فتاة ساقطة من بنات باريس فحملها على الاكتاف بين هتاف الجماهـير وتصفيقها ، وأدخلها كنيسة نوتردام (Notre-Dame) . وسماها الهة العقل (La déesse de la Raison) .

ومتى تمكنت العاصفة الهوجاء من الجماهير فكل مقاومة لها تصبح حافزاً مثيراً لاندفاعها ، كالزيت تصبه على النار بغية اطفائها فلا تزيدها

الا اشتعالاً ، لأن الجماعات تعتبر افرادها اذ ذاك ابطالاً مجاهدين ، فمن استشهد منها في هذا السبيل ربح مجد الدنيا بالذكر الطيّب وثواب الآخرة اذا كان يعمل في سبيل عقيدة . ومن هذا القبيل ثورة الخوارج على علي بن ابي طالب وانهم كانوا يحسبون انفسهم على الحق عاملين على اعلاء كلمة الدين . وقد ضلوا فيما فعلوا ولكنهم كانوا يكفرون سواهم ويحسبون ان من قتل منهم ذهب الى دارات الخلود . وجاء في كتاب الامامة والسياسة لمحمد بن ابي قتيبة ان ابا ايوب الانصاري نادى الخوارج قبل موقعة النهروان فقال : من جاء منكم الى هذه الراية فهو آمن ، ومن دخل المصر فهو آمن ، ومن خرج من هذه الجماعة فهو آمن، لا حاجة لنا في سفك دمائكم . قال وقدّم عليّ الخيل قبل الرجالة ، وقال لرجاله: كفّوا عنهم حتى يبدؤوكم، قال واقبلت الخوارج حتى اذا دنوا من الناس نادوا لا حكم الا لله. ثم نادوا الرواح الرواح الى الجنة ، قال وشدوا على اصحاب علي شدة رجل واحد ، الخيل امام الرجال ، فاستقبلت الرماة وجوههم بالنبل فخمدوا . قال الثعلبي لقد رأيت الخوارج حين استقبلتهم الرماح والنبل كأنهم معز اتّقت المطر بقرونها، وصرعهم الله كأنما قيل لهم موتوا فماتوا .

فلو انتصر الخوارج في النهروان لحسبوا ابطالاً ، اما وقد قتلوا فسماهم انصارهم شهداء . وقناعتهم هذه كعقيدة اليهود بأنهم شعب الله الخاص ، وان هذه البقعة من الارض التي تسمى فلسطين ارث لهم يعظمونها تعظيماً يقرب من العبادة ، ويتنادون من اقطار العالم الاربعة لاحتلال فلسطين باذلين ارواحهم واموالهم في هذا السبيل ، وكلما

ازدادت المقاومة ازدادوا عنفاً وتحمساً لقضيتهم. ومن هذا القبيل حب الجندي لوطنه وتعلقه بالارض التي يعيش عليها حتى انه ليسفك دمه من اجل هذا التراب ، وحسبه ان يكتب على قبره : «في سبيل الوطن ».

ويعجب بعضهم لما يستطيعه المنوم المغناطيسي من تأثير على الوسيط، وكيف انه يحمله على الاذعان لإرادته فيصبح آلة منفذة بين يديه . وتزول هذه الدهشة عندما نعلم ان الوسيط يستسلمُ للمنوم استسلاماً مطلقاً فتتلاشى فيه الارادة والمقدرة على النقد .

ولكن اعجب من ذلك استسلام الجماهير لقادتها في حالة الحرب . فانهم منها بمنزلة الوسيط من المنوّم،خصوصاً اذا رافق سلطانهم اشارات وحركات تزيد في الاستهواء كما يفعل منظر العلم في الجنود مثلاً . ولا ريب ان تكرار الامر والتعود على الطاعة يجعل المرؤوس مطواعاً بقوة الاستمرار . أوَ ليست العادة طبيعة ثانية ؟ وقد يتعود الكذوب الكذب حتى ينتهي بتصديق نفسه .وترى الكثيرين من الناس يتعودون توهم مرض ما حتى يفضي بهم الامر الى الشعور بأعراضه . ويروى ان مريضاً وهمياً تخيل وجود ضفدعة في بطنه ، فعجز الاطباء عن اقناعه بأنه واهم . واخيراً عمد احد اصحابه من الاطباء الجراحيين الى حيلة فجلب ضفدعة وضعها في غرفة العملية ثم نوم المريض الوهمي وخدشه خدشاً بسيطاً في جلد البطن ، وبعد استفاقته من المخدر اراه الضفدعة وهكذا شفي المريض من وهمه .

والوهم يستولي كذلك على الجماعات فإن شائعة كاذبة تحدث في

نفوسهم اليقين وتصعب ازالتها . وقد كان القرويون في لبنان يعتقدون لسنين خلت ان البندورة تحتوي على جراثيم الحميات وعلى الاخص جرثومة الملاريا ، فيتورعون عن اكلها حتى جاء العلم الحديث يشيد بافضلية البندورة ، ويثبت غناها بالڤيتامين. ومع ذلك فلا يزال بعض سكان القرى النائية يعتقدون بضرر هذا الصنف من البقول . واذكر انه في ربيع سنة ١٩٢٨ سرت في بيروت شائعة مؤداها ان عالماً تنبأ بحدوث زلزال ارضي هائل في الشواطىء اللبنانية، فسرت هذه الحكاية بين السكان فهرب اكثرهم الى الجبال وضواحي المدينة حيث يكونون في مأمن من تدمير البيوت لو وقع الزلزال ، لأن البرية لا سقف لها ينقض على رؤوسهم . وكثيراً ما تستغل قابلية الجماهير للاستهواء فيشوه التاريخ مثلاً ميلاً مع الحزبية او طمعاً في الربح . فقد اتخذ واضع قصة عنترة سباق داحس والغبراء مداراً لاساطير طويلة وقد بيع من هذه القصة الوف المجلدات . وقد تستهوي الجماهير بعضها بعضاً بنوع من الالعاب كلعبة اليويو مثلاً فكنت اذا مررت على ساحة البرج سنة١٩٣٣ تجد مئات الناس من مختلف الطبقات وفي ايديهم هذه اللعبة . وقد تؤخذ الجماعات بشهرة كتاب كرواية مرغريت غوتيه (Marguerite Gauthier) او بشهرة ممثل او مطرب . فإن خمسة وتسعين في المائة من سيدات بيروت وآنساتها يقبلن على السينما اذا كان في عداد الممثلين تينو روسي (Tino Rossi) او عبد الوهاب او روبير تايلور (Taylor) . كل ذلك جرياً مع هذا التنويم المغناطيسي الذي يسمونه مسايرة العصر . ويعجب المصور صاحب الفن برسم مثلاً كرسم الجوكندة (La Joconda)

فيماشيه الناس في ذلك بدون ان يكون لهم اي إلمام في فن الرسم لأنهم مسحورون بشخصيه القائل او المبتدع .

وانت ترى مما تقدم ان الجماهير متهوسة مسحورة مأخوذة بما تعتقده سواء أكان خطأ ام صواباً.

هل للجماهير منطق ؟

نرى قبل الاجابة على هـذا السؤال وجوب تعريف المنطق الذي نعنيه . يفهم الناس بلفظة منطق ذلك القسم من العلوم الفلسفية الذي يتخذونه قياساً للتعلم وادراك الحقائق تفادياً من الضلال واجتناباً للزلل ، كأن تقول : كل انسان مائت ، ويوسف هـو انسان ، اذن فيوسف مائت . اما المنطق الذي نعنيه فهو مطابقة الاشياء للحقائق المعقولة . وقبل ان نبحث عنه في الجماهير نبحث عنه في الفرد لأن الجمهور يتألف من الافراد ، رغم التغير الذي يطرأ على الفرد بصفة كونه مختلطـاً بالجماعة .

ترى الطبيب مثلاً يقف خطيباً في جماعة ويأخذ يشرح مضار التدخين وفعل النيكوتين السيء في الرئتين وما يعقب ذلك من النكبات ثم ترى هذا النطاسي الخبير من اكبر المدخنين فتعجب لهـذا التناقض وتقول في نفسك ان هذا الطبيب بعيد عن المنطق .

وتسمع خطيباً يحث الناس على الاحسان والزهد في الدنيا ، ثم تجده بخيلاً حريصاً يستميت في سبيل المال ، فتقول بحق ان لا منطق عنده ، فتستنتج من هذه الامور واشباهها ان الناس في حياتهم يعملون عمل الشعراء الذين قيل فيهم : او لم ترَ انهم في كل واد يهيمون ، وانهم يقولون ما لا يفعلون ، فاذا كان الفرد وهو الذي يستطيع الانطواء على نفسه

بعيداً عن المنطق ، فما رأيك في الجماهير بعد ذلك ؟

واهم ما يؤثر في خيال الجماعات هو الحادث اي الواقع لأنهـا تتأثر بالمثل وهي بقدر ما تستسلم للمخيلة وتجنح الى الخرافات تؤمن بالحادث — والحمد لله على ذلك — لأن احدهما يخفف من وطأة الآخر فتتعادل الكفتان بعض المعادلة . والمهم في الواقع نجاحه فانك لو حدثت الناس بكل ما اوتيت من بيان وبينت لهم محاسن النازية واخفقت السياسة النازية لحقّ لهم الشك بصدق نظريتك . ولو حدثك عالم من علمـاء الاقتصاد السياسي وبيّن لك الطريق المفضلة الى الكسب والثروة وكان هو فقيراً مملقاً لا يملك ما يستبدل به ثوبه العتيق لما اقنعـك . ولكن مهاجراً يعود من مجاهل افريقيا مثرياً تتألق في اصابعه خواتم الالماس ، وهو أمّي جاهل يستعصي عليه احصاء الاموال التي بين يديه ، يحدثك عن وجوه الربح فيقنعك لأنه افلح في تجارته فوطـد نظريته بالواقع الملموس . ومن هذا القبيل عدم اعتقاد الكثيرين بمفعول الادوية ، لأنهم يطالعون البيانات عنها فيرون انها تشفي من عشرات الامراض ثم يجربونها فاذا هي لا تشفي شيئاً فيقلبون الشفاه ويرددون القول المأثور : اقرأ تفرح ، جرّب تحزن . ومن يجهل ما لقيه كولومبوس من تذمر البحارة ونقمتهم عليه عندما طال بهم الامر ويئسوا من اكتشاف العالم الجديد فلما بلغوا اليابسة هتفوا لكولمبوس وهتف بعدهم التاريـخ . وكذلك قل عن انيبال (Annibal) بعد قطعه جبال الالب ودحره الرومان . ولقـد ظلت ذكرى انتصـارات نابليون في اوسترليتز ومارنغو (Marengo) شفيعة بـه لدى الجيش حتى موقعة واترلو

(Waterloo) لأن الواقعات السابقة كانت تحمل الشعب على الايمان بقوته حتى ايام الهزيمة . وقد يكون الشعب غير بعيد عن المنطق في مثل هذه الامور ولكنه جد قريب من التهور والخروج عن المنطق . فلو طلب مطلباً واعطيته الشبر لطلب المتر فاذا نال المتر طلب الكيلومتر وهلم جراً . ويذكر الناس انه لما قام غاندي منادياً بالعصيان المدني للتخلص من الضرائب اشتط الهنود في تفسير الفكرة وامتنع الفلاحون عن دفع الحصة التي تعود الى اسيادهم اصحاب الارض وعن دفع الديون الشخصية . وترى بعض المؤرخين ينحي باللائمة على بعض المشترعين الخالدين لانهم لم يعمدوا الى خلع نير الاستعباد وانقاذ الملايين من العبيد الذين كانوا يسامون العذاب ويساقون الى الاعمال المرهقة سوق البهائم . ويرد على ذلك بأن هؤلاء المشترعين بشروا بشريعة المحبة وافهموا العبيد واجباتهم نحو اسيادهم واوجبوا على الاسياد الارشاد بالحسنى ، تاركين لتطور الزمن ان ينقذ المستعبدين من اغلالهم . ولو اتبّع المشترعون خطة غير هذه كأن يلهبوا الحماسة في صدور العبيد داعين الى التحرر لأفضى الامر الى عواقب وخيمة لأن العبيد كانوا يفوقون اسيادهم عدداً ولكانت الثورة اشتعلت اشتعالاً يأتي على الاخضر واليابس معاً ذلك ان الجماعات لا تعتمد على المنطق . والجماهير كالافراد تنظر الى الاشياء بمنظار المنفعة الشخصية ، ففي اثناء الازمة المالية العالمية التي اجتاحت العالم بين سنة ١٩٣٢ و ١٩٣٩ كان معظم الشعب يحسد الموظفين لان المواد الغذائية رخيصة والموظف يتقاضى مرتبه في آخر الشهر بدون كبير عناء فكان الشعب يكره الموظفين لمجرد انهم موظفون ، وعندما

ارتفعت اسعار الحبوب والمواد الغذائية اصبح يكره المزارعين والتجار وهلم جراً .

ويذكر الانجيل ان الشعب الاسرائيلي استأذن بيلاطس في صلب يسوع فتردد بيلاطس كثيراً في الامر ، وكان ينوي في سره انقاذه منهم فطلب من اليهود ان يدفعوه اليه ليؤدبه ويطلقه ، وخيّرهم بين اطلاق يسوع او براباس فاختاروا براباس وكان لصاً خطيراً يستبيح المحرمات ويسفك الدماء . ولما رأوا بيلاطس متردداً هددوه برفع الشكوى عليه الى قيصر بتهمة الخيانة فخاف واسلمهم اياه . فانظر الى منطق الجماعات كيف يكون ، انه اقرب شيء الى الجنون .

وقد وقعت حادثة سنة ١٩٢٥ في احدى قرى الجنوب ملخصها ان رجلاً شيخاً عرف بالصلاح وسلامة النية رأى في منامه ان سينبع في ارضه ماء يشفي المرضى ، وكان ذلك في اوائل الربيع . واتفق لذويه انهم بينما كانوا يحرثون الارض في اليوم الثاني اصاب المحراث احد جذور الكرمة فانقطع وكانت مائيته غزيرة لوقوعه في سفح مشبع بالرطوبة فكان الجذع بمثابة الموصل تجري عليه المياه التي تتجمع في المنحنى . وذاع الخبر فتقاطر الناس من كل صوب بغية الاستشفاء . واصبحت قريتنا الصغيرة مزاراً يقبل عليه الناس مئات والوف يتوافدون من مختلف النواحي اللبنانية حتى من سوريا وفلسطين. ولكن الماء كان ينضب كلما اقترب الصيف وظلت الجماهير تلهج بذكر العجائب الوهمية . وقد شاهدت المكان مرات عديدة مع نفر من اصحابي فلم نر الا ظاهرة طبيعية ، ولكننا لم نجرؤ على الاصطدام بالجماهير التائهة في

بيداء الوهم فآثرنا السكوت يقيناً منا بأنه سيأتي الصيف وينضب الماء . غير ان السلطة الكنسية سبقتنا الى التصريح فجزمت بأن الامر عادي فلا معجزة ولا مزار . وقد استغلت بتصريحها هذا كثيراً من الشتائم والسباب ولم يكتمل شهر تموز حتى نضب الماء تماماً ، وتخلصنا من نقمة الجماهير . وقد يرجع الفرد عن غيّه اذا كان عاقلا فيتضع ويصرح بخطأه ، اما الجمهور فيعاند في الحق الواضح ولا يعدم سبيلا للتأويل والتفسير وذلك ما جرى في قضية النبع المزعوم مقدساً. لأنه لما نضب نسب الجمهور هذا الجفاف الى شك السلطة الروحية وعدم ايمانها فهذا هو منطق الجماهير اي انها بعيدة كل البعد عن المنطق ، لا ترى الا ما تريد ان تراه ، ولا تدين الا بالهوى والميل فمن سعى الى الحقيقة كان عدواً لها ؛ وذلك ما وقع لسقراط الفيلسوف الذي حكم عليه بالموت لأنه جاهر بالحقيقة خلافاً لرأي الجماعات . وما صح بالامس يصح اليوم لأنه لا جديد تحت الشمس .

المستوى العقلي في الجماهير

معلوم ان في الانسان ناحيتين الاولى حيوانية والثانية روحية. وانما الانسان يكون بهذه الثانية انساناً ، اما الاولى فيشاركه فيها الحيوان بل قد يفوقه في كثير منها . فمن اين للانسان قوة الفيل ، وشجاعة الاسد ، والوان الطاووس ، وسرعة البازي ، وما يتصل بذلك من الصفات التي يفضله بها الحيوان ؟ وانما قصد الشاعر هذا المعنى اذ قال :

لولا العقول لكان ادنى ضيغم   ادنى الى شرف من الانسان

ويتساوى سفلة الناس باشرافهم في مناحٍ عديدة فانهم يتساوون بالولادة والموت والصحة والمرض والنوم واليقظة واشياء اخرى . ولكنهم يفترقون بما هم فيه بشر اي بالعقل، ومن هنا نجم خطأ القائلين بوجوب المساواة بين البشر ، وعقولهم مختلفة اختلاف الوانهم وهيأتهم . ولو تساوى الناس في كل شيء لخرب الكون . فكما ان في الجسم رأساً وهو ضروري ونفيس ففي الجسم رجل وهي ضرورية ايضاً ولكن الفرق بينها وبين الرأس فرق ما بين المثالي الرفيع والغبي الخسيس . وانك لو نظرت الى شعب وحاولت تحديد النسبة المئوية بين العاديين منه والنابغين لتعذر عليك الامر فتعمد الى وضع النسبة الألفية وتصعب عليك هذه ايضاً ، فتضطر الى اقامة النسبة المليونية فتقول ان في المليون ثلاثين او خمسين عبقرياً . فاذا نظرت الى ملايين الاغريق مثلا

في العهد القديم لقيت هوميروس وسقراط وافلاطون وارسطو او الى ملايين الفرنسيين في القرن السابع عشر تبادر الى ذهنك راسين وموليير او الى الامة الانكليزية طلع عليك شكسبير .

اما الطبقة المتعلمة فهي كثيرة في الشعوب خصوصاً في القرن العشرين . ولكن ما اندر المفكرين في هذه الفئة الخاصة ، ولم يكن الطلاب الا طلاب شهادة .

واصبحت الشهادة وسيلة للعيش فاذا بلغها الطالب بعد شق النفس خلد الى الراحة وابى ان يطلق تفكيره في الطبقات العلى لان ذلك يكلفه جهداً فتراه يتساوى بالفئة المعلقة بين الامية والعلم ، يحدثك عن الامور التافهة كالازياء والملاهي والقصص الغرامية وما يتلاقى عليه كل الناس من الكتب السخيفة التي يلهون بها اما لاثارة شهوة وتعليل خيال ، وإما لنيل ثناء فارغ كأن يقال ان فلاناً يساير عصره ويلم بما حوله . وكما ان العلم الصحيح نادر فكذلك الفضيلة بل هي اندر ، فكثيراً ما نرى ونسمع ان الذي يعف عن الاموال والاعراض يفعل ذلك خشية السجن ، والمتبرع للفقراء يتبرع حباً للشهرة واستجداء للمدح ، والذين يأتون بيوت العبادة يأتونها اما بدافع التقليد والعادة واما قطعاً لالسنة المتعبدين . اما الذين يحبون الفضيلة لانها الفضيلة والحقيقة لانها الحقيقة فانهم اقل من الجود في صدور البخلاء .

وارجح انك لو طوّفت في هذا الكون الفسيح باحثاً عن سقراط آخر يموت من اجل الحقيقة لما وجدته . واني اشك بذلك الوجدان

الذي تغنى به روسو وحسبه الرادع المكين الذي يعصم الانسان من الشر . ويعلم الله ماذا يفعل هذا الوجدان بعد ان تغيب الشمس ويصبح صاحبه في مأمن من الرقباء . اما الذي يتبجحون به من المدنية الزائفة فهو طلاء جذاب يجرفه سيل الشهوات ، وجذع نخر معلق على شفا جرف هار لا يستطيع الثبات في وجه الزوبعة . فاذا عرفت ان التفكير الراقي ، والعلم الصحيح ، والفضيلة الوضاءة ، نادرة في المجتمع ، وانها تصيب النخبة الضئيلة من الناس سهل عليك ان تعرف ممّ تتألف الاكثرية الساحقة في الشعوب اي من جهلة الناس ورعاعهم . اما التقدم البشري فلم يقم على اكتاف السواد من الناس بل على ادمغة العبقريين . فليس الشعب الفرنسي هو الذي اكتشف الجراثيم وخفف كثيراً من النكبات التي تلم بالبشرية ووضع المصل الشافي من داء الكلب بل باستور وحده ، وليس الشعب الايطالي كله وضع المسرحية الالهية بل دانتي ، وليس الشعب الاميركي كله سخر الكهرباء لخدمة الانسان بل اديسون وهلم جرّاً . بعد هذا كله توقن ان الشعوب مقودة بالشهوات ، لاهية بالاباطيل، وان الاكثرية لا تفكر الا ارتجالاً ولا تعي الا عرضاً .

وتسري العدوى الاجتماعية في الجماهير ويتأثر الفرد بآخر ويشجع الانسان بما يشهده من نظرائه ومن هذا القبيل عدوى الازياء . افتظن ان السيدة عندما تحمر اظافرها تستطيع ايهام الرجل بان الطبيعة حبتها هذا اللون الوردي ؟ كلا ولكنها حواء رأت حواء اخرى تفعل ذلك فتشجعت ففعلت . وكنت اسمع بعضهم يقول ان الانسان يقوى ويأنس برفيق ولو الى المشنقة فادركت المعنى ولكن لم اتبينه تماماً حتى

السته لمساً في حادثة وقعت لي سنة ١٩٣٠ وكنت اذ ذاك قاضيـاً في الغرفة الحقوقية بمحكمة بيروت البدائية ، فقضى المجلس العدلي باعدام شخصين ارتكبا جنـاية قتل في محافظة البقاع فكلفني النائب العام الاستئنافي ان اصحبه الى سجن الرمل لعل احد المحكومين يريد ان يوصي بشيء قبل اعدامه اذ يجب ان يتلقى هذه الوصية احد اعضاء الغرفة الحقوقية . فبلغنا سجن الرمل حوالي الساعة الرابعة من ليلة ١٣ نيسان وسكون الليل مخيم حينئذٍ على تلك البقعة ، والفجر لم يتنفس بعد ، وفتح باب غرفة السجين الاول وكان نائماً يغط في نومه ، وافهمناه ان يستعد لملاقاة ربـه . واتجهنا الى غرفة السجين الآخر وكان قـد استيقظ ، واول سؤال وجهه الي هو هذا : أأنا وحدي ام انا ورفيقي؟ فاجبته انه ورفيقه . فرأيت انه انس برفيق الى المشنقة .

وانما يقوى الانسان في الجماعات لانه يرى فيها من يفكر مثـل تفكيره ويذهب مذهبه . فلو كلفت خطيباً ان يقف في حشد ويتكلم في الموضوع الفلاني فلا ريب ان قوته المعنوية تزداد اذا علم ان السامعين يرون رأيه فهو يستمد جرأته من سامعيه المؤيدين . ولكنه لو علم غير ذلك لارتبك وتضعضع ، وقد يشذ بعض الخطباء عن هذه القاعدة ، ولكن قوة اخرى تكون وراءهم وهي امـا القوة المعنوية واما قوة السيف . وما جرأة الحجاج بن يوسف الثقفي على خطبته المشهورة في العراق الا قوة الخليفة الاموي من ورائه. وقيل لي ان اثنين من زجالي القرن التاسع عشر كانا يتحاوران فأتى احدهما على ذكر بطولة ابراهيم باشا المصري فقال احدهما : ابراهيم باشا احتل بلدان التراك . فاجابه

الزجال الآخر : خلف منو همة محمد علي . اجل ان الجماعات يستمد بعضها من بعض همة .

والغريب في هذا الشأن ان الرفيع يتأثر بعقلية الوضيع في الجماعات اذ يتخلى عن كثير من مداركه وآرائه ليساوي الآخرين . وفي اللغة الفرنسية مثل مؤداه ان من يتعذر عليه رفع الآخرين الى مستواه فلا بد له من ان ينزل الى مستواهم. وهذا صحيح فان لم يفعل ظل هو في واد وهم في واد آخر.

وعندما تنفجر الجماهير وتمشي في تظاهرة مثلاً يصعب على الراقين بين افرادها وقف التيار الجارف ، ولكنها تخضع احياناً لارادة زعيم اذا كان نافذ الكلمة عريض الجاه وكانت الجماعة على يقين من اخلاصه لقضيتها . وقد تكون التظاهرة سلمية بحتة وتسير بهـدوء ونظام اذا كان افرادهـا ممن ينتمون لحزب او جمعية لها نظامها وآدابها ، فان التهذيب واحترام النظام يلجمانها عن اتيان الموبقات. وفي الاعم الغالب يدفع الهوس بالجماعات الى الحيوانية التي احتجبت موقتاً واختنقت تحت قشور الانسانية . ولهذه الحيوانيـة مظاهر شتى ، منها القتل والسرقة وهتك الاعراض والتمثيل بالجثث . وتختلف وحشية هـذه المظاهر شدة او ضآلة باختلاف البلدان والامزجة والمعتقد . وكما ان المجموع يستطيع التأثير على الفرد ، فكذلك يستطيع الفرد التأثير على الجماعة اذا كان من الافذاذ الاقوياء. فبدلاً من ان يتلاشى في العدد الوافر يعلو ويملي ارادتـه على الجمهور . وكثيراً ما تبرز هـذه الشخصيات الكبرى في الظروف الاستثنائية لان الجو يـلائمها فتثبت وجودها وتجازف مجازفة كبرى فاما ان تخسر الكل واما ان تربح الكل كما

فعل نابليون الاول ، وانما بطولته وليدة الثورة . ومن النوابغ من لا يتأثر بالجماعات فيبقى مفرداً محلقاً وقد تختلف طباعه عن سائر الناس وربما هزأ به معاصروه ولكنه اذا كان عبقرياً ملهماً خلد بعد موته . وهذا شأن الكثيرين من الانبياء والادباء والمخترعين الذي يعلمون سلفاً انهم خالدون في ضمير الاجيال ، فانهم لا يعملون لزمان او مكان بل للمطلق . وقد ترى في الشخص الواحد شخصيتين مختلفتين احداهما تساير الجماعات مكرهة ، واخرى تظل معتصمة باستقلالها . واذكر من هذا القبيل ان شاعراً لبنانياً كلف القاء قصيدة في احدى المناسبات فألقاها وصفّق له السامعون كثيراً وقد رضي عنها الحاضرون جميعاً ما عدا صاحبها لانه مزقها بعد خروجه من الحفلة ودفع الى الصحفيين قصيدة اخرى بدلاً عنها فأرضى الجماهير في الاولى وارضى في الثانية نفسه والادب العالي ورفارف الخلد التي وقفها الله على النادرين من عباده.

ردّ الفعل في الجماعات

الطبع البشري عرضة للتبدل والتقلب ، وما يصح قوله في الجسم من هذا القبيل يصح قوله في النفس فلا تمر بالانسان لحظة كسابقتها ، ولو لم يكن الامر كذلك لما تطور المرء من الطفولة الى الشيخوخة . ويظهر التبدل الخلقي في ظروف خاصة تعرض للاشخاص ، فقد ترى بين الرجال جباناً يفرق لذكر السلاح ثم يضطر لخوض معركة فلا ترى اصلب منه قلباً ولا امضى عزيمة. وكم من بخيل يضنّ بالدرهم على اولاده وزوجته فاذا نزلت ببلده نكبة او دعاه داعي الوطنية اخذته الحماسة وجاء في طليعة المنجدين ، وهذا ما يسمونه رد الفعل . ومثل هذا الانقلاب الفجائي الذي يطرأ على الفرد يطرؤ على الجماعات،فترى هذه الجماهير التي نعتناها في احاديث سابقة بالطمع والميل مع الشهوات والانانية تندفع في بعض الاحايين الى الخير والاحسان وتوفي المروءة حقها فتبذل بدون حساب وتلقي بأفرادها الى الخطر . وكثيراً ما تتفتح هذه العواطف عند وقوع نكبة مروعة كحصول حريق مثلاً في القرى الخالية من دائرة الاطفائية ، فترى الشبان المترفين يندفعون بتلك الايدي الناعمة لإطفاء النار فلا يضنون بالوجوه النضرة على اللهيب . وترى الفتيات والسيدات الرافلات بالحلى والحرير والمحوطات بالوصائف والخدم يتطوعن لخدمة الجرحى على اثر حصول زلزال او ما شاكله من النكبات العامة ، فلا يتورعن عن ضمد الجراح وخدمة اقذر الناس .

وكما تكون حمية الجماهير اقوى من حمية الفرد في الشر فكذلك تكون أغزر وامضى في الخير ، ذلك ان الجماعات تستهدف في هذه الحالات غاية واحدة وتتناسى كل شيء سواها . وكثيراً ما ترى بين الثائرين انفسهم من يبلغون في بعض الظروف من العفة وكبر النفس مبلغاً يشكرون عليه . وهذا يدلك على ان للجماهير عواطف نبيلة ومروءات تحمد عليها ، ولكن هذه المروءات التي تدفع بالجماعات صعداً تكون على الاعم الغالب موقتة تزول بزوال اسبابها . ومن القى نظرة على التاريخ رأى عاطفة الوطنية تدفع باصحابها الى الاستماتة في سبيل وطن او عقيدة حتى اذا بلغ الشعب الغاية نام على اكاليل غاره وفقد ثمرة النصر بالكسل والتواني ، وهذا ما جرى للأغريق والرومان والعرب .

وللمؤرخ الفيلسوف ابن خلدون ابحاث قيمة مستفيضة في هذا الشأن منها قوله : «والرغد يولد الدعة والانغماس في الشهوات ، فالعمل ينشىء الرغد اول الامر ، ولكن بعد ان يصل الناس الى اعلى درجة في الحضارة يتخذون من يعمل لهم . ويزيد الترف فيفقد الناس بأسهم القديم ويعجزون عن الدفاع عن انفسهم ثم يفسد الدين في نفوسهم وتنكسر ثورة العصبية ، والدين والعصبية هما اقوى عاملين ... ثم يصير كل شيء في داخل الدولة في حالة انتقاص وتحلل» .

ولمَ نعود الى التاريخ البعيد لاقامة الدليل ؟ ان انكسار فرنسا سنة ١٨٧٠ شحذ عزيمتها فعزّت ، اما انتصارها سنة ١٩١٨ فكان سبباً في رد الفعل والتخاذل والانصراف الى الاباطيل ، فافضى ذلك الى نكبتها سنة ١٩٤٠ .

ولا غرابة في هذا الخمول فتلك سنة الطبيعة لان الصعود يعقبه النزول ، وشارب الخمر يتوثب ويثور في بدء سكره فهو كالقدر الجياشة تتسارع نبضات قلبه ، وتزدحم الخاطرات في رأسه ، وتتسابق الالفاظ على لسانه ولو انه كان في حالة الصحو لرأيته حيياً يتعثر باللفظ وينوء لسانه بالكلم .

ثم يأتي دور الخمود فيثقل اللسان ، وتبوخ الذاكرة وتسترخي العضلات ويدخل السكران في نوم عميق ، والانسان ميال بطبعه الى التراخي والكسل . ولا ريب ان النشوة التي يحسها مدمنو المورفين وامثاله من المخدرات هي زيادة في كسل الاعضاء وتراخيها ، والجماهير تجنح الى الكسل والاستقرار . لذلك يصعب التجديد على المجددين لان الجماعات تألف نوعاً من العيش وتقرره فلا تطيق ان تبذل جهداً لتعلم غيره او لتنهج نهجا آخر ، حتى ان المشاريع الحيوية نفسها تلقى مقاومة شديدة من الشعب . ولو لم يجلب الامير بشير الشهابي الماء قسراً الى بتدين للقي اشد المعارضة . وقس على هذا غيره من المشاريع العمرانية . وانك لترى سكان الجبال الوعرة اكثر نشاطاً واصلب عوداً من سكان السهول الفيحاء الذين خلدوا الى الراحة في الظلال الوارفة .

وترى اكثر المصلحين يعمدون الى ادخال الاصلاح تدريجياً ، اذ تكون الوثبة خطرة . فكما ان المعدة لا تستطيع الهضم في خمس دقائق ، وكما ان معدة الطفل تتعود على المآكل تدريجياً ، فكذلك الجماعات عقلها كمعدة الاطفال .

ويذكر التاريخ انه عندما اراد بطرس الاكبر ان يدخل الثقافة

الاوروبية الى روسيا امر الروس ان يتزيوا بزي الاوروبيين فهان عليه بعد ذلك ان يحبّب اليهم الثقافة الاوروبية لانهم تجاوزوا المرحلة الاولى. ومن راجع تاريخ تركيا الكمالية رأى تأييداً لهذه النظرية من وجوه عديدة لأن الجماعات تقف غالباً موقف الحذر من اي جديد . وعندما كانت حكومة المتصرفية في لبنان تفتح طريق العربات في بلد ما كانت تلقى اشد المقاومة من السكان اذ كانوا يفضلون سلوك الطرق الوعرة زاعمين ان الخيل لا تستطيع اجتيازها لو خطر للدولة التركية ان تتغلب عليهم فتشن الغارة على جبالهم ، ولكنهم بعد ان لمسوا منافع الطرقات واهمية المواصلات اصبحوا يتسابقون الى تعميمها .

وقد خطر لاحد ملوك فرنسا ان يدخل زراعة البطاطا الى بلاده ولكنه خشي ان هو فرضها على الشعب فرضاً ان تفوته النتيجة المقصودة. فتظاهر كأنه يحتكر زراعة هذا الصنف ، ولكن سرعان ما امتدت اليه ايدي المزارعين خلسة وهكذا تعمم زرع البطاطا في فرنسا .

قلنا في بدء هذا الحديث ان الشعب ينقلب ويتغير . اجل وهو متطرف لا يلزم الاعتدال والحالة الوسطى ولكنه يقفز من طرف الى آخر لانه يندفع مع العاطفة . وقد يكون شعوره في سبات عميق ثم يستيقظ احياناً فيحسب المراقب السطحي انها طفرة . كلا ولكنه شعور كمن في النفوس الى حين فانفجر في ظرف ما ، وقد يعود فينقلب الى ضده في وقت قليل . ومن هذا القبيل ما جرى للسيد المسيح، فان الشعب كان معجباً به وقد شاهد شفاء المرضى وقيامة الموتى وسمع تلك التعاليم السماوية وشبع من الخبز والسمك فلما عرف بمجيء يسوع الى

اورشليم هبت الجماعات بسعف النخل والزيتون تفرش ملابسها في طريق المسيح وتنثر الورود والرياحين هاتفة لابن داود . ولكن لم تمر بضعة ايام على هذا الاستقبال الرائع حتى كانت هذه الجماهير نفسها تعريه من ثيابه وتُسهم في جلده وتقوده الى الجلجلة .

وفي الجماعات رجال صالحون خيّرون ولكنهم الاقلية الضئيلة . وكذلك هي اللآلىء الكريمة نادرة في البحر الخضم ، راسبة لا تعوم بل تطفو الجيف والاصداف. ومتى هاج البحر وخرج الى الشاطىء فلا بد له ان يعتكر بما يجرف من الاوحال ، وهذه الاوحال هي الغوغاء التي تعكر التظاهرات التي قد تكون في اساسها نبيلة القصد . وفي البحر اسماك يبتلع كبيرها صغيرها ، وكذلك الحال في الناس . ومتى هاج البحر كثيراً وتعالى حتى لتحسب امواجه جبالاً شامخة ، فاعلم انه سيعقب ذلك هدوء عميق ، وكذلك الجماهير تبرد وتخلد الى السكينة بعد غليان ، وذلك هو السكون غب العاصفة .

بحث في الأديان

بحث في الأديان القديمة

نبدأ في هذا الفصل سلسلة ابحاث دينية تتناول الاديان القديمة التي عرفها التاريخ . ولا يتناول الكلام الا المذاهب المعروفة قبل المسيح ، قاطعين على انفسنا عهداً بأن لا نتعرض للمذاهب التي يدين بها العالم اليوم الا ما كان من بعض معتقدات القبائل المتوحشة المتفرقة في بعض نواحي استراليا وافريقيا والمناطق القصية . وبما انه يتعذر علينا الالمام بكل شيء او تفصيل المسائل باسهاب، فاننا نكتفي بذكر هذه الاديان فنصوّرها باختصار تصويراً صحيحاً ، ونحسب ان في ما سنورده بعض الفائدة والعظات ، اذ نعرض ما رافق الفكر البشري من علو وخفض ، وخرافة وسمو .

وتكاد لا ترى بين الاديان المتعددة واحداً يخلو من الاعتقاد بوجود حياة اخرى وقوة تفوق قوة البشر ، ان لم يلجأ اليها الانسان في حال قوته، فهو يضرع اليها في إبّان المحن حين تنقطع به الاسباب الأرضية، فان لم يتوسل اليها بلسانه توسل اليها بقلبه . ومن هو الانسان وماهي قوته ؟ انه اضعف من نور شمعة في مهب الريح .

واول ما تتناوله بالبحث هو بعض الاديان الفاشية في القبائل الافريقية . والشعب الذي يدور الكلام عليه هو شعب البانتو (Bantou) ، وهو أوفر الشعوب الافريقية عدداً ، يتفرع الى قبائل

شتى ، لكل منها تقاليدها . والاقاليم التي يقطنها تمتد من شاطىء الاطلسي الى شاطىء الاوقيانوس الهندي . وتختلف اساليب العيش في تلك القبائل باختلاف البقاع ، فمنها ما يعيش من تربية الحيوانات ، ومنها ما يعيش على الصيد وهلم جراً .

وان المسافرين والسيّاح الذين تجولوا في هذه المناطق ونزلوا ضيوفاً على القبائل توهموها عريقة في الوثنية ،لا تعرف معبودات سوى الاصنام والصور . وهذا رأي خاطىء ، لأن لهذه الصور والتماثيل سبباً آخر وهو ان هؤلاء السودان يعتقدون بوجود ارواح ، منها الصالحة التي تحرس الانسان وتسهر عليه، ومنها الشريرة الضارة ، وهم يتزلفون اليها خشية غضبها ويقدمون لها الضحايا والقرابين .

وليست هذه الارواح نكرات ولكن لها اسماء معلومة ، وبينها وبين الناس وسطاء هم السحرة والرقاة الذين يستعطفونها ويستمطرون رحمتها ، ويكتبون اسماءها على التعاويذ والصور والتماثيل التي يأملون منها جلب المنفعة ودفع المضرّة غير معتبرين ان التماثيل بنفسها تستطيع شيئاً .

وهم يعتقدون بوجود عالم آخر لا يقع تحت الحواس ولا ينكشف الا بعد الموت . وتراهم يخلطون الدين في كل شيء : في زواجهم وموتهم وسفرهم وايابهم وغزواتهم وصيدهم ، حتى ليصعب عليك ان تفرق بين الاعمال العادية التي لا تصطبغ بصبغة دينية وبين الاعمال الدينية المحضة . وانهم توارثوا هذه الامور خلفاً عن سلف . وانهم يخافون ان تنزل بهم

النكبات وان تنقرض القبيلة اذا تخلفوا عن هذه الطقوس. وهم يتوهمون وجود الارواح والقوى الخفية في كل شيء حتى في الشجر والحجر. لذلك انصرفت فئة منهم الى الاختصاص بحلّ الاسرار وتفهمها ، فكثر بينهم السحرة والراجمون بالغيب والكهان الذين يتولون التطبيب والرقية وتنظيم الطلاسم . وقد تأتي بعض هذه العلاجات بفائدة احياناً فتنجم عن تأثير الاستهواء (Suggestion) في النفوس لا عن مزية خاصة بالدواء . فاذا كان هذا نظرهم الى الجماد يرون فيه ارواحاً واسراراً ، فانهم بحجة اولى يشيعون موتاهم بحفلات التكريم والتعظيم ويقيمون الطقوس ليعدوا للنفوس الذاهبة مكاناً لائقاً بها ، تغتبط فيه وتطمئن اليه . ويعتقدون ان في استطاعة النفوس الرجوع الى العائلة وتعكير صفو افرادها بايصال الأذى اليهم ، لذلك تراهم يسترضونها بالتقادم والقرابين لتكف عنهم الشر وتفيض عليهم الخيرات ، وقد يزجرونها احياناً بالصياح والشتائم . ولما كان لا بد لهذه الاشباح من مكان تأوي اليه اذا عادت ، فقد جرت العادة في بعض القبائل على اتخاذ جمجمة الميت مقراً للروح الهائلة ، فتصبغ الجمجمة بلون احمر هو لون الدم رمزاً الى الحياة ، وتوضع في مكان من البيت محفوفة بمجالي التكريم . وكثيراً ما توضع جماجم عديدة في بيت مشترك للقبيلة فيكون كوخاً واسع الاطراف مبنياً بالخشب ، او انهم يعمدون الى طريقة ثانية وهي اقامة تمثال للمتوفى،وان لم يكن شبيهاً بالفقيد،ويضعون على التمثال خصلة من شعره او بقية من اظافره او ثيابه فتتعرف به الروح وتسكن اليه .

وفي بعض القبائل الاخرى يعتقدون ببقاء الروح إما في المقبرة وإما

في بعض الغابات والادغال . ولكنها تبقى على كل حال مضطربة هائمة ، وهي لا تزال في طوافها تحنّ الى الجسم الذي فارقته فمتعها بالطيبات يوم كان في ميعة الصبا وعنفوان الصحة ، فلا تطمئن اطمئناناً تاماً حتى تدخله ثانية . وقد يكون ذلك الجسد استحال الى جسم حيوان او جسم انسان . وربما تقمصت في طفل وعادت سيرتها الاولى ، وهذا هو التناسخ . ولكنه تقمص غامض فلا هو كالتناسخ الذي أقرّه الهنود وعللوا له وشرحوا اسبابه ، ولا هو كالتقمص الذي بحثه افلاطون في عرض كلامه على خلود النفس في كتابة الفيدو (Le Phédon) . وترى المورد الخصب الذي يستثمره السحرة والعرافون من اعتقاد البانتو (Bantou) بان فئة من الارواح الشريرة كارواح المجرمين الخبثاء او انفس اعدائهم في الحياة ، تعود اليهم بعد الموت لتنتقم منهم ، وان في استطاعة السحرة — اذا أوتوا اجورهم موفورة — ان يصرفوا هذه الارواح ويبطلوا قواها . وعلى رغم اعتقاد بعض القبائل بان للارواح ثواباً وعقاباً فانهم قلما يهتمون لمصيرها ، وانما يهمهم تأثيرها على مجرى حياتهم ومنافعهم في هذه الحياة الدنيا .

ولكنهم يعتقدون على كل حال بوجود الخالق القدير فيسمونه في بعض النواحي « الحي » ، وفي البعض الآخر « العالي » وما شابه ذلك من الاسماء. ولكن هذا التوحيد يختلف كثيراً عن التوحيد الذي تعرفه الامم المتمدنه ، فانهم لا يتساءلون عما يريده هذا الخالق وعن غاية وجودهم على الارض .

ويظنون ان السحر والعرافة مما يؤثر على الارواح ولكنه لا يبدل

من ارادة الله شيئاً . ولا يحصرون وجود الله بمكان ولا يمثلون له بتمثال ولا يجدفون عليه ، كما انهم لا يعبدونه بمعنى العبادة التي نعرفها بل يدركون ان الانسان لا يستطيع حياله شيئاً ، فعليه التسليم والاعتصام بالصبر .

ولكن كيف تأتّى لهؤلاء المتوحشين ان يشعروا هذا الشعور ، أترى العاطفة الدينية ترافق الانسان منذ طفولته العقلية ؟ ذلك هو الارجح فان الانسان وجد حيال هذا الكون الهائل فأحس نفسه غريباً ضعيفاً في تلك الغابات العذراء ، وتجاه القطعان الوافرة من الحيوانات ، فلم يجرؤ ان يمد اليها يداً ، متحسساً انها ملك آخر . وقد اعلن هذا المالك عن نفسه بالمطر والعواصف والرعود او بالامراض والاوبئة انذاراً بغضبه . لذلك فان الانسان الفطري لا يقدم على بيع الارض بل يتقاضى حق الانتفاع بها لانها ملك الله كالشمس والضوء والهواء ، والمنتفع يأخذ من الارض ما يعيش به ويقدم القرابين لله اي حصته التي تعود اليه بحق الملكية ، وهذا هو اساس الصلاة والحفلات الدينية عندهم ، وهو كما ترى مرتكز على مبدإ المنفعة لا على مبدإ المحبة . ولكن اتستطيع ان تطالب هؤلاء السودان بالسمو الاخلاقي الى درجه المحبة ؟ وسنبحث في المقال الآتي كيف تطورت فكرة القرابين وكيف استغلها السحرة والعرّافون .

الغرائبُ في أديان المتوحّشينَ

بحثنا في مقال سابق بعض معتقدات البانتو (Bantou) والفكرة الاخلاقية التي اوحت اليهم تقويم القرابين . ولكن العامل الذي خنق هذه العواطف النبيلة هو تفشي السحر والخرافات بينهم ، لان السحرة ايضاً يزعمون انهم يقدمون القرابين لقوى غير منظورة فيرتكبون الجرائم ولا يتورعون ، والويل للضعيف لان ضحاياهم كثيراً ما تكون ضحايا بشرية اذ يفتكون بابن وحيد او بصبية في ميعة العمر الى ما وراء ذلك من الشرور . ويكون العرافون من النساء والرجال ، فهم يعملون اما بالانفراد مقابل اجر معيَّن ولمصلحة شخص معروف ، واما جماعات تنتبذ مكاناً قصياً في الكهوف والغابات زاعمين ان لهم القدرة المطلقة ، لان بينهم وبين القوى الخفية عقوداً سرية . ويسهل على القارىء ادراك هذا لانك في بيروت نفسها تجد من هؤلاء المشعوذين الذين يدعون الارتباط بملوك الجن ويستحضرونهم ويسخرونهم لكشف الكنوز .

وفي قبائل البانتو لكل عائلة رئيسها ، وهو الذي يحافظ على التراث وتقاليد الاجداد ويدفع غضبهم . وهم يمنعون الشاب عن التزوج من نسيباته او من بنات قبيلته . وترى بعض القبائل تنظر نظرة احترام الى بعض الحيوانات كالدب مثلاً فانهم يحرمون قتله ويعتقدون بأنه لا يؤذيهم لما بينه وبينهم من القربى . فكيف نشأ ذلك ؟

يزعمون ان بين اجدادهم والعالم غير المنظور عقداً ومعاهدة صداقة تمت في اثناء تقديم الذبائح للاله . وبما ان اقوى رابطة هي رابطة الدم فأكبر حليف لهم هو الحيوان الذي يُضحّى للاله . وقد استحالت هذه الضحية الى شيء يفوق الطبيعة بحلول الروح عليها ، ومن هنا نشأت القرابة بينهم وبين الحيوان المضحى . ولكن هذه العقيدة اصبحت على وشك التلاشي في معظم قبائل البانتو . وان الكلام الذي قدمناه عن البانتو يصح في القبائل الاخرى لان الدين فيها ينشأ في العائلة اولاً ، ثم يمتد منها الى القبيلة ، فالدين يحرسها وينظم العلاقات بين افرادها فترى للزواج طقوساً خاصة . وكثيراً ما تقام هذه الطقوس قبل الزواج الفعلي اي عند دخول الزوجين الفتيين في سن البلوغ ، واكثر هؤلاء السودان يتبعون سنة الختان . ولا تنحصر هذه العادات في المجاهل الافريقية بل تتعداها الى متوحشي استراليا واميركا والجزر النائية .

ولكل قبيلة رموز وتقاليد تحافظ عليها ، واسلحة تقاتل بها يوم الغزو . ويتميز افراد القبائل بانواع من الوشم تظهر على الجلد او في الشعر ، وقد بالغوا في دقة الوشم حتى اصبحت عندهم في مكانة فنية عالية . اما وانهم حرموا من التفنن في التصوير والنحت في الجهاد ، فقد عمدوا الى اجسامهم يزينونها بضروب الصور التي لا يراها المتحضرون الا مسخاً للجمال وتشويهاً للجسم . وكل ما يستعصي على هؤلاء الاقوام شرحه من اسرار الطبيعة كحدوث الرعد والزلازل ونزول المطر وما شاكل ذلك ، ينسبونه رأساً الى الله ، لا باعتباره المحرك الاول الذي سخر الاسباب الثانوية ووضع لها نظاماً طبيعياً بل كسبب مباشر .

وهم يرهبونه كثيراً ويسمونه اب الآباء . واول ما يفعلونه عند طلوع الشمس هو ان يتألبوا وراء غيضة ملتفة ويولون وجوههم شطر الشمس. وانت كلما اتجهت الى الشمال الافريقي وجدت هذا الاعتقاد بالكائن الاسمى ينمو وينجلي رويداً رويداً غير ان هذا الايمان لا يحول دون تقديم القرابين للاجداد والاقرباء باعتبار ان هذه العرى الوثيقة التي تربط افراد العائلة على الارض لا تنفصم بالموت بل تبقى ممتدة الى الحياة الاخرى .

وقبيلة البوريباس (Poripas) التي تقطن وادي النيجر (Niger) تكرم الهة متعددة لكل منها اختصاصها ، فواحد للزراعة ، وآخر للصيد ، وآخر للبحر يحكم على الامواج ويلجمها في طغيانها ، وآخر يدير الكواكب وينظم حركاتها ، وواحد للحرب يستنصرون به على اعدائهم عندما يحمى الوطيس ، وآخر اختصاصي في جلب المكاسب التجارية . وتراهم يقدمون الطاعة للآلهة ولزعمائهم والاحترام لوالديهم ، ويجلون الرابطة الزوجية ، ويحرمون القتل والسرقة ، وللضيافة عندهم شأنها . ويعتبرون الزنى جريمة كبرى وكذلك الانتحار . ولكن اغرب ما فيهم انهم يحرمون السحر خلافاً لمعظم القبائل المتوحشة التي تخلط السحر والكهانة بالدين . وهم فوق ذلك كله يعتقدون بوجود اله ارفع من الآلهة الاخرى يسمونه رب السموات ، كما كان الاغريق يعتقدون بان الاله زفس (Zeus) هو فوق الآلهة جميعاً . اما في قبيلة الماسابي (Massabu) وهي قبيلة تعيش من رعاية القطعان ، فانهم يذكرون الله كثيراً ولكنهم لا يعرفون منه الا الاسم ، ويزدادون

حرارة في الصلاة عندما يصيبهم القحط ويجف الكلاء وتغيض المياه فيقيمون صلاة الاستسقاء يستنزلون بها المطر . ونساؤهم يصلين اكثر من الرجال وبحرارة اشد ، وهذه الظاهرة في النساء تكاد تراها في كل مكان وزمان سواء في ذلك المرأة المتحضرة والمتوحشة ، ذلك ان الابتهال مصدره القلب النابض لا العقل المتشامخ ، والمرأة خيال وقلب لا عقل وارادة .

اما القبائل المتوحشة الضاربة في استراليا فينطبق عليها ما قدمناه عن زميلاتها في افريقيا ولكنها تمتاز عنها باحترامها الشديد للاشياء التي تعتبرها مقدسة من شجر او صخر او ما شابه ذلك من الآثار التقوية ، فهي في نظرهم ظاهرة تدنسها ملامسة البشر لها . اما القبائل المتوحشة في القارة الاميركية فلا تختلف كثيراً عما اسلفناه بشأن سواها. فرئيس القبيلة هو زعيمها وكاهنها . وليس لهم هياكل ولا اصنام يلتمسون شفاعتها بل يحملون التعاويذ والتمائم دفعاً للامراض او للشفاء منها .

والفكرة السائدة عندهم هي ان الانسان غريب على الارض فلا يحق له ان ينتفع بهبات الطبيعة قبل مباشرة بعض الطقسيات ، خصوصاً عندما يتناول من الطبيعة ما اخفته عنه كينابيع المياه مثلاً ، فانهم لا يشربون منها او يغتسلون بها قبل مباشرة الصلوات والقرابين فيجلون الكائن الاسمى الذي وهبهم الارض ، ويعيّدون له في كل سنة ، ويعمدون الى بعض اثمار الغابة فيحرقونها في تقدمة له ، ويحيطون هذا الاحتفال بضروب من الرقص والغناء. ولكنهم يعتبرون هذا الاله فتاكاً متصلب القلب فهو الذي يهبط بين حين وحين الى محلتهم فيميت بعضهم ، لذلك

فهم يهربون منه. وهؤلاء الاقزام يعتقدون ان السرقة والزنى واختطاف البنات مع اغوائهن جرائم تغضب الخالق وتجلب عليهم النقمة. وبديهي ان زعم القائلين بان هؤلاء الفطريين ادنى الى الضواري منهم الى البشر زعم منافٍ للصحة.

يستنتج من كل ما تقدم ان الانسان منذ فجر التاريخ، وعلى الارجح من قبل ان يبدأ التاريخ، جاشت في صدره عاطفة دينية اختلفت باختلاف الزمان والمكان وتنوعت بتنوع الاقاليم وطرق العيش وامزجة الشعوب. وانك بقدر ما تعود كرّاً الى الوراء تلاقي هذه العاطفة قوية مجردة. فان الكلدانيين مثلاً كانوا دون اليونان ثقافة وفلسفة، ولكنهم اكثر تديناً واقرب من الرومان الى العقيدة الصحيحة، مع ان الرومان بلغوا قمة الحضارة والغاية في علم التشريع، وبسطوا مدنيتهم هذه في جوانب المعمور حتى لا تكاد تخلو من تأثيرها واحدة من المدنيات القائمة اليوم.

واننا اذا نظرنا نظرة شاملة الى الديانات القديمة بعد تجريدها من الفروق الاقليمية نرى عروقها تتلاقى على صعيد واحد. والنقاط المشتركة بينها عديدة، منها الكهانة التي يقوم بها رئيس العائلة في بادىء الامر ثم تتطور فتقوم بها فئة خاصة من القبيلة تتولى تقديم القرابين وتصبح الوسيطة بين البشر والقوة العلوية التي يحسونها مهما يخالط شعورهم هذا من الابهام، باعتبار ان وراء هذه الحياة الدنيا حياة اخرى، وان لهذا الكون مدبراً قوياً وخالقاً اسمى هو رب الموت والحياة، وان الانسان ضعيف فلا بدّ له من الالتجاء الى تلك القوة العليا. ومنها

الاعتقاد بخلود الارواح ووجود الصالحة والشريرة منها. ومنها تيقظ الضمير الانساني منذ البدء وشعوره بوجود الخير والشر والتمييز بينهما، وهذه خطوة مشكورة في الاخلاقيات، وان وراء القانون الموضوع قانوناً طبيعيا تمليه الفطرة على الانسان بدون اجهاد النفس في الاستنباط والاستدلال. وهذا القول يصح في الدين ايضاً لان المرء متدين بطبعه على رغم ما يرافق هذا التدين من الضلال والاوهام والسحر والخرافات. فاننا من خلال هذه الدياجير التي تخبّط فيها العقل البشري منذ نشأته، نلمح الشعاع الازلي يطل على النفس الانسانية، فتتضارب الآراء في تأويله، وتتنكره العيون الرمد، ونتجادل في ماهيته. ولكن هذا النور موجود فاذا انطوينا على انفسنا رأيناه في اعماق الانسان هذا المجهول الذي قال فيه الإمام علي:

وتحسب انك جرم صغير   وفيك انطوى العالم الاكبر

لمحاتُ في الدِيانةِ الهندية

لايخفى على كل بصير ما للهند من تأثير في مجرى الفكر البشري ، وعلى الاخص ما يتعلق بالدين . لذلك رأينا ان نستعرض في بعض مقالات اهم النقاط التي ترتكز عليها فلسفة الهند واديانها ، وهي من اعرق واقدم ما عرفنا من تاريخ الفكر البشري .

الهند قبل البراهمة

منذ فجر التاريخ تكونت في الهند القديمة فكرة خاصة تسربت اليها من التراث الآري الهندي (Indou-Arien) وهي فكرة دارت حول الحياة والكون ، وهجرة الارواح ، وانتظار الثواب والعقاب في حياة اخرى ، وكيفية التخلص من التناسخ اي تقمص الارواح باعتبار انه عقوبة للانسان ، اذ كلما عاد مرة الى الارض عاوده الالم وكان ذلك تكفيراً عن ذنوب سلفت في حياة اخرى سابقة . واجمع الهنود على ان الوسيلة الناجعة للتخلص من الألم هي السيرة الصالحة ، والتزام العفة ، وادراك المعارف المقدسة وقد تفرع على ذلك فكرة التقديس والتأليه . ولم يخرج عن هذه المبادىء الاساسية احد من العلماء الروحانيين في الهند حتى ان غوتاما بوذا نفسه لم يخالفها . والمرجح ان المثقفين من الهنود القدماء لم يؤمنوا باله ذاتي يستطاع تصوره ، وانهم بحجة اولى لم يؤمنوا بالصنم بل كان جوهر معتقدهم رياضة النفس على

التقشف وادراك المعارف الروحانية العليا سعياً للخلاص من التقمصات العديدة . ولقد نبتت على حواشي هذه الفكرة الاساسية طفيليات اخرى ،وهي فكرة تعدد المعبودات او الاعتقاد بمعبود واحد، ولكنه توحيد محفوف بالغموض رغم تسليمهم بان هذا الخالق هو مبدع الكائنات، مبدؤها وغايتها الاخيرة ، وانه كائن عقلي لا يدركه الحس. وبسبب هذا الاعتقاد ساد النظام في الأدبيات وعرفت الفضائل وحددت الخطايا وكُفّر المخالفون . وقبل ظهور بوذا كانت الصيغ الفلسفية وقضية الاتصال بالله (Théosophie) قد رسخت في الاذهان .

وقبل نشوء البراهمة كان الهنود القدماء يعتقدون بان سعادة الاموات موقوفة على الخدمات التي يؤديها حفَداؤهم الشرعيون من الذكور . وتفرع على ذلك ان الزواج إلزامي لان المتزوج يكفل الغبطة لأجداده ويؤمنها لنفسه بما سيفعله نسله من اجله. ومن هذه الواجبات المفروضة على الحفدة احراق الجثة ودفن العظام وبذل التقادم اليومية واقامة المآدب وما يرافق ذلك من الطقوس والعادات . ومن معتقداتهم ان الميت اذا كان من الاخيار وقدم الافعال الصالحة في حياته فانه ينعم بالملكوت النوراني في معية الملك الاول ياما، ويكون في صحبة اجداده المغبوطين الذين يرحبون بأعقابهم الاتقياء الداخلين منازل النور هذه . اما المحرومون من مملكة النور فغالباً ما يكونون في عداد الاشباح الهائمة. ولكن قضية العقوبة الاخروية وتفصيلها لم تبحث بحثاً جدياً في هذا الطور الاول من تاريخ الهند .

ولقد آمنوا ايماناً راسخاً بان الآلهة تبغي القرابين المستمرة فكانوا

يرفعون لديها الصلوات مستمطرين الذرية الوافرة من الذكور ، والعمر الطويل ، واقتناء القطعان العديدة ، والحصول على الثروة والغنائم .

وقلما كانوا يصلون مستغفرين من ذنب او متخوفين من عقوبة. وفي الغالب كانت تنشد هذه الصلوات انشاداً يرافقه النغم والايقاع في احتفالات متعددة تقدم في اثنائها الاطعمة للآلهة . فاذا كان الاحتفال شائعاً أضافوا الشراب المسكر الى المائدة ، وهو شراب السوما الذي كان يسكب غالياً على نار المحروقات معتبرين ان في الآلهة عطفاً على المخلوقات ، وانها تسرّ بالضحايا وبينها من يهتم كثيراً للاخلاق والادبيات .

وعلى رأس هذه الآلهة اهيرا (Ahura) وهو المبدع الحافظ للاجرام السماوية والكواكب، وإندرا (Indra) وهو اله الحرب وله ولع بالشراب وعلى الاخص شراب السوما (Suma) وهو الذى ينزل المطر فيروي الارض ويملأ الانهر والغدران ويفتك بالشياطين المبثوثة في الاجواء .

اما الاله المحبوب فهو النار (Agni) لأنه اقرب الآلهة من البشر اذ انه رب وصديق معاً يحمل تقادم الناس الى الآلهة . ومنها الاله الشمس الذي يسيّر هذه المركبة الذهبية في الجو ، وهو يبصر في الليل بواسطة النجوم لأنها عيونه . ولم يزل الملايين من الهنود يرفعون صلاة الصبح للاله سافيتا (Savita) وهو احد القاب الاله الشمس فيبتهلون اليه اليوم كما كانوا يضرعون اليه منذ اربعة آلاف سنة . وعلى الرغم من الاعتقاد بهذه الآلهة فان السحرّ ظل يفعل فعله في الهند ، وان في ما قدمناه عن الديانة الهندية القديمة نقاطاً عديدة تشترك فيها سائر الاديان العتيقة

خصوصاً عبادة الاجداد والتضحية لهم والتخوف من عقابهم وبذل المشروب والمأكول لهم والاعتقاد بالسحر ومفاعيله .

اما البرهمية فمعناها الأساسي الصلاة وقد ذكرنا ان الحفلات الدينية كانت تتوالى وتقدم في اثنائها القرابين وترتل الاناشيد. ومعلوم ان الشعب كله لا يحسن القيام بهذه الطقوس ، فلا بد من فئة مختارة تتولى هذا الامر . فالبراهمة هم في الاصل هؤلاء الكهان ومهمتهم في الهند شبيهة بمهمة اللاويين في الشعب الاسرائيلي . وقد لبست هذه الطقسيات شكلاً مقدساً بمرور الزمن ، وكانت كلما اوغلت في القدم حسبت وحياً وتنزيلاً ، واضحت علماً خاصاً ، له مراسيمه واشكاله ، ولأهله منزلة اجتماعية عالية. وغدت هذه الوظيفة وراثية وافرادها يعتبرون الوسطاء بين الآلهة والناس ، لا تقتصر مهمتهم على تقديم القرابين فهم الذين يتولون ادخال الاحداث في الدين ، ويلقنونهم العلوم الابتدائيه المؤهلة وكلمتهم هي العليا .

واخذت مهمتهم تمتد وتلبس لوناً جديداً . فان النصوص القديمة كانت مجموعة صلوات واناشيد ترافقها بعض القرابين من الطعام والشراب . وهي بمثابة عقد بين الانسان والالهة يتخلى الانسان بموجبه عن بعض مقتنياته لهذه المعبودات . اما البراهمة فاستنتجوا من ذلك اسراراً ورموزاً ثم تخطو الى الابحاث اللاهوتية وابتدعوا علم ما وراء الطبيعة، يشرحون بذلك ماهية الآلهة ومصير الاموات واصل الكون وما يتصل بذلك ، وتفتحت لهم آفاق نظرية كثيرة ، والمرجح انهم اهتدوا اليها اما بواسطة الاستقراء او بتأثير البيئة الهندوسية .

وبعد ان انعم البراهمة النظر في تلك الآلهة المتعددة تصوروا ان مصدرها واحد فقرروا ان ذلك الاله القدير خلق من ذهب طغا على وجه المياه القديمة ، وان هذه القوة المبدعة هي التي تحفظ العالم ، وان الكون كله في هذا الاله، ولكن الاله ليس موجوداً كله في هذا الكون بل ربعه في الكون وثلاثة ارباعه الباقية في السماء . وهذا هو مبدأ مذهب الحلولية (Panthéisme) الذي اعتنقه كثيرون من فلاسفة اليونان . اما زعيم الفلاسفة الحلوليين في العصور الاخيرة فهو الفيلسوف سبينوزا (Spinoza) . وزعم الهنود القدماء ان الروح قرين الجسد اي نسخة عنه ولكنها اخف والطف ، فهو جسم روحاني مركب من الاثير ولكنه لا يقع تحت الحواس بالنظر لما فيه من الدقة . وهو المبدأ الحيوي المحرك وقد اطلق عليه البراهمة اسم اتمن (Atman)ومعناها النسمة وهي النفس.وهذا الجوهر يظهر في حالات الانخطاف وهو عقل وحياة كذات الله .

وقد علّم البراهمة ان النفوس تهاجر بعد الموت قاصدة الشمس ثم تنزل منها مع قطرات المطر فتغذي النبات والحيوان . وبعد ان كان المعتقد الاول بان الولادة ثانية على الارض عقوبة ، زعم البراهمة بأنها شيء طبيعي يلحق بالمخلوقات ولا تعفى منه الآلهة ولا الشياطين ، وان الالم هو الاصل اما السرور فهو نقطة صغيرة بالنسبة الى خضم العذاب، وان لا غبطة الا بالاله برهما ساكن السماء . ولكن روح الميت يجب ان تبلغ من الرفعة مكاناً قصياً بحيث تتجاوز الشمس حتى لا تسقط ثانية الى الارض ، بل تذهب الى الراحة الابدية حيث تتلاشى في المطلق .
وقد غير هذا التعليم البرهمي في مجرى الحياة الهندية وقلل من اهمية

الطقوس ، وصرفها من مادية محضة الى رمزية روحانية ، واستخلصوا من ذلك ان المرء مجازى بعمله فعليه ان يفعل الخير ، وان النقطة المهمة هي معرفة الحقيقة وادراك الغاية الاخيرة والاتصال بها ، وان هذا الاله يتجلى بعضه في المخلوقات او في بعض مظاهر الطبيعة كالشمس مثلاً .

ولم يسلك البراهمة وحدهم سبيل التقشف والزهد بل تابعهم على ذلك فريق من الاعيان والوجوه ومنهم غوتاما بوذا كما سيأتي . وقد بقيت في البرهمية آثار كثيرة لعادات الهنود القدماء ، منها عادات السحرة التي نقلت الى التصوف الهندي وفيها الصوم والكفر بالجسد . ولك في فقراء الهنود اليوم امثال كثيرة على ذلك . واذا سمعت ان في الهند رهباناً وسكاناً يشحذون ويتقشفون ، فلا تنس انهم يسعون الى ابتداع الخوارق اكثر مما يسعون الى الخلود ، وان التقشف الهندي انما نبت في بيئة وثنية .

البوذيّة

قبل ان نعرض للتعاليم البوذية التي تغلغلت في مناطق كثيرة من الشرق الاقصى واثـّرت تأثيراً كبيراً في مذاهب الناس وطباعهم ، وبدّلت كثيراً من اخلاقهم ، نرى لزاماً علينا ان نقول كلمة موجزة في شخصية بوذا وهي من اكبر الشخصيات العالمية ، وقد رفعها بعض اتباعه الى درجة الالوهة .

لا نعلم بالتدقيق تاريخ مولد غوتاما بوذا ولكنه ولد على الارجح في اواخر القرن السادس قبل المسيح . وهو من قبيلة السكياس في الهند ، وقد انصرف منذ فجر شبابه الى التأمل الروحاني، وشهد مجالس شيوخ العلماء واستنار بآرائهم دائباً في البحث عن طريق الخلاص وقد تأثر كثيراً بالتصوف والانخطاف الروحاني . وبعد ان صرف زمناً غير يسير في هذه الدروس النظرية شعر ان هذه الدنيا هي وادي الدموع فطلقها طلاقاً غير ذي رجعة ، وهجر عائلته النبيلة وهو ابن رئيس القبيلة وربيب النعيم والقصور ، وعكف على تقشف هائل في عزلة موحشة شبيهة بعزلة اكبر النساك المسيحيين . وقد نهج في ذلك نهج زهاد البراهمة الذين تقدموه في الانقطاع عن العالم . وبعد هذه الخلوة الرهيبة التي استمرت بضع سنوات احس كأن الوحي هبط عليه واعلن عن نفسه انه بوذا ومعناها الملهم او الموحى اليه . وادرك اذ ذاك انه مضطر للخروج من عزلته واذاعة تعاليمه بواسطة التلاميذ والرسل ،

حوله عدد وافر من التلاميذ والنساك الشحاذين يلزمونه متفانين في طاعته ، ناهجين نهجه في سبيل الزهد والابتعاد عن الشهوات . ولم يقتصر امره على هؤلاء التلاميذ بل تعداهم الى الجماهير العديدة من العلمانيين الذين تأثروا بتعاليمه. وسرت موجة الاعجاب بتلك الشخصية الرائعة الى جميع طبقات الامة سواء في ذلك الامير والفلاح والبرهمي الشريف وراعي القطعان . وكان اقبال نساء الطبقة الغنية على اعتناق المذهب الجديد اقبالاً لا مثيل له، وقد أفضن الهبات على الرهبانية التي اسسها بوذا وانضوى تحت لوائه شتيت النساك ، واتبعه افضل شباب الهند وأوفرهم علماً ، لان مذهبه كان مزيجاً من مذاهب عديدة ترمي كلها الى التخلص من الشهوات . وقد احدث ذلك ثورة عظيمة في النفوس حتى ان الاغنياء كانوا يهجرون اموالهم ، والفقراء يتخلون بحماسة شديدة عن امتعتهم الضرورية التي يقوم بها معاشهم . فالرجال تهجر نساءها والنساء يتركن ازواجهن فتقفر البيوت والعائلات ، كل ذلك زهداً في الدنيا وتجرداً منها .

ويروى ان احدى النساء تبعت زوجها الذي هجرها للدخول في الرهبانية الجديدة وألحت عليه بالرجوع وذكرته بولده الوحيد استعطافاً له فقال لها : يا شقية ، اني لا اتحول عن عزمي هذا حتى ولو رميت بولدك الى الثعلب بين سمعي وبصري . فتأمل هذه القوة الجامحة التي اجتاحت الجماهير كالزوبعة تجتاح الهشيم ، ذلك انه لم يقم في الجماهير اقدر منه على الاستهواء والتبشير . فقد اقنع الناس بان الدنيا في جحيم مستعر ، وان على من اراد الخلود والتخلص من الرجوع الى الحياة ثانية

ان يترك هذه الدنيا ويطّرح كل ملذاتها . ولا ريب ان المؤرخ المنصف يرى في هذا الانسان رجلاً فوق الرجال وشخصية من ادهش الشخصيات العالمية . وبعد مضي فترة من الزمن تطور اعتقاد البوذيين بشخصية مؤسسهم ، ويسمى هذا التطور عهد البوذية الجديدة . وقد اعتقد بعض اتباعه ان غوتاما مظهر من مظاهر الالوهة على الارض ، وانه قبل ان يهبط عليها كان يحكم على الآلهة من علياء سمائه ، وفي جسده علامات خاصة تدل على الوهته او تثبت على الاقل انه فوق البشر . وعقيب موته تزاحم الناس على الاحتفاظ بشيء من ملابسه وذخائره . اما في بادىء الامر فقد اعتبره انصاره رجلاً متفوقاً حتى ان تلاميذه ، على اعجابهم به ومحبتهم الفائقة له، لم يخطر لهم ان يضعوه في مصاف الآلهة ولكن العامة ، شأنها في كل آن لا يرضيها الا الخوارق ، وتميل بطبعها الى المبالغات والخرافات ، رفعته الى سدرة الالوهة . وقد صرح هو نفسه في عدة مناسبات انه لا يهتم لنفسه شخصياً . والدليل على ذلك قوله : « من رأى مذهبي فقد رآني ، ومن تعامى عن طريقي فلا يراني ولو لمس ثوبي » . غير ان هذا الكلام الصريح لا ينفي كون التعلق بشخصه يولي صاحبه كثيراً من البركات والنعم . فان احد اتباعه أننده (Ananda) ، وهو احب المقربين اليه واشد تلامذته تعلقاً وايماناً به ، كان يبالغ في تعظيم معلمه على مسمع ومرأى من سائر التلاميذ ، فلامه احدهم فصرح بوذا ان هذا التلميذ الحبيب اذا مات قبل بلوغه درجة الكمال التي تؤهله لبلوغ النرفانا اي الخلود النهائي في الغبطة ، فمجرد ايمانه به يوليه الحق بان يكون في خلال سبع رجعات متواليات ملك

الآلهة ، وفي سبع اخرى ملك البشر ، ولكن أننده سيبلغ النرفانا فور موته . اما النرفانا فسنفرد بحثاً خاصاً لدرس ماهيتها .

ولنبحث الآن اهم المعتقدات البوذية . فانها تؤمن برجعة الارواح وهجرتها الدائمة اي بالتناسخ ، وبالجزاء على الافعال التي يأتيها الانسان فانه يجني ثمرة عمله ان خيراً فخيراً وان شراً فشراً . وعلى الارجح ان بوذا لم يبتدع هذا الرأي بل حدّده واضاف بعض الشيء الى النصوص البرهمية القديمة . اما الفعل الذي يعنيه فهو الفعل الادبي . واعلن ان التقادم والقرابين ليست شيئاً محرماً بحد ذاته ولكنها على كل حال لا تجدي شيئاً في سبيل الخلاص على حين ان البراهمة ، رغم الحد من مفعول الطقسيات في سبيل السعادة الابدية ، ظلوا متمسكين بتقديم القرابين للآلهة والاجداد ، ومتعلقين تعلقاً شديداً بالصيغ الشكلية . ولا ريب ان التعليم البوذي رفع المستوى الاخلاقي بانقاذه الفكرة الدينية من معظم الخرافات والصيغ التي لا طائل تحتها . وان تبشيره بالثواب والعقاب شحذ كثيراً من العزائم للتمرس بالفضيلة ، وحرّم القتل والزنى والسرقة والمكر والكذب وما يتصل بها من المعاصي . ولم يكن البراهمة ليعتقدوا بخلود الآلهة الثانويين الذين هم دون برهما ، وزعموا ان في استطاعتهم ابطال قوى الآلهة بقوة سحرهم . اما البوذيون فيعتقدون ان البوذي العادي يفوق هؤلاء الآلهة مرتبة وكمالاً .

اما في شأن الزواج فرأي البراهمة اصوب من التعليم البوذي ، لان البرهمية تقول بان في استطاعة الانسان ان يبلغ الخلاص ولو كان متزوجاً ، اما البوذية فهي مقاومة لفكرة الزواج وبالنتيجة فهي فكرة هدامة من

هذه الجهة وتشابه رأي الفيلسوف الالماني المتشائم شوبنهور على اختلاف بينهما في السبب والغاية .

وقد جعلت البرهمية مكانة عليا للتقشف الشديد والانفراد كأن يكون الحبيس منعزلاً . اما بوذا فآثر على ذلك الرهبانية المشتركة في الصوامع . وفضل على مظاهر التصوف والاختطاف العمل العقلي اي سيادة العقل على الحواس ، وفضل التأمل النفساني على العقوبات التي يفرضها الناسك على نفسه . اما نظام معيشة رهبانه فهي طريقة وسطى بين الترف الذي ينعم به العلمانيون والجوع الذي يقاسيه الحبساء ، وهي طريقة سديدة على ما ترى . ولكن هذا النهج الذي سنّه لاتباعه لم يتبعه هو عندما كان منعزلاً بل سلك طريقة التقشف البرهمية الشديدة الوطأة . ويظهر انه ادرك ان المبالغة في التقشف تفضي الى تهديم الجسد ، فاذا رافقه التمرس بالانخطاف الصوفي آل الامر الى الجنون . وهذا لا يعني انه الغى التصوف فان البوذية ساعدت على ازدهارها ، ولكنها ركزته على العقل لا على الطريقة البرهمية القديمة المشابهة للتنويم المغناطيسي .

اما رهبانه فكانوا مقيدين بالطاعة للنظام واهم نقاط هذا النظام العفة والاخاء والفقر والزهد ، ولكن معلمهم لم يمنعهم قط من اكل اللحوم . اما غذاء الرهبان فكان موفوراً بما يشحذون من المحسنين وما يدخر في الاديار من القوت . وكان التأمل العميق نقطة الارتكاز في حياة الراهب العقلية . ورغم ان النذر الذي يقوم به الراهب هو نذر على مدى الحياة ، فكان باستطاعته الرجوع الى العالم اذ عجز عن حمل

هذا النير الثقيل . وهنا نتساءل عن الغاية من الحياة الدينية . والجواب على ذلك هو ان البوذيين وسواهم من الطوائف الاخرى كانوا يسعون من وراء هذه الحياة الى الراحة الابدية . اما الذين كانوا يمدون الرهبان بالاحسان ويطعمونهم فثوابهم انهم لا يدخلون جهنم للتكفير عن خطاياهم بل يعذبون في مكان آخر عذاباً يسيراً ويولدون ولادة ثانية محفوفين بغبطة وسعادة . ولكن ممارسة الاعمال الصالحة العادية وبذل الحسنات لا يعفيهم من سنّة التناسخ ، لان الغبطة الابدية لا يبلغها الا المعتقدون ببوذا والذين يعملون تحت امرته اعمال الخلاص وهي العفة وممارسة الحياة الرهبانية والتأملات العقلية العميقة .

لقد بيّنا بعض الفروق بين البرهمية والبوذية ولكنها في الحقيقة فروق ظاهرية ، فان كلتيهما تحلم بحياة روحية منزهة عن المادة ، وترمي الى التخلق بالادب والفضل ، وتعتمد التأملات الروحية ، وتجعل هذه التأملات شرطاً للوصول الى النرڤانا او الى سماء برهما حيث يتلاشى المغبوط في اللانهاية .

فهذه النقطة تعود الى البحر الخضم . ولكن ما هو محور التأملات التي ترتكز عليه البوذية ؟ لا ريب انه تأمل اجوف لا موضوع له . وترى الفئتين متفقتين على وجود العقاب والثواب ، وعلى الاعتقاد بالتناسخ ، ومن قال بخلاف ذلك فهو في نظرهما كافر . اما اختلاف البوذية والبرهمية على وجود الاله الاكبر وتحديده وكيفيته فانه لا يفضي بحسب معتقدهم الى نتيجة فعلية مهمة لأن الانسان يجني ثمرة عمله على كل حال وبذات الفعل . وانك ترى كثيراً من امثال هذه الفروق

والخلافات تنشب بين ابناء الملة الواحدة . فقد قام بين المعتزلة والجبرية امثال هـذه الفروق مع انها تؤمن ايماناً واحداً بالعقائد الانسانية الكبرى .

وكذلك قام بين فئات من الكاثوليك وبـين الانجيليين انفسهم مجادلات عنيفة على تفاسير النصوص وما اليها . ولا تنس ان اكثر المعتقدات البرهمية والبوذية امتدت الى العالم كله . وان آثارها لم تمتد الى الشرق فقط بل أثـّرت في الغرب تأثيراً عظيماً . وترى الكثيرين اليوم من المفكرين الاوروبيين يعتنقون المبادىء الهندية ، فهم اما ان يأخذوها على علاتها او ان يبدلوا فيها بعض التبديل . وفي المقال القادم سنبحث ان شاء الله ماهية النرڤانا في المذهب البوذي .

ماهي النرڤانا ؟

يتبادر الى الأذهان ان النرڤانا في نظر الهنود هي مقر النعيم الابدي يغتبط فيه الابرار ثواباً على ما قدموه في الحياة الدنيا من الصالحات . ويظن فريق آخر انها مكان يتلاشى فيه الالم بعد الموت . ويزعم غيرهم انها عدم محض . وبمثـل هذه السهولة تراهم يشرحون مسألة النرڤانا والحال ان الجواب عليها لأصعب مما يتصورون . وقـد ضل في تفهم النرڤانا المؤلفون الاوروبيون والهنود البوذيون على السواء .

اما الاوروبيون فقد تصدى كثير منهم لدرسها ، وتبارى في ذلك البحاثون الالمان والانكليز والفرنسيون وبذلوا الجهد في ايضاح بعض النقاط الغامضة ، ولكن اكثرهم اخفقوا في البحث . وسبب هذا الفشل هو انهم بحثوا المشكلة عـلى ضوء الفلسفة الغربية ، وقاسوا بالمقاييس الفرنجية ، فكانت نقطة الارتكاز خاطئة لذلك جاءت النتائج متناقضة . فاستنتج بعضهم انها الخلود والنعيم الدائم ، وزعمت الكاتبة ريس دافيس (Rys Davis) ان الخلود المعني هنا هو الرحيق العنبري يغتذي بـه الاطهار ، وان النرڤانا هي الخلاص ومنتهى الحكمة البالغة التي يدركها الانسان بعد انعتاقه من الميول والشهوات وارتشافه كوثر الحقيقة الذي يطفىء ظمأهم . وزعم كرن (Kern) ان البوذيين عندما يقولون ان بوذا المنتصر غلب الموت واكتشف باب الخلود يعنون بذلك انه انتصر على التخوف من الموت ورهبته واكتشف طريق الخلود الذي

يقوم بحسب رأي رينان (Renan) بالتغذي من الحقائق السرمدية التي تخضع الموت لشوكتها فلا يعود شبحاً مروّعاً بل يصبح حلماً حبيباً . وزعم غيرهم ان بوذا قصد بهذه اللفظة القداسة الخالصة . وقال سواهم انه احتفظ بتفسير هذه الكلمة ، وحرّم على المؤمنين الخوض في تحليلها. ولكن اكثر المؤلفين الاوروبيين الذين تصدوا لهذه الأبحاث اجمعوا على ان الطبقة العامة في البوذيين تحسب النرڤانا نعيماً مقيماً . ونظراً لهذا التناقض الكثير فاننا سنبسط بعض اجوبة المؤسس العظيم نفسه بما يتعلق بالنرڤانا وما يتصل بها .

سئل بوذا عن شريعته فأجاب : هي الابتعاد عن الشر وتطهير الفكر . وسئل هل يرى رأي سواه في اعمالنا الشريرة في حياة سالفة تجرّ علينا ما نلاقيه من العذاب والألم في حياتنا الحاضرة فاجاب: اعملوا الصالحات وتجنبوا السيئات. وسُئل عن تلاشي الإنسان بالموت فاجاب : انني ابشر بتلاشي الميول .

ولقد بدأنا منذ الآن نلمس كثرة تحفظ بوذا في الاجوبة كما انه رفض الاجابة عما يعتقده بأزلية الكون ، وعن ماهية العنصر الحيوي في الجسم ، وهو النفس أيختلف او لا يختلف عن الجسم ، وهل القديس يحيا بعد الموت او يتلاشى تماماً .

وقد جاءه ذات يوم احد تلاميذه واظهر شدة استغرابه لسكوت المعلم عن هذه الاجوبة ، فقال له بوذا : هل قلت لك اتبعني وكن لي تلميذاً فأعلمك كون العالم خالداً ام غير خالد او هل يحيا القديس او

يتلاشى بعد الموت. فاجابه التلميذ كلا. عندئذ ضرب له بوذا المثل الآتي فقال :

رجل اصيب بسهم مسموم فاستدعى اهله طبيباً لمعالجته، فما رأيك في هذا الجريح لو قال لطبيبه لا ادعك تمسني قبل ان اعرف من رماني وما اسمه واشكاله وهل هو شريف او برهمي . انما كان يموت الرجل من جراحته في هذه الفترة ؟ وانا لم اعلّم تلاميذي شيئاً عن خلود العالم او بقاء القديس بعد الموت لان معرفة هذه الامور لا تنفعهم في طريق البرارة والوصول الى النرڤانا اما انت فتعلم الحقائق الاربع المهمة وهي وجود الألم ومصدره والطريق المفضي الى انعدامه .

وسئل عن النرڤانا أهي عدم ام سعادة ابدية فلم يدلِ بجواب وهذا هو سبب التخبط في المشكلة . وقد سأله احد تلاميذه قائلاً : لقد حان لي ان ادخل في النرڤانا فأجابه بوذا : شأنك وما تريد ، فكما ان الزيت والسمن يحترقان بدون ان يتركا رماداً فكذلك انت ستصعد في الاجواء ثم تدخل النرڤانا وكما انك لا ترى اين تذهب النار التي تتلاشى رويداً فكذلك يتعذر القول الى اين يذهب الطوباوي الذي بلغ السعادة الابدية. وقد شرح احد علماء الهنود هذا الكلام فقال : ان النار عندما تنطفىء لا تتلاشى بل تصبح شيئاً آخر يتعذر على البصر ادراكه وكذلك القديس عندما يبلغ النرڤانا لا يبقى انساناً او احساساً او فكرة . وانما الخلاص والغبطة الابدية هو ان يتجاوز الانسان كل ما يستطيع الخيال تصوره من الصيغ والاشكال . وقد سأل احد تلاميذ بوذا رفيقاً له كيف تكون النرڤانا مقام غبطة مع انها مقام انقطاع

الحس فأجابه الآخر : ان انقطاع الحس يجعلها غبطة لان الحس هو مصدر الشهوة والشهوة هي مصـدر الألم فحيث لا حس ولا شهوة تكون الغبطة .

النرفانا على الارض

تعتقد البوذية ان النرڤانا أي الغبطة تبدأ على الارض فتكون مقدمة للغبطة فيما بعد الموت ، لأن بوذا وعد بها رفاقه الخلّص فقال لهم : انني ادركت الخلود فاذا اتبعتم تعاليمي فانكم منذ الآن تدركون الخلود الذي هو غـاية الطهارة والحياة الدينية التي من اجلها يهجر الانسان اهله وذويه . وانـكم تحسون هذه الغبطة في داخلكم وذلك ما كان يعنيه البراهمة بقولهم ان النفس تتحد مع الاله برهما فيكون في داخلها وذلك بعد الانخطاف الصوفي ، والتخفف من أدران الرذائل وتنقية الضمير . ويزعم البوذيون ان الفئة التي لا تستشعر هذه الغبطة الداخلية هي فئـة كثفت عقولها وغلـُظـَتْ بسبب الميول لانها لا تشاهد الّا ما يقع تحت الحواس كالألوان وما يتصل بها . اما النرڤانا فهي من نوع آخر ولا يستطيع ادراكها الّا الخاشع المتصوف فاذا خرج من تصوفه وانخطافـه صاح ايتها النرڤانا ! ايتها الطمأنينة والتلاشي والسكون الحبيب !

واذا كان العميان لا يبصرون الازرق والاصفر فلا يحق لهم أن يقولوا للمبصرين ان الألوان معدومة .

واذا انت تأملت الصوفية الحديثة لا تجد فرقاً كبيراً بينها وبين

هـذه الصوفية الهنـدية لأنها ترمي الى التمرس بالفضيلة والانخطاف والاتحاد بالله ، والهندية ترتكز على المبادىء نفسها توصلاً الى النرڤانا . ولكن بوذا صرح انه هو وحده يستطيع الاتحاد بالنرڤانا كاملة ، لما له من الافضلية والمنزلة العليا . اما من سواه من القديسين فانهم يشهدون على هذه الارض الطريق الموصلة الى النرڤانا . وقد ذكرني هذا الزعم ببيت لشوقي من قصيدته في دمشق حيث يقول :

حسبت لبنان دارات الخلود وما نبئت ان طريق الخلد لبنان

ظهر ممـا تقدم ان بوذا كان يتهرب من بعض الاجوبـة الصعبة كسرمدية العالم وتحديد النفس وما شاكل ذلك لأن من اجاب على واحد منها كان كمن يغرز قدمه في الوحل كلما حاول النهوض زاد غرقاً ، وان الرجل كان يعنى بالاشياء العملية الاخلاقية مبتعداً قدر الامكان عن بحث ما وراء الطبيعة . ويرى اللاهوتيون انه كان يخاطب الناس على قدر افهامهم فيوضح حيث يجب الايضاح ويترك المجـال للتفسير والتأويل في مواطن اخرى فهو لا يريد نفي وجود جهنم مثلاً لئـلا تتفلت العامة من قيودها ، ويريد ان يتجرد الحكماء من الانانية ، وعنده لكل مقام مقال .

ومجمل القول وخلاصته ان بوذا رأى الحياة كلها ألماً وان ما نحسبه لذة وسروراً هو انقطاع الألم موقتاً لان العـذاب القاعدة اما اللذة فشذوذ وعذاب ملطف ، كما لو كان الانسان ظامئاً متحرقاً في البيداء فانعشته بشربة ولو كان الماء فاتراً ، وكما يجد المتعب بحمل بهظ كتفه

الايمن لذة بنقله الى كتفه الايسر . وقد علم بوجوب التجرد من الاثرة وبان نفعل الخير من اجل الخير لا طمعاً بالنرفانا لان الطمع فيها يبعث على حب الذات . وانت ترى في هذا المقال الموجز مبلغ اهمية الرجل في تطور البشرية وتأثيره في عالم الفكر .

الدّينُ في الصّين

من المألوف في درس الاديان ان ترى الشعب يبدأ بدين منحط ثم يتطور المعتقد ويرقى رويداً رويداً . غير ان الظاهرة جاءت معكوسة في الصين فقد بدأت العقائد في الذروة ثم تدهورت الى اسفل الوادي . وانـّا لا نعرف الشيء الكثير عن ديانة الصينيين في ما وراء القرن الخامس عشر قبل المسيح الا ما كان من قبيل الحدس والتخمين . ولكننا نعلم ان حوالي القرن الرابع عشر اي منذ ثلاثة آلاف واربع مائة سنة كان الصينيون القدماء يعتقدون بوجود سيد مطلق لهذا الكون ، يعبدونه ويلجؤون اليه فهو الذي يغدق الخصب والخير ويرميهم بالقحط والوباء جزاء لما يفعلون من الخير او يرتكبون من الشر . وهذا ينفي زعم القائلين بان الصينيين عبدوا بطلاً قديماً دعوه العالي المطلق . ويزعم بعض الباحثين ان حق التعبد لله والاتصال به كان وقفاً على الامبراطور وحده ، اما من دونه من الموظفين فيحق له تكريم ارواح اجداده او ارواح الابطال القدماء الذين يختارهم موضوعاً للتعبد . اما الشعب فقد حرمت عليه الصلاة والعبادة ما دام الامبراطور يصلي بالنيابة عن رعيته وقد سمح لافراد الشعب بتكريم اجدادهم ووجبت عليهم الطاعة لوالديهم .

ولم تكن التعاليم الاخلاقية رفيعة المستوى برغم اعتقادهم بالثواب والعقاب وانهم لم يقيموا حدّاً فاصلاً للتمييز بين الخير والشر . وانما

فرضت الحكومة على افراد الرعية عمل الحسنى ارضاء للحكومة وللاهل لا ابتغاء وجه الله . واخذت عادة تكريم الاجداد تنمو مع الزمن حتى بلغت حدّ الخرافة والوثنية . ولعل اغرب ما في القرابين التي كانوا يقدمونها ضحية لإله السماء تضحية السلحفاة فانهم كانوا يعتقدون ان الطبقة العظمية العليا منها تمثل السماء بانحنائها وتحديبها ، اما الطبقة العظمية السفلى التي تلي بطن السلحفاة فتمثل الارض ، وجسم السلحفاة نفسه رمز للبشرية القائمة بين الارض والسماء ، فعندما توضع السلحفاة على النار وتأخذ الطبقة العليا بالاحتراق والفرقعة يلتف حولها المتكهنون ويفسرون الفرقعة وتطاير اجزاء القشرة برموز والغاز يحلونها ويدركون ما هي ارادة السماء . وكانوا يذبحون الثيران ويقدمونها محرقات على رؤوس الجبال معتبرين ان الدخان الذي يتصاعد من المحرقة يحمل الى ساكن السماء اخبار الارض وآمال العابدين .

وقد كان لتكريم الاجداد شأن خطير في العائلات اذ كان الحفداء يضعون على مائدة خاصة اشهى انواع المأكول والمشروب ويقيمون الزفة والغناء ويدعون الميت للأكل فيتخذون له من الاطعمة الاصناف التي كانت تروقه في هذه الحياة الدنيا . وهم على يقين من ان الروح لا تأكل ، ولكن الأصل في الاعمال النيات ، فهم يسترضون الاجداد ويتزلفون اليهم بهذه الطريقة ملتمسين الرضى والبركة. ورغبة في تقريب هذا التمثيل الرمزي من الحقيقة كانوا يلبسون احد حفدة الميت ثياب الجد التي تحفظ بعناية خاصة في خزانة العائلة ، وكان هذا الحفيد الوسيط يقبل على المأدبة الرمزية ناعماً بأهنأ المأكول والمشروب .

هذه صفحة موجزة عن الاعتقاد الصيني القديم وهو كما ترى قد بدأ بالتوحيد رغم ما رافق هذا التوحيد من ضلالة ، وقد كان ذلك بين القرن الخامس عشر والثالث عشر اي قبل بلوغ الاباطرة التشيو (Tchéau) سدة الحكم . ولنرَ الآن ماذا طرأ على المعتقدات في عهد هؤلاء الملوك الذين حكموا الصين زهاء ثماني مئة سنة .

ظلت العقائد في الثلاثة القرون الاولى من عهد التشيو (Tchéau) على ما كانت عليه قديماً ولكن هؤلاء الملوك حاولوا بعد ذلك معرفة ارادة السماء بالتنجيم ومراقبة الظاهرات الجوية ثم تسرب الى المعتقدات كثير من السحر والخرافات ، وداخلتها البرهمية عن طريق الهند فاصبحت العقائد فوضى . والذي زاد في البلبلة انهم قسموا الفضاء الى خمس مناطق زاعمين ان الانسان يعمل باربعة اعضاء هي اليدان والرجلان، والله يعمل في مناطق خمس فدعوه السامي لانه يقطن السماء ودعي « السماء » لانه فوق كل شيء ، و « السيد » لانه يعلو على الجميع وهلم جرّاً .

وقد يعترض معترض فيقول ان تعدد الاسماء لا يعني خروجاً على التوحيد لاننا في هذا العصر نطلق عليه تعالى الاسماء الحسنى فندعوه المهيمن والرحمن والمحيي والقادر الى آخر الباب وهي صفات متعددة تشير الى واحد فقط. اجل ولكن نقطة الذهاب عند الصينيين القدماء تختلف كثيراً عما نقصده نحن بتعدد الصفات ، ذلك لان لأمبراطور الصين وحده حق الاتصال بالسيد السامي ، فلهذا السبب عدد الزعماء المناطق ليحق لهم الاتصال بما هو دون السيد السامي فقسموا الفضاء وعددوا الاسماء ونجم عن ذلك فيما بعد تعدد الآلهة . ثم تصوروا ان الالوهة تتخذ اشكالاً انسانية واخذ الانحطاط يتزايد فزعموا ان نفوس

الاجداد والابطال تستطيع الاكل والشرب فعلاً ، فاذا لم يقدم لها الطعام جاعت وغضبت وانتقمت من المتكاسلين . وفضلاً عن ذلك فهي تستطيع ان تتقمص في اجسام حيوانية . لذلك ظلوا على اتصال دائم بهؤلاء الأقارب المتوفين حتى انه عند وقوع كارثة عائلية كان احد الخدم المخلصين يتطوع للانتحار ليستطيع الانتقال الى الحياة الاخرى، ويحمل الى الاجداد انباء الفجيعة او الحوادث الجسام التي مرت بذوي قرباهم على الارض ، فتأمل مهمة هذا الرجل الكريم .

وكانوا يعتقدون بوجود نفسين في الانسان ، الاولى تتكون في الجنين عند الحمل والثانية تأتيه بعد الولادة اذ يتنشق الهواء فتتكاثف وتصبح نفساً . اما الاولى فهي النفس الدنيا ترافق جثة الميت الى القبر وتنحل بعد مضي ردح من الزمن . ولكن الثانية وهي العليا تعيش مستقلة بعد انفصالها عن الجسد، ودرجة غبطتها في العالم الآخر تكون متناسبة مع الدرجة العلمية والفضائل التي احرزتها على الارض . فاذا احسن اقرباء الميت معاملتها بالتكريم والقرابين اطمأنت وكانت لهم معدن خير وبركات، فان لم يفعلوا فالويل لهم منها . وعلى رغم التطور الذي طرأ على المعتقدات الدينية في الصين بعدئذ فانهم ما زالوا يعتقدون بوجود روحين للانسان حتى في ايامنا هذه .

ولكن الرجلين العظيمين اللذين تركا في الصين بل في تاريخ الفكر البشري اثراً لا يمحى هما : لاوتسو وكنفوشيوس . وقد ذكرناهما معاً لانهما وجدا في عصر واحد هو القرن الخامس قبل المسيح ولكنهما ليسا بمتقاربين في السن ، لان لاوتسو كان قد نيّف على السبعين عندما كان كنفوشيوس في مطلع الشباب . وقد اجتمعا وتباحثا ثم افترقا وهما

على خلاف مبين ، لان نقطة ارتكاز كل منهما تختلف عن نقطة صاحبه، ذلك ان لاوتسو كان يبغي نسف البناء القديم المتداعي ليبني مكانه صرحاً جديداً . اما كنفوشيوس فلم يبلغ هذه الدرجة من التطرف اذ كان يريد ابقاء القديم مع ادخال الاصلاح الجديد حسبما تقتضيه الحال . فكان كنفوشيوس اقرب الى العمليات من زميله الذي اوغل في النظريات . فلاوتسو فيلسوف وكنفوشيوس معلم قلما يتغلغل في بحث ما وراء الطبيعة .

زعم لاوتسو ان الكون مركب من عنصرين اولهما المبدأ الاولي او الوحدة التي تتطور صعوداً وانحداراً ، وثانيهما النسمة الاولى . فالاول لا اول له ولا بدء لانه موجود بقوة ذاته منذ الأزل وكائن قبل السيد السامي ، وهذا المبدأ الاول امر النسمة فتكوّن الكون ، وان هذه الحياة الدنيا ليست شيئاً ، ولكن الحياة الاخرى هي كل شيء، فيجب ان ننتظر فلا نفعل شيئاً لان كل ما نفعله في هذه الحياة نافل لا معنى له ولا نتيجة . فالعاقل هو من يماشي الطبيعة لا يعارض احكامها في شيء ابداً . ويجب على الحكام ان يدعوا رعيتهم بمعزل عن كل تفكير، وكلمته في هذا الصدد معروفة اذ قال : « يا ايها الحكام ، املأوا بطن الشعب وافرغوا رأسه ، اضعفوا العقول وصلبوا العضلات لان العلم مهلكة للدول » .

وقد علم بكره الحرب وعدم التمرس بالسلاح . ولا ريب ان هذا التعليم اضرّ بالصين ضرراً بالغاً فوقفت مكتوفة الايدي لا تفكر

بالتسلح والخدمة العسكرية واصبحت مطمعاً لكل طامع ، فان الصياد يطمع بالغزال ويتحاشى النمر ، لان الاول من ذوي الظلف والثاني حديد الانياب والأظافر . اما تعليمه بشأن النفس فهو غاية في الغرابة .

لقد ذكرنا ان الصينيين يعتقدون بوجود نفسين احداهما تتكون منذ الحبل . وقد زعم لاوتسو انه يمكن انماء هذه النفس كما ينمو الجنين في بطن امه . ذلك بان يتمرن الانسان على التنفس العميق المتكرر مدات طويلة فتنمو هذه الروح ، وعندما يموت الجسم تنطلق منه وتستطيع العيش وحدها في العالم الآخر كما ينطلق الفرخ من العش وقد نبت ريشه فهو يستطيع الطيران مستغنياً عن امه . وهذا هو السبب في تمرن الصينيين على التنفس الدائم لانهم يضمنون بذلك الخلود في عالم آخر .

مذهب كنفوشيوس وماتلاه في الصين

قدمنا في مقال سابق ان كنفوشيوس كان عملياً في تعاليمه . اجل ان ذلك المصلح العظيم لم يتعرض لبحث ما وراء الطبيعة ولم ينصرف الى التجريد ومحاولة تعليل الكون والبدء ، فهو بالاحرى رجل سياسي حوّل همه الاكبر الى درس الأخلاقيات وتحديد الواجبات والحدود بين الحاكمين والمحكومين . وهو لم يحرص على تعليم مبادئه كتابة بل كان اتباعه يلتفون من حوله في غالب الاحيان وهو جالس في عجلة تجرها البقر وتسير على مهل بينما يطارح تلاميذه الاسئلة . وطريقته تقوم بالقاء السؤال عاماً شاملاً ثم يأخذ في تضييق الحلقة حتى يستعرض نواحي المسألة جميعاً ، ويبلغ الى النتيجة العملية عن طريق الحديث الجدلي . وكان يرمي من وراء ذلك الى محاربة المظالم وسؤ الادارة السائدة في ذلك الزمان معارضاً النزعات الجديدة ، مؤمناً بوجود الكائن السامي الذي يدير هذا الكون ويعنى به ، معتقداً بخلود النفس ، ولكنه لم يبدِ رأيه في مسألة العقاب بعد الموت . على انه علّم ان للانفس الفاضلة مكانة عليا في العالم الآخر ليحمل الناس على التخلق بالفضيلة .

ويختصر تعليمه الاخلاقي بكلمتين : الاستقامة والسلامة . وهو يكره الحرب كما يحتقرها لاوتسو ، وقد طالب الحكام بتوفير اسباب الراحة للشعب . وخلافاً لمبدإ لاوتسو فهو يرى وجوب تعليم العامة لتمكينها من

ادراك واجبها ، غير ان هذا التعليم يجب ان يقتصر على معرفة الاشياء الضرورية النافعة . وقد ألح كثيراً في تعاليمه على توطيد الروابط بين افراد العائلة ومعرفة الواجبات والحدود وضرورة تبادل العاطفة بين الاقرباء ، معتبراً بحق ان العائلة اساس الدولة . اوَ ليست الدولة مؤلفة من عدة عائلات ؟ لكنه ضلّ في رأيه بتنظيم المجتمع موهماً ان ما يصح تطبيقه من الانظمة على مدينة صغيرة يصح في الشعوب والمدن الكبرى ، وقد وقع افلاطون نفسه في الضلالة نفسها ، في كتابه «الجمهورية» .

ولم يختط كنفوشيوس لنفسه نهجاً مطرداً في تعاليمه ولكنه علّم بوجوب اتباع الطريق الوسطى والبعد عن التطرف في كل شيء ، ومسايرة الظروف والمناسبات حسبما تقتضيه الحال ، فلا كره ولا بغض، لا اندفاع حماسي ولا برودة في الوطنية. قال كنفوشيوس : اذا داهمك الخطر فحد من طريقه ومتى زال فتنفس . وكذلك هي خطة الصين السياسية منذ خمسة وعشرين قرناً . وتذكرنا هذه المرونة في السياسة بمعاوية بن ابي سفيان اذ قال : لو كان بيني وبين الناس شعرة لما تركتها تنقطع فاذا شدوا ارخيت ، واذا ارخوا شددت . ولكن الصينيين يرخون الشعرة فلا تتعرض للانقطاع . وعلى اثر هذه التعاليم قامت المشاحنات بين اتباع لاوتسوا و كنفوشيوس ، فالاول انكر وجود الله نظرياً والثاني اهمله عملياً .

وفيما بين القرن الرابع والسادس للمسيح تبوأت سدة الحكم سلالة الـ (Tsin) ، وجرت حروب هائلة في الصين في هذه البرهة من التاريخ

فاكتسح الغزاة الاجانب الصين الشمالية كلها . ولاسباب سياسية ادخل هؤلاء الفاتحون البوذية التي تسربت بعد قليل الى الصين كلها فكنت ترى هياكل بوذا وكهنته منتشرة في كل مكان ثم اخذت تتسرب اليها مذاهب اخرى كالنسطورية الكلدانية والمزدكية الفارسية والمانوية التي جاءتها من التركستان .

وفي عهد الاباطرة الـ (Song) تسربت من اليابان الى الصين عقيدة الشنتويسم (Shintoïsme) ومعناها بالعربية طريق الآلهة . وهي التي ترمي الى تأليه الامبراطور الحاكم باعتباره متحدراً من ابطال قدماء بلغوا درجة الالوهة . وقد سرّت هذه الفكرة امبراطور الصين واوحت اليه ان يكون هو ايضاً سليل الآلهة. ولمَ يكون زميله الميكادو اعلى مرتبة منه ؟ وما عتم الامبراطور (Tchong-Tsoun) ان بدأ يحلم الاحلام ويرى الرؤى الالهية التي يوحيها اليه جده العظيم . ولم تمر عليه بضع سنين حتى تدرج الى الادعاء بأنه ابن الله . والتفت حوله حاشية معظمها من اتباع لاوتسو الذين اضطهدهم سلفاؤه من الاباطرة ، وعجّ بلاط هذا الملك بالاسياد والسيدات النبلاء الزاعمين انهم متحدرون من الابطال العظام الذين كانت تقدم القرابين لارواحهم .

وتضاءل شأن البوذيين كثيراً في هذه المرحلة من التاريخ، ولكن الحرب التي قامت ، وسقوط الصين الشمالية في يد اعدائهم، بددت هذه الاحلام الذهبية فعاد الـ (Song) الذين دحروا والجأتهم الهزيمة الى سكن الصين الجنوبية لبحث مذهب كنفوشيوس . واهتم العلماء بالرجوع الى تعاليمه ودرسه ولكنهم انقسموا الى فئتين الاولى تقليدية تريد المحافظة

على تعاليم كنفوشيوس لا تزيد عليها ولا تنقص منها ، والثانية فئة تأثرت بالفلسفة الهندية وحاولت ادخال شروح جديدة وتبديل بعض النقاط الاساسية لتجعل من المذهب القديم مذهباً جديداً تقدمياً وقد ترأس هؤلاء المجددين العالم (Tchoui) المتوفى سنة ١٢٠٠ ولكن تعاليمه لم تجيء داعية للاصلاح بل اتت تبث الفوضى في العقول وتقلب المعتقدات رأساً على عقب ، فاجتاحت الصين موجة هائلة من الالحاد لم تزل آثارها في الصين وفي العالم بأسره حتى اليوم.

والذي زاد في الطين بلة ان الطبقة المثقفة في الصين قد اخذت بهذا التعليم ودافعت عنه . وموجز هذا المذهب هو : انكار وجود الاله والعناية الالهية ، وان الكون كله مؤلف من عنصرين الاول وهو (Le Norme) اي النظام الشامل والمبدأ الحيوي الازلي اللامتناهي وهو قوة عليا محتومة غير واعية والثاني هو المادة . وتأثير الاول في الثاني هو الذي يخلق الكائنات . اما الفرق الذي نجده في الاشياء فهو ناجم عن اختلاف المادة ودرجة قابليتها ، والفرق في جوهرها ولكن المبدأ الحيوي (Norme) لا يتغير . مثال ذلك ان النار لا تتبدل لكن التبدل يقع على المادة التي تعمل فيها النار ، فلو وضعت السمن والبيضة في اناء واحد وسلطت عليها الحرارة لساخ السمن وتجمدت البيضة . وهكذا تختلف نتيجة العامل الواحد بحسب قابلية المادة . وزعم ان المخلوقات جميعاً تصدر عن الكل الاكبر وتعود اليه بالنتيجة كما ان نقاط الماء التي تعلق بدلو الناعورة تخرج من البئر وتعود اليه . فكذلك تعود المخلوقات بعد طوافها في هذه الدنيا الى مصدرها ثم تعود

ثانية وهلم جراً . وقد سلم بوجود روحين في كل انسان وفقاً للمعتقد الصيني السابق ولكنه زعم ان كلا الروحين يتلاشى بالموت كالدخان . وشأن النفس شأن الثمرة التي تنضج ثم تنحل، فنفس الشيخ الذي شبع من الايام تنحل حالاً بعد الموت اما روح الفتى الذي مات بحادث فجائي مثلا فانها لا تنحل في وقت قصير بل تعود فتتراءى للاحياء شبحاً . ولكنها معاودة الى حين ثم تضمحل. ومثل الانسان مثل موجة البحر فالموجة لها كيان خاص في ذاتها ، ولكن الامواج كلها من نفس المياه اتخذت اشكالاً و كيفيات. فان فلاناً الذي يعيش اليوم ليس سوى كيفية من كيفيات المادة الشاملة الخاضعة لتأثير القوة العمياء . وكذلك كان ابوه في عهده وكلاهما من مادة واحدة لذلك استطيع انا ان اقول اني متحد بأبي لاتحاد كلينا بالمادة الشاملة ، وبما ان الارض والسماء مؤلفتان من هذه المادة فهي اذاً كلها فيّ وانا فيها . ويمكنني ان ادعو السماء ابي والارض امي وجميع البشر اخوتي لانني انا والكون نؤلف وحدة كاملة.

وزعم ان الوحدة الـ (Norme) عمياء ، والمادة لا تعقل اما في الانسان فان هذه القوة تحرك القلب الانساني فيشع منه الذكاء والمعرفة كما تنقدح النار من الزناد، وهذا الاشعاع يولد اهتزاز المركب ويثير العواطف ، فاذا تماسكت العاطفة والعمل الذي يعقبها ضمن الحدود المقبولة فهو الخير، اما اذا تجاوزت الحدود واختلت فلا يكون شر لان الشر غير موجود بل يكون عدم الخير. والوحدة الـ (Norme) تظهر في المخلوقات بمظاهر شتى كالعدالة والفطنة ، فان لم يكن ذلك فلأن كثافة المادة حالت دون فعل النظام الشامل . ويتضح من كل ذلك ان

هذا المذهب هو مذهب الحلولية الطبيعية (Panthéisme Naturel) ، واكثر من تأثر بهذا المذهب في العصور الحديثة هو الفيلسوف الالماني هيغل (Hegel) ولكن الشعب الصيني على الرغم من هذه الموجة الكفرية كان متأثراً بالنظريات البوذية فظلّ يرفع قلبه الى اله السماء رغم تخبطه في دياجير الخرافات .

وانت ترى ان القول بكون مذهب كنفوشيوس هو المذهب الشامل في الصين قول مبالغ فيه خصوصاً وان العالم تشوبي (Tchoui) الذي اوجزنا مذهبه آنفاً بدّل هذا المذهب تبديلاً عميقاً فتصدى لبحث أهم نقطة في الفلسفة وهي نقطة الخلق وهذه مشكلة لم يتعرض لها كنفوشيوس نفسه بل تصدى للأخلاقيات . وقد تطور الاعتقاد بكنفوشيوس تطوراً عجيباً ، فقد اعتبره معاصروه مصلحاً عظيماً ولكن الاجيال التي تعاقبت والاباطرة الذين تولوا على سدة الملك اخذوا يرفعونه رويداً رويداً ويغيرون القابه . فبعد ان شيدت على اسمه الهياكل بوصفه حكيماً ، وضع رسمه في المدارس ودعي المعلم الثاني ثم الحكيم الكامل ثم الاله . ويرجح بان كل واحد من الملوك المتعاقبين كان يزيد في صفات كنفوشيوس ارضاء للشعب وعلى الاخص الملوك المغول (Mongol) ، وهكذا شوهت صفحة كنفوشيوس وقد كانت في الاصل من المع صفحات التاريخ .

الأديانُ في اليابان

ان الامر الذي يلفت النظر في تاريخ الاديان القديمة جميعاً هو تأخرها عن مسايرة التطور المدني في الجماعات ، حتى لترى الاغريق الذين بلغوا شأواً بعيداً في العلم والحضارة ، فحذقوا درس السيارات الفلكية واخذوا بقسط وافر من علم الهندسة وتفوقوا في الشعر والفلسفة ، يلجأون الى عبادة الاصنام ويستنطقون الحجارة والنجوم ، فيأخذك العجب من هذا التناقض بين علم عميق وتقاليد عتيقة بالية ، ولا تكاد تصدق ان هذه العقول التي تنطلق في التجريد حتى يبلغ بها سقراط وافلاطون عالم ما وراء الطبيعة تظل مشدودة باغلال الخرافات والأوهام . ولكن هذا العجب يتضاءل اذا انت تأملت اليابان في ماضيها وحاضرها ورأيت ان هذا الشعب بلغ في عالم الصناعة والمدنية الحديثة مكانة مرموقة ، واقبل على الغرب يأخذ عنه ويسابقه في ميادين الانتاج ، وشهر الحرب على ارقى دول العالم المتمدن وروعها بما لديه من سلاح حديث ومعرفة باساليب القتال ، ولكنه لم يزل من الوجهة الدينية غريقاً في الظلمات لا يغيّر ولا يبدل من معتقده القديم . فهو ينفتح على الغرب من جهات عديدة ولكنه يبقى مقفلاً من وجهة العبادات والتقاليد .

واذا نحن تصفحنا تاريخ اليابان الديني السابق للميلاد ، باحثين عن المراجع التي يتمركز فيها معتقدهم القديم ، وقعنا على مزيج من الاساطير

والحكايات التي لا يصح الركون اليها ، وفي جملتها تحدر الامبراطور من الاهة الشمس . ومجموعة الاساطير التي تداخلها بعض نقاط تاريخية وتقاليد مرعية الاجراء تؤلف مذهب الشنتويسم (Shintoïsme) ومعناه طريق الآلهة . ولكن اليابان لم تقتصر فقط على هذا المذهب بل تسرب اليها من الصين بعض تعاليم كنفوشيوس . على ان الموجة الصينية ليست شيئاً مذكوراً بالنسبه الى الخضم البوذي الذي تدفق على هذه الجزر آتياً اليها من الهند في القرن السادس بعد المسيح .

وقد يتساءل الانسان عن عدد انصار البوذية في اليابان ليعرف ما هو عدد اتباع المذهب الوطني القديم الشنتويسم . والجواب على ذلك مستحيل لانه ليس من حاجز كثيف بين الفريقين ، اذ ان الذين يشهدون الحفلات في هياكل بوذا يذهبون هم انفسهم ليحضروا حفلات الشنتو القديم . وهكذا ترى ان الفريقين يمتزجان ، على ان لكل منهما كياناً خاصاً كما يختلط البحر الاحمر بالمتوسط بواسطة ترعة السويس ، مع ان لكل من البحرين اسماً خاصاً به . وهم يشبهون بعض الناخبين قبيل الانتخاب يتناولون الغداء على مائدة المرشح الفلاني ، ويسمرون على مائدة خصمه ، فاليابانيون رحاب الصدور من هذه الجهة .

وعلينا ان نحدد الآن ماهية الشنتو او طريق الآلهة فنقول : ان هذا المذهب قد تطور على الزمن فمرّ في ثلاثة ادوار ، يمتد اولها حتى منتصف القرن السادس للميلاد . وكان اليابانيون في هذه الفترة يعتبرون الدين مظهراً من مظاهر السلطة المالكة ، اذ يقومون بواجب العبادة لأجداد الامبراطور ، ويخضعون لسلطته خضوعاً مطلقاً ، ويمارسون

بعض الطقوس كالتطهير بالماء ، يرمون بذلك الى تطهير الجسد اكثر مما يرمون الى تطهير الروح من ادرانها . ولا يقصرون في الصلاة والتوسل الى آلهة متعددة يعينون لكل منها صلاحية خاصة كاله النار والهواء ، واله الخصب الذي يجود عليهم بالفاكهة والمآكل ، بدون ان يرفعوا كثيراً من مستوى هذه الآلهة ، فهي في نظرهم كالبشر منها الصالح ومنها الطالح . ولم يفكروا في الجنة والنار لا كثيراً ولا قليلاً ، غير انهم كانوا منذ القديم يقيمون معبداً واسع الاطراف مبنياً بالخشب يحفظون فيه كنوز الميكادو القدسية . واول هذه الكنوز المرآة ، وثانيها السيف ، وثالثها الجوهرة الغالية خاصة البيت الملكي . ويشترط ان تكون الكاهنة القائمة على حفظ هذه الذخائر العظيمة سليلة البيت الامبراطوري . اما الدور الثاني فقد بدأ بُعَيْدَ دخول البوذية الى اليابان .

ولقد حملت هذه الديانة كثيراً من الآراء الجديدة في الثواب والعقاب ، والتطهر والسمو النفساني لدرجة الصوفية ، والاتحاد بالقوى العليا ، فضلاً عن المظاهر الفنية في رسوم بوذا والتماثيل المنحوتة التي تمثله . فاستيقظ مذهب الشنتو من ركوده حيال هذه الثورة الجديدة . ولكن انّى لبساطة طقوسه وفقر معتقداته ان تتغلب على هذه القوى الدخيلة التي انضم المذهب الوطني اليها وتفيأ ظلها شأن الضعيف الذي يمشي تحت علم القوي فيخلط ضعفه بقوته . وهذا هو سبب التساهل بين الفريقين ، وخصوصاً وان كهنة البوذيين لم يضيقوا على المذهب القديم . وقد حلوا المشكلة بان اعتبروا آلهة اليابانيين بما فيهم الوهية

البيت المالك من جملة مظاهر بوذا الذي هبط الارض وتجسد مرات عديدة . وقد رحب الميكادو بهذه الفكرة وبذل جهده لتزيين المعابد الجديدة ، ورفع مستوى الطقوس وتبديل مظهرها القديم الشاحب بمظهر الابهة والجلال . واستمرت هذه البرهة منذ القرن السادس حتى السابع عشر ، واخذ المذهب القديم يضمحل رويداً رويداً .

غير ان الحركة الدينية لبست شكلاً جديداً في القرن السابع عشر ، ولم تزل سائدة الى ايامنا هذه اذ ارتدت طابعاً وطنياً فيه كره للدخيل ونبذ لهذه المذاهب الغريبة التي احتلت اليابان. وبدأت المقاومة لتعاليم كنفوشيوس وللمذهب البوذي على السواء ، وتلفتت الطبقة المتعلمة الى القديم وحنّت اليه باحثة عن الشنتويسم (Shintoïsme) الخالص قبل ان تشوهه الشوائب ، فافضت هذه الثورة الى اعتناق مذهب جديد يختصر بهذه العبارة : مسايرة الطبيعة والطاعة العمياء للميكادو . وقد جردت الهياكل المزخرفة من تماثيل بوذا ، واصبح الدين الرسمي مذهب الشنتو ، ولكن هيهات لهذا المذهب الاجوف ان يشبع نهم النفوس المتعطشة الى اكثر منه ، فقد بقيت البوذية متغلغلة في الشعب . وان اليابانيين المثقفين ارادوا التخلص من نير العبادة الاجنبية فزادوا انحداراً في سلم التفكير ، فآل بهم الامر الى الاعتقاد بالوف من الآلهة ، فقسموهم الى قسمين : آلهة الطبيعة وآلهة البشر . غير ان القسمة تطورت مع الزمن فلم تبق الحواجز بين هاتين الفئتين حصينة كما كانت سالفاً ، فاجتاز بعض الآلهة من صعيد الى آخر .

وقد ألهت القوى الطبيعية كالنار والهواء والانهر والبحار ، وعلى

رأس هؤلاء جميعاً امتراسي (Amétérasy) آلهة الشمس . اما آلهة البشر فهم الابطال وعظماء اليابان المؤلهون ورأسهم جيمي تنو (jimmu Ténno) مؤسس الامبراطورية، وكان يزداد عدد الآلهة على التعاقب ، فكلما مات بطل او عالم اضافوه الى الجيش القديم. فاصبحت الارباب من جراء ذلك جيوشاً غفيرة اربى عددها على عدد آلهة الطبيعة بما لا يقاس . ولكن ليس لهذه الآلهة المقام العالي في نظر اليابانيين ، فانهم يروون عنها القصص الخرافية ، وفي بعض هذه الخرافات ما يندى له جبين الادب خجلاً . ولكن الآلهة امتراسي تحتل المكانة العليا في السماء ، ولها بلاط وحاشية في منتهى الابهة والفخامة . غير انها على رغم مكانتها العليا لا تستطيع الاستبداد برأيها في الحوادث الجسام، بل تؤلف مجلساً تستشير فيه آلهة النجوم والكواكب والارض والبحار . ورأي الاكثرية يؤثر في القرارات التي تتخذ .

ويمارس الدين الرسمي اي الشنتو في هياكل خالية من الزينة ،وهي مبنية بنوع مخصوص من الخشب المزعوم مقدساً فهم لا يتعدونه الى سواه . وفي داخل المعبد توضع طاولة كبيرة غير مطلية بأي نوع من الالوان ، وقد وضعت عليها مرآة معدنية ترمز الى الشعاع الذي يفيض من إلهة الشمس وعصا منصوبة تتساقط منها قطع صغيرة من الورق ، وقطعة من البلور الصافي كروية الشكل ترمز الى طهارة الآلهة وقدرتها الكلية . ويضعون في الجهة اليسرى من مدخل الهيكل جرناً فيه الماء المقدس ، وعلى الجهة اليمنى صناديق يخزن فيها ما يقدمه المؤمنون من النقود النحاسية ، ويجانبها حبل متصل بجرس يقرعه القادم لينبه الآلهة

الى حضوره ، وينبهها للاصغاء الى مطالبه . ويستحضرون الآلهة بقرع الاجراس وضرب الطبول والتصفيق وما شابه ذلك معتبرين ان ما يسرّ البشر يسرّ الآلهة ايضاً ، لذلك فهم يقدمون لها في بعض الاعيـــاد الكبرى طعاماً وشراباً ، فيتخيرون لهذا الغرض أفضـل ما لديهم ويرقصون وينشدون الاناشيد .

وتقوم بالطقوس فئة خاصة هي فئة الكهنة ، وهم لا يحلقون شعور رؤوسهم كما يفعل كهنه بوذا ، ولا يرتدون الملابس الكهنوتية التي تميزهم عن غيرهم الا اثناء اقامة الحفلات الطقسية . واهم الخدمات التي يقوم بها هؤلاء الكهان هي تقديم الصلوات وتقديم البقول للآلهة . ولهذه الهياكل كاهنات من النساء تنحصر مهمتهن بالرقص في ايام الاعيـاد الكبرى . وعلى الرغم مما قدمناه من ان اليابانيين يهتمون بتطهير الجسد اكثر مما يهتمون لتطهير النفس ، فان لهم حفلة يدعونها حفـلة التطهير الكبرى يشترك فيها جميع الشعب ويستغفرون من آثامهم ، واخص هذه الآثام القتل والزنى والسحر والإضرار بزراعـة الارز . والى جانب هؤلاء الكهان يقوم المشتغلون بالعرافة وطرد الارواح النجسة والاختطاف الروحي . وسيطرأ على هذه المعتقدات القديمة اي الشنتو تغيير مهم ، خصوصاً وان ابرز العقائد الاساسية وهو تأليه الميكادو سيزول ، لان اليابانيين ادركوا في آخر الامر ان امبراطورهم رجل كسائر الناس بعد ان كانوا يعتقدون ان النظر اليه محرم ، وقد ظهرت رسومه في الصحف في هذه المدة الاخيرة .

البوذية في اليابان

ما كنا لنعرض للبوذية في اليابان بعد ان بحثناها في مهدهـا اي عندما عرضنا للأديان في الهند ، لولا انها اخذت في اليابان شكلاً خاصاً واحدثت صدىً قوياً لم يزل حتى اليوم . فلقد بينا في المقال السابق ان الشنتو اي طريق الآلهة وهو مذهب اليابان القديم ، اصبح المـذهب الرسمي وان العلماء اليابانيين قاوموا الاديان الداخلية . ولكن الشنتو مذهب جد بسيط لا مجال فيه للخيال ، ولا شبع للنفس التائقة الى المعرفة ، ولا متعة فيه لأبصار المصلين بعد تجريد الهياكل من الزخرف والفن ، فكل ما بقي في اليابان حتى ايامنا هـذه من طقوس عاطفية تظهر فيها الزينة والبهرجة فهي مديونة به للبوذية . ولقد اشرنا في المقال السابق الى تسرب البوذية في القرن السادس الى اليابان .

وتفصيل القول ان هذه الديانة دخلت الجزائر اليابانية من مملكة القرم المجاورة ، فقد جيء منها بتمثال ذهبي لبوذا ، وادخل هذا الصنم الى بلاط الامبراطور . وقد استقبل الميكادو البوذية مرحباً بها ولكن حاشيته ناوأت هذه الفكرة ففترت رغبة الامبراطور باستبقاء التمثال واعطاه الى احد رجال البلاط المسمى سوغا (Soga) الذي وضعه في بيته فكان قصره اول هيكل للبوذية في اليابان . واتفق عقب ذلك ان تفشى في البلاد وباء فتاك نسبه الأهالي الى وجود هذا الصنم الدخيل فهدموا الهيكل حتى لم يتركوا منه حجراً على حجر . ولكن الكوارث

ازدادت وعمّ البلاء بعد هـذا التهديم فقامت قيامة انصار البوذية زاعمين ان هذه الزيادة في النكبات سببها غضب بوذا . ولكن الديانة الجديدة لم تزدهر الا في عهد الامبراطور سويكو (Suiko) اي في القرن السابع . فان هذه الأمبراطورة عملت كثيراً في سبيل الدين الجديد حتى ان البوذيين قدسوها بعد الموت فرفعوها الى مصاف الآلهة .

وقد دخلت مـع البوذية الى اليابان فكرة الملكوت السماوي والصناعات والفنون وترقت الحضارة . وكانت العلوم وقفاً على كهنة بوذا ذوي الثقافة العاليـة الذين أثروا تأثيراً عميقاً في صعيد الاجتماع والادب ، ورفعوا المستوى الفكري الى درجة لائقة . وقد شمل ذلك امة اليابان كلها من المليك الناعم في قصره حتى راعي القطعان، وقامت الاديرة والهيـاكل في جميع النواحي ، وسما فن البناء والنحت بهـذا السبب ، وكذلك قل عن الحياكة وما يتصل بها من الصناعات اليدوية وبدت الروائع الفنية والنقوش النفيسة في الهياكل الكبرى ، فأوحت الى اليابانيين فكرة الجمال وفتحت ابصارهم على كنوز الطبيعة المدفونة، وأثارت خيالهم الخلاق الذي حبسه مذهب الشنتو القـديم في سجن ضيق من الفقر والجفاف .

ولكن العقيدة الاساسية في هذا المذهب هي وجوب ممارسة الخير، والمبالغة في التطهير النفساني تخلصاً من التناسخ المتعدد اذ يبلغ العابد المتقي مكانة البوذا اي الملهم، ويتغلب في انتصارات متعاقبة على العوالم الستة اي الجحيم وعـالم الحيون والشهوة والقوى الغاشمـة والجن والكائنات السماوية حتى يبلغ النرفانا(Nirvana) . وليست النرفانا في

نظر اليابانيين كما هي في نظر الهنود ، لان الهنود يتأولون في تعريفها فيحسبها بعضهم خلوداً وبعضهم عدماً مطلقاً ، ولكنها في اليابان دار النعيم والمسرات اللامتناهية ، وهم يبالغون في وصف ملذاتها التي لا يبلغ اليها الخيال مهما تعالى . فاذا اضفت الى هذه السعادة الخالدة ما يشهدون في هياكل بوذا من تماثيل خلابة ، ورسوم تأخذ العين رواء ومتعة ، وقابلت ذلك بهياكل الشنتو (Shinto) الفارغة وعقيدته الجوفاء، عرفت مبلغ اقبال الشعب على البوذية خصوصاً وان الشنتو خالٍ من التعاليم الاخلاقية، على حين ان البوذية في اليابان تتساند وتعاليم كنفوشيوس ، وهي تعاليم فيها كثير من الخير .

والبوذية تأمر بطاعة الوالدين واعالتهما كبيرين ، وتوصي بالعـدل والابتعاد عن الانانية ومعـاملة الناس بالرفق والحسنى ، والاعتصام بالدين الذي مداره عبادة بوذا . وعندهم الوصايا العشر التي تنهاهم عن ارتكاب المعاصي وهي هذه : لا تسرق، لا تزن، لا تكذب ، لا تفكر افكاراً سيئة ، لا تغضب ، لا تهزأ ، وابتعد عن الانانية والافتراء والنميمة . ولم تقصر التعاليم الكنفوشسية عن مجاراة النظريات البوذية وهي اقرب منها الى الشؤون العملية ، ومدارها الطاعة للحكام والتخلق بالاخلاق الفاضلة .

تفشي الصنمية في اليابان

لم تبق العقيدة البوذية على حالتها الاصلية، فقد رأت طائفة الكهان البوذيين ان تساير الشعب في اهوائه فملأت الهياكل بالاوثان تمثيلاً للآلهة

التي تتفاوت سموّاً وخفضاً وعلى رأسها الاله اميدا (Amida) . هذا في الآلهـة الذكور ، اما رئيسة الآلهـة فهي كوانون (Kwanoun) وهم يصورونها برؤوس عديدة وايدٍ عديدة ، ويبتهلون اليها شفهيّاً فاذا كان المصلي بعيداً عنها كتب مطالبه خطياً فاذا استجابت كتب اليها شاكراً هذه النعم الجزيلة . وكثيراً ما يكتب الطالب حاجته على ورقة صغيرة يلفها ويضعها في فمه ، وبعد ان يبلها بريقه ينفثها على تمثال الالهة فاذا التصقت تفاءل خيراً وعلم سلفاً انه سينال مطلبه . وبين هـذه الاصنام واحد يسمونه بنزوري (Binzuri) وهو مصنوع من الخشب يضعونه على مقربة من صندوق العطايا الذي توضع فيه النقود المعدنية . وبعد ان يضع المتعبد ما تجود به كفه من الهبات النقدية يتقـدم من الصنم ويمسح بيديه على الجبهة والانف والصدغين متبركاً ، ثم يمسح هو نفسه هذه الاعضاء من جسده . وقد اصبح وجه ذلك الصنم ناعماً صقيلاً لكثرة تداول الايدي عليه . وفي مدخل المعابد البوذية تجد صنمين كبيرين لهما هيئة هائلة لما وسما به من الدمامة ، احدهما مطلي باللون الاحمر والآخر بالاخضر وهما يمثلان الشيطانين . ولا تسل بعد ذلك عن تعدد الاصنام التي تمثل اله البحر والرعد والهواء وما شاكل ذلك . وبين هذه الاصنام الرفيعة الشأن الهان يحبهما الشعب كثيراً ، اولهما اله الغنى يمثلونه حاملاً كيس أرز والثاني اله الطعام والسمك يمثلونه حاملاً سمكة بيده اليمنى وشصّاً في اليد اليسرى ، ولا تنس اهمية هذين الصنفين من الطعام ومكانتهما الغذائية في الشرق الاقصى .

رب سائل يتساءل عن مصير الالهة اميتراسي (Amétérasy) اي

إلهة الشمس التي يتحدر منها الميكادو ، اتراها ضاعت بين اصنام البوذية الدخيلة ? وهل تضيع وهي الاصيلة في آلهة الشنتو ?

ان كهنة البوذيين لأوسع صدراً من ان يتعسر عليهم حل هـذا المشكل ، فقد جعلوا هذه الالهة احدى البوذات لان لفظة بوذا ومعناها الملهم لا تطلق فقط على غوتاما بل على العديدين من الناس الذين هم مظاهر عديدة للالوهية . ولو وقفت عبادة الاوثان عند هذا الحد لكانت المسألة ايسر لانـه نجم عن هـذا المزيج بين الشنتو والتعاليم البوذية والمبادىء الكنفوشسية فوضى خطيرة الشأن في المعتقد الديني وتفرق الناس شيعاً وقد اثر هذا التفرق تأثيراً عميقاً في الاخلاقيات اذ دفع بها الى المنحدر دفعاً تزايد على توالي الايام . ويطول بنا الامر لو عرضنا لتعداد هذه الشيع ومراميها . والمرجح ان هذا الاختلاف في التأويل سببه ان المذاهب الدخيلة في الهند والصين لم تكتب بلغة اليابان بـل باللغة الصينية وفيها ما فيها من الصعوبة ، حتى انك لو سألت الكهان مسألة مذهبيـة لسكتوا جهلاً . وتنحصر معارفهم ببعض الطقوس الشكلية الاوتوماتيكية لا يعرفون لها سبباً الا ما يتقاضونه من اجر مقابل هذه الوظائف .

ويذكرنا هذا التخبط في التفسير والتأويل بما وقع لفلاسفة العرب ، لان فلسفة اليونان لم تترجم رأساً الى العربية بل كان اكثر التراجمة من السريان ، فأخذ عنهم العرب ما اخذوا وفيه الغموض الكثير والمبهمات ، خصوصاً وان هؤلاء التراجمة لم ترسخ لهم قدم في المعارف الفلسفية . ثم جاء اللاتين فاخذوا هم ايضاً عن العرب ، وقد مرّ زمن طويل قبل ان

تنجلي الامور وتستقر في نصابها ، ولكن هؤلاء جميعاً بذلوا جهدهم وشحذوا الهمم توصلاً الى المعرفة . وهذا ما لا نستطيع ان نطالب به سكان الشرق الاقصى واكثرهم كسول خامل . ومن اسطع الادلة على هذا الكسل المتناهي ان للكهان اليابانيين الذين اشرنا الى جهلهم في ما تقدم مكتبة مقدسة تحوي من المجلدات ما يقارب السبعة آلاف ، ولكنهم لم يتعرضوا كثيراً للدرس والتنقيب في هذه الكتب . فاذا استوضحهم احد اتباعهم عن ماهية المجلدات ومحتوياتها عمدوا الى التخلص بطريقة هي آية في الخمول ، اذ ان المكتبة مصنوعة بشكل لولبي يدور حول محوره ، فيعلمون المؤمن انه يكفيه ادارة هذه المكتبة مرة واحدة بيده حول محورها ، ليحصل على الفائدة نفسها التي يحصل عليها بالاطلاع على هذه الآلاف من المجلدات . وهكذا ترى ان البوذية انحطت كثيراً في اليابان عن مستواها الاصلي في الهند ، واصبح الكهان يجلبون قلب الشعب بمظاهر الابهة في الاحتفالات الدينية . اما وقد عجزوا عن تغذية العقول فهم يبهرون الابصار ويثيرون الخيال بتلك القشور التي لا طائل تحتها .

الدين في الفرس

إن المذهب الذي كان له الشأن الخطير في بلاد فارس هو مذهب الزرادشتية وانما سمي كذلك بالنسبة الى مؤسسه زرادشت المولود في في بلاد مادي في القرن السابع قبل المسيح . وقد وجدت هذه التعاليم في مجموعة قديمة يسمونها الأفستا (Avesta) . وتعرف هذه الديانة بالمزدكية في النسبة الى ارمزدا او مزدك ، وقد ازدهرت خصوصاً في ايام الاكاسرة الساسانيين واصبحت دين الدولة الرسمي . وقد سميت الثنوية لانها تدور حول عنصرين متناقضين اولهما روح الخير وثانيهما روح الشر وكلاهما موجود منذ الازل. اما الاول فهو مبدع المخلوقات الصالحة جميعاً، واما الثاني فهو مصدر كل شر وخالق الشياطين. والمعركة قائمة بين الاثنين منذ البدء وستنتهي بانتصار الروح الخيّر في آخر الزمان . ولو وقف المعتقد عند هذا الحد ، ولولا الصلاحية الكبرى التي يخلعونها على مبدإ الشر الذي يستطيع مقاومة عنصر الخير ، لما بعد هذا المعتقد عن التوحيد .

والمرجح ان سبب البدعة التي حملت المؤسس على تصور اله مستقل للشر هو ما شهده في هذه البشرية الطافحة بالسيئات ، فرأى ان ينفي عن الخالق السامي كل تلك القبائح ، فنسبها الى اله الشر . وقد زعم بعض مفكريهم ان هذا الاله الرديء قد يكون فكرة سيئة مرّت

ببال الخالق فولد منها اله الشر . وقد تصوروا ان اله الخير اهيرمزدا (Ahiramazda) هو السيد العليم السامي ، خالق الجنة والقبة الزرقاء وما فيها من كواكب ، وباري الارض والحيوان ، ومبدع البشر الذين فرض عليهم تكريمه وعبادته ، تحيط به في سمائه حاشية مؤلفة من ستة آلهة لكل منها اختصاصه ومنطقة نفوذه . فان احدها يتولى نشر السلام والغبطة في البشر ، وثانيها يمثل الاخلاقيات وهو حارس النار ، وآخر يوزع الحكمة . اما اكبرها فهو فوهيمانا (Vohumana) وهو اول خليقه ابدعها اهيرمزدا ، وله صفة المستشار الأكبر الرفيع الشأن ، الى آخرما في التقسيم بين هؤلاء الستة الذين تعددت صلاحياتهم وتحددت بحيث لا يتجاوز احدهم على الآخر

ويلي هذه الطبقة في الدرجة جوق آخر من الارواح القدسية ويحتل مركز الزعامة فيها اتار (Atar) وهو عندهم رمز الالوهة والايمان وانه في السماء ممثل النار ، والفرس يضرمونها رمزاً اليه واكراماً لمقامه لا كما توهم الناس ان العجم يعبدون النار بعينها ، بل ان سدنتها اي كهانها الحريصون على ايقادها المتواصل يفعلون ذلك من اجله . ومن هذا الجوق ثلاثة يتولون دينونة الموتى ، واهمهم الاله مطرا (Mithra) ومكانته عظيمة جداً لانهم يعتبرونه اله الشرف الحفيظ على الأخلاق وخصوصاً على انفاذ العهود والتقيد بالوعود . وقد تسربت عبادته فيما بعد الى الرومان الفاتحين فكان الجنود على الأخص يحلفون باسمه ، فاذا حلف احدهم باسم مطرا علم المتعاقد معه انه لا ينكث العقد اعتقاداً منه بان هذا الاله يفحص القلوب والضمائر فلا تخفى عليه خافية ، وان

الشمس عين له يرى بها كل شيء ثم تطورت العقيدة فاعتبرت الشمس مطرا نفسه وعبدتها بهذا الاعتبار . وهناك نوع آخر من الملائكة هو اشبه شيء بالملائكة الحراس ، فلكل انسان ملاكه الحارس يرافقه منذ الولادة حتى الموت ، يسهر عليه ويؤدي له الخدمات الجلى .

ويجانب هذه الارواح الصالحة تقوم في الجهة الثانية الارواح الشريرة وعلى رأسها انرومانياف (Anrô - mainyave) عدو اهيرمزدا ، ودأبه زرع الشر والاساءة الى المخلوقات اذ يحبب اليهم الرذائل والموبقات ليوقعهم في شراكه ، واكبر الموبقات في نظرهم هو الكذب . اما هذا العدو فمسكنه هاوية مظلمة ، وقد بلغت رغبته في ايذاء البشر بث السم في الاعشاب والاشجار ونشر زهاء اربعة آلاف من الامراض ، ولديه ستة من كبار الشياطين وزعمائهم بمثابة الحاشية . ولا ريب انه تصور حسابي لاقامة التوازن بين اتباعه والحاشية الالهية المقيمة في بلاط اهيرمزدا .

اما سفر التكوين عندهم فلا يخلو من الطرافة اذ توهموا ان الخلق بدأ وسينتهي في مدة اثنتي عشر الف سنة . ففي الثلاثة الآلاف الاولى منها برزت المخلوقات الى الوجود ولكن نماذجها كانت موجودة في عقل اهيرمزدا اي ان العالم كان موجوداً بالقوة بحسب تعبير ارسطو فكان ينقصه للظهور اقتران القوة بالفعل . وفي آخر هذه الحقبة ظهر انرو (Anro) اي اله الشر وكان قبل ذلك مخدراً مخبولاً فعرض عليه اهيرمزدا الصلح فرفض ، فقامت الحرب بينهما الى مدة تسعة آلاف

سنة . وكان اهيرمزدا في خلالها قد اوجد المخلوقات ولكن استفاقة عدوه من الصعقة اضرّت بالكون ضرراً بالغاً اذ اقدم ذلك الخصم العنيد على قتل الانسان الاول والثور الاول اللذين من نسليهما تحدر الانسان والثيران .

وفي بدء الثلاثة الآلاف سنة الاخيرة من عمر الكون ظهر النبي زرادشت وستنتهي هذه الحقبة بانتصار اهيرمزدا ، ويبدأ اذ ذاك عهد جديد لامتناهي في الغبطة والسعادة للبشر .

اما الاخلاقيات في دين الفرس فهي على جانب عظيم من الرفعة ، وهي تعلم حب الغريب وبذل الضيافة للاجانب وممارسة الفضائل واهمها زراعة الارض وعدم اذية البقر والكلاب نظراً لمكانة هذه الحيوانات عندهم والامتناع عن قطع الاشجار ، ويتبين من ذلك انه كان للشجرة اصدقاء في ذلك العهد السحيق . ويحرمون الزنى وارتكاب الخطايا ولكنهم يحلون نكاح المحارم ، وتلك لطخة سوداء في هذه الصفحة الخلقية العالية . ولكن المؤرخين يعللون لذلك بان اولياء الامور رغبوا في حفظ الدم في العائلة لذلك يتزوج الاب من ابنته والاخ من شقيقته . ولم تقتصر هذه العادة السيئة على الفرس وحدهم بل تعدتهم الى كثير من الامم القديمة . وكان مرتكب المعاصي يلتزم بالتكفير عنها ، اذ كان يصوم في خلوة مدة تسعة ايام او كان يضرب ويكون الضرب في جهة معينة من جسده . اما بعض الخطايا فلا بد لصاحبها من غسل وجهه ببول البقر لمحوها وهذا ما حمل ابا العلاء المعري على القول :

عجبت لكسرى واشياعه   وغسل الوجوه ببول البقر

الطقوس

اما الاشياء الطقسية فاهمها ايقاد النار في الهياكل والبيوت يرمون فيها بعض الاطياب كالبخور مثلاً . ولا يقترب السادن من النار الا محجب الوجه ، لئلا ينبعث نفسه فينجسها . ولهم كهان يقيمون الصلوات بتلاوة بعض آيات الافستا (Avesta) ويقربون القرابين للآلهة . واكبر الاعياد عندهم عيد النيروز وهم يحتفلون به كل سنة حتى ايامنا هذه . ويشرب الكهان مسكراً في اثناء الصلوات يستخرجونه من عشبة مقدسة يسمونها الصوما (Soma) ويرطبون بعصيرها شفاه الطفل عند ولادته ، ولكنه لا يعتبر زرادشتياً صحيحاً الا عند دخوله سن البلوغ اذ يلبسونه زناراً مقدساً في حفلة مهيبة ، اما الزواج فهو فرض على الفرس .

وعندما يموت احدهم يضعون بازائه كلباً زاعمين ان نظرات الكلب تصد الشياطين موقتاً عن الاستئثار بالمحتضر ، ولكنه عندما يسلم الروح يستولي الشيطان على الجثة . لذلك فالجثة في نظرهم نجسة ومن لمسها وقع في خطإٍ جسيم حتى انها لتنجس الارض اذا دفنت فيها . لذلك يحملها رجلان ملففين ايديهما باقمشة ويطرحونها في مكان يقال له برج الصمت ، حيث تأكلها الطيور النجسة . وتظل نفس الفقيد مدة ثلاثة ايام حول المنزل ثم تمثل بعد ذلك للدينونة وتوزن الصالحات والسيئات في ميزان فاذا تساوت الكفتان انتقلت الروح الى مكان تعذب فيه بالبرد والحرارة اما اذا رجحت احداهما فالمآل الى النعيم او العذاب . وتعبر النفس

على جسر تجتازه النفس الصالحة بسهولة ، اما الشريرة فتهوي الى الجحيم حيث العذاب والظلام الشديد الذي يمكن لمسه بالاصابع لهول كثافته. وقد زعم اردافيراف (Ardafiraf) انه رأى رؤيا هائلة وصفها وصفاً رائعاً وهي كثيرة الشبه بجحيم دانتي (Dante) . ولكن جهنم غير خالدة في عرفهم ، فلا تتجاوز تسعة آلاف سنة على الاكثر . ويعتقدون بان القيامة ستشمل العالم، يومئذٍ تغرق الارض كلها في سيل من الرصاص المصهور وهو يحرق الخطأة ولا يؤذي الابرار ، ثم يتجدد الكون بعد ذلك ويعيش الناس في هناء خالد لا يشوبه ألم .

ومما يلفت النظر في هذه الديانة القديمة انها تطلعت الى عالم اسمى وهي تتلاقى مع اختها ديانة الهند في نواح عديدة بل انها في الاصل من معدن واحد ولكنهما افترقتا في النتائج . فالهندي بحكم المزاج والمناخ استسلم للاحلام والخمول فبلغ الصوفية المبهمة والحلولية (Panthéisme) اما الفارسي فيقظ نشيط اختط لنفسه مذهباً واضحاً يسعده في الدنيا والآخرة ويسيّر حياته وسلوكه الادبي .

لقد دانت ايران بالاسلام فلم يبق من المزدكيين الا افراد قلائل مشتتين في طول البلاد وعرضها . وقد هرب عشرات الالوف من الفرس الى الهند وخصوصاً الى بومباي وهم يدينون بالمزدكية خالصة من بعض شوائبها كالاقتران بالمحارم مثلاً . ولا يخفى ان هذه العقيدة قد أثّرت في الغرب تأثيراً كبيراً . وقد بحث المؤرخون كثيراً في التأثير المذهبي المتبادل بين الفرس والاسرائيليين ولكنها نقاط كثيرة المزالق لانتعرض لبحثها . اما الأمر الذي لا ريب فيه فهو ان الفرس تأثروا بجيرانهم

الساميين الى ابعد حد .

اجل انه لم يبق في ايامنا هذه الا بعض الالوف من اتباع الزرادشتية، على حين ان اتباع بوذا وكنفوشيوس ولاوتسو يعدون بمئات الملايين . ولكن ذلك لا يحول دون الجزم بان زرادشت الفارسي اختط في تاريخ الاديان صفحة لا يمحوها الزمن رفعت صاحبها الى مستوى الخالدين في تاريخ الفكر .

الأديانُ في أشورَ وبابل

لم تكن بابل في القرن الثلاثين قبل المسيح مملكة واحدة بل ممالك صغيرة متفرقة . لكل مدينة معبدها الخاص ، يكرم فيها إلهاً مطمئناً بين شعبه فيدفع عنها البلاء ويؤازرهم في الحروب تحف به هالة من الآلهة الصغار يقومون لديه بوظيفة الوزراء والقواد ، وكان ملك المدينة بمثابة نائبه المنظور يستمد منه القوة والسلطان .

وبقدر ما تكون المدينة كبيرة يكبر قدر الاله المعبود فيها . فلما نمت مدينة بابل وعظم شأنها اعتبر إلهها رب الارباب واصبحت في نحو القرن العشرين قبل المسيح قبلة الانظار في ظل ملكها العظيم حمورابي وإلهها الاعظم مردوك ، ولكن هذا الاله الاعظم لم يبد جيش الآلهة الثانويين . وكان لا بد لهؤلاء الآلهة في نظر البابليين من ازواج تنفي عنهم ضجر الوحدة فتصوروا لكل اله زوجة . غير انه لم يكن للانثى شأن خطير في حياة زوجها وربما كانت المرأة في أيامنا هذه اكثر تأثيراً على رجلها من تلك الالهة. ولكن الشأن العظيم والمرتبة العليا التي بلغتها الإلهة عشتار (Asthar) لم تبلغها واحـــدة من إلهات الاقدمين . وعشتار هذه هي عشتروت او الزهرة، انها اسماء عديدة لمسمى واحد. وقد اعتبرها البابليون إلهة الحياة والتناسل والاشوريون إلهة الحرب . وكانت تتخلل الحفلات التي تقام في الهياكل لعبادتها عادات قبيحة تنزل

فيها حيوانية الانسان الى احط الدركات البهيمية حتى ان احدى المدن البابلية « اورك » دعيت مدينة البغايا المقدسة .

وبين الآلهة المتعددة واحد يلفت النظر وهو الاله تموز المعروف عند الفينيقيين واليونان بأدونيس .

وليس هذا الاسم نكرة في اذهان اللبنانيين فهو صاحبهم ، حبيب الزهرة ، وصريع الخنزير البرّي في روابي افقا . وفي اسطورته من الجمال والشعر ما حمل اعاظم شعراء الدنيا على وصفها ومنهم الشاعر الخالد شكسبير . وتموز هو اله الربيع في عرف البابليين يفيض على الارض البهاء والنضرة ويكسوها تلك الجلابيب الخضراء التي لا تلبث ان تكويها اشعة الشمس فتميتها وتميته في اول الصيف. لذلك فان شهر تموز يحمل اسم هذا الإله الجميل وهو تذكار موته السنوي .

وقد اطلعتنا الحفريات البابلية بما وجد منقوشاً على الالواح الحجرية التي يعود تاريخها الى القرن العشرين قبل المسيح ، على معتقد البابليين بشأن خلق الكون . وقد ترجمت القصائد المنقوشة على الحجارة. وفيها كثير من الخيال الخصيب ، مثال ذلك قولهم : في البدء امتزجت مياه الاوقيانوس الأب بمياه البحر الأم فكانت الهيولى ، وولد فيها النظام اي الآلهة وقد تم ذلك قبل ان يكون في الاعالي اسم للسماء او في الاسافل اسم للارض . ولكن ميلاد هؤلاء الآلهة أغضب الاوقيانوس وتذمر من الآلهة الصاخبين الذين يعكرون صفوه فقال : حرمت لذة الراحة في النهار وحلو الرقاد في الليل . وتآمر هو والبحر اي الأب والأم فاعتزما ابادة الآلهة ، فقذف البحر بالثعابين والحيوانات الهائلة ليقتل الآلهة .

اما الإله انو (Anon) فاعتراه الرعب وولى هارباً ولكن مردوك كان شجاعاً لا يهاب القتال فاجتمع هو وسائر زملائه في مأدبة واخذ على نفسه قهر البحر شرط ان يولى الرئاسة ثمناً لهذه المجازفة الكبرى ، فرضي الآلهة بذلك وقلدوا مردوك السلطان. وهنا يصف الشاعر البابلي كيفية استعداد مردوك للوقيعة فيقول :

قام مردوك فعلق على جنبه كنانته وقوسه، وحجب وجهه بالبرق، وجسمه باللهيب ، واصطنع شباكاً ليصيد بها البحر ، واستجمع الرياح الاربع فاخضعها لسلطانه ، وحملته العاصفة وكأنها مركب عظيم ، وانقض على البحر وقد حفرت المياه عميق الهُوى ، فرماها بالعاصفة ثم اتبعها بسهم شطر البحر الى نصفين ، فاخذ احد الشطرين ورماه الى فوق فكان الجلد ، وهو في عرف البابليين بحر علوي يمطر المياه . وقد سمّر مردوك هذه المياه العلوية واقام عليها حراساً ثم زينها بالكواكب والنجوم وانما خلق القمر لتنظيم الاوقات . ثم خلق مردوك البشر من دمه . وتنتهي القصيدة بتمجيد ذلك الاله العظيم الذي خلع عليه ما يقارب الخمسين لقباً تعداداً لصفاته . وقد ذكر الطوفان في هذه النقوش الشعرية ايضاً ، ومن القصيدة قوله : خشي الآلهة من الطوفان فهربوا ولجأوا الى سماء احدهم أنو وقبعوا وراء الاسوار كما تقبع الكلاب المذعورة ، ثم تنسموا الرائحة الشهية فحاموا حوم الذباب فوق الدخان العطري المتصاعد من الشحم واللحم . ولقد اراد بعض المؤرخين ان يثبت كون قصة الخلق والطوفان عند اليهود مأخوذة عن البابليين ولكن من تأملها عن كثب وجد بينهما فرقاً عظيماً .

السحر والعرافة والرقى

ان لفظة بابل وحدها مرادفة للسحر ، فكان كلما استعصى على الشاعر العربي تشبيه العيون النجل بغير عيون المها ، عمد الى سحر بابل وخمرها فيقول شوقي مثلاً :

السحر من سود العيون لقيته   والبابليّ بلحظهن سقيته

ومن يجهل مثلاً اسمي هاروت وماروت وهما ملكا السحر في بابل . وعندما كان يمرض احد البابليين كانوا يحسبون المرض نقمة الهية تنصب على الانسان . ولا تعجب لهذا التعليل السخيف الذي كان يلجأ اليه هؤلاء الناس منذ اربعة آلاف سنة فان كثيرين من الشرقيين في القرن العشرين يزعمون ان فلاناً مرض او حلت به النكبة الفلانية عقاباً له على كذا وكذا . وكانت اكثر الشرور التي تحيق بالانسان تنسب الى اعمال السحرة وخصوصاً الساحرات فانهن اعلم بجلب الشر واستمطاره على رؤوس الناس سواء باستحضار الشياطين او باعطاء بعض الادوية والتلفظ بعبارات خصوصية . وكان لهؤلاء السحرة كهّان ورقاة يحاربونهم ويبطلون مفاعيل السحر ، ولا تعجب كثيراً لهذا التدجيل فانك لتجد في عصر الطيران والراديو اليوم امثال هذه الشعوذات في قلب مدينة بيروت ، ولدى المحاكم ودوائر الشرطة الخبر اليقين .

الرجم بالغيب والتكهن

لقد طبع الانسان على التشوق لمعرفة المستقبل وكشف اسراره ،

ليعلم كيف يسير واين يتجه في خضم هذا المجهول ، وكل الشعوب القديمة اخذت هذا الامر بعين الاعتبار . وكان يوسف بن يعقوب ، وذكره شهير في التاريخ ، يعمد الى مثل هذا التكهن عن المستقبل بواسطة جام مذهب كان لديه ، وقد خبأ هذا الجام في عدل اخوته على غير علم منهم ، ولما تبعهم خادمه واستخرج الجام من جواليق احدهم قال لهم : اما تخجلون ان تسرقوا الجام الذي يتفاءل به سيدي ؟ وكثيراً ما كانوا يقطرون بعض نقاط من الزيت في قدح ماء فتطفو هذه القطرات ، فاذا اتحدت القطرتان تكهنوا ان فلاناً سيتزوج فلانة ، كما امتزجت قطرتا الزيت . ومن هذا القبيل التطير ورمي القداح في الجاهلية . وقد اشتهرت بابل على الاخص بالتنجيم ومعرفة سير الكواكب وتأثيرها في مجرى الحوادث ، ولقد شغلت هذه القضية العالم القديم طوال عصور عديدة ولم تزل آثارها حتى يومنا هذا .

وكتاب المنجم ابي معشر الفلكي لا يزال بين ايدينا بل نبوة نوسترادامس (Nostradamus) لا تزال اليوم على الالسنة ، وكل ذلك مبني على تأويل حركات الاجرام الفلكية . وترى الاجوبة على امور المستقبل تأتي مغلفة بألفاظ مبهمة كما هي الحال في كتب الفلكيين بل رباعيات نوسترادامس نفسها ، فتستطيع ان تجد لها من التأويل شتى المذاهب والحلول ، وسنتكلم في الحديث المقبل عن الصلاة والطقوس البابلية .

الصَّلاة في بابل وأشور

كان للصلاة عندهم مكانتها العليا ، وتجلى هذا الشعور الديني محوطاً بهالة من الالفاظ والتعابير الشعرية ، مثال ذلك هذا الابتهال للإلهة عشتار او عشتروت ، واننا نجتزيء منها المقطع التالي : « اني اضرع اليك يا سيدة السيدات والهة الآلهات، ملكة الشعوب ومدبرة الامم ، حينما تنظرين تحيين وتشفين المريض ، فانا عبدك المتألم اضرع اليك متنهداً فأقبلي بوجهك عليّ واستجيبي رجائي فاشفيني من اسقامي حتى اذا غمرتني برحمتك ينظر اليّ الناس فيمجدون اسمك ايتها الملكة » .

وتبدأ الصلوات عادة بالتمجيد والتعظيم وتنتهي بالمطالب والتماس المنافع . وفضلاً عن الصلوات الطقسية فقد كانوا يمارسون الصلوات اليومية ، ومما كتبه ولد الى ابيه : « اني اصلي الى الاله نبو (Nibou) كل يوم ليطيل حياتك » . وكتب موظف الى الملكة : « فليبارك بعل (Bel) ونبو مولاتي ام الملك ، واني اصلي كل يوم لاطالة حياة مولاتي» ، الى آخر هذا الباب من الابتهالات .

القرابين والكهان

وكانوا لا يفترون عن تزيين الهياكل بالذهب والفضة مقدمين للآلهة الشراب والمآكل ومنها السمن والعسل والفاكهة ، وشرط هذه المآكل

ان تكون حلوة الطعم . وكانوا يقربون الحيوانات باعتبار ان كل ما في الكون هو ملك الآلهة . وتطورت عادة القرابين على الزمن حتى اصبحت فريضة تؤدى للهيكل ومعاشاً للكهنة . اما الحيوانات المقربة فكان اكثرها الثيران والحملان والمعزي والطيور. اما الكهان فينقسمون الى فئات منهم من يقوم بتقديم القرابين ومنهم من يقوم بالرقى لطرد الشياطين والارواح النجسة التي تسبب الامراض ، وقد افضى بهم هذا التخصص بشفاء الامراض الى معرفة بعض النبات والعقاقير النافعة في المداواة .

اما رأيهم في الخطيئة والآثام التي تسبب الامراض ، فيمكن استنتاجها من هذا المقطع الذي نجتزىء من صلاة لهم في رقية المريض، ومنه : « ايتها الآلهة والآلهات ، اننا نضرع اليكم من اجل المريض (فلان) . اتراه اغاظ الهه او الهته ففرق بين الابن وابيه والام وبنتها ، ام رفض فك الاسير وانقاذ الحبيس ، أم اهان جده ، ام حقر ابويه ؟ وهل قال نعم بدلاً من لا او قال لا بدلاً من نعم ؟ او زيف النقود ونكث بالعهود او غيّر الحدود ؟ وهل تمرد على رئيسه او سرق او اعتدى على امرأة قريبه ؟ وهل علّم الضلالة او قال شيئاً وهو يضمر شيئاً آخر ؟ وهل زرع الشقاق بين افراد عائلة واحدة ؟»

فانت ترى من هذه التوسلات وامثالها ان الجهة الاخلاقية كانت في مستوى رفيع عند هؤلاء الوثنيين،ولكن طلب الغفران لم يتعدَّ حدّ التماس الشفاء واسكان غضب الآلهة ، ولم تكن هذه الآلهة في نظرهم رحيمة بقدر ما هي مخيفة ، يدلك على ذلك قول المتوسل :

«نظر اليّ السيد في حموّ غضبه ، وزارني بثورة قلبه . التمس العون فلا يمد اليّ احد يداً . ابكي ولا المح حولي احداً ، فاتوسد الارض كئيباً وعيناي الى التراب واتطلع الى الله متنهداً » . ونظراً لتعدد الآلهة كان التائب يتوهم انه اخطأ الى اله او الهة لا يعرفها فيصلي حينئذٍ الى الاله المجهول . ومن اقوالهم في الحكمة والتقوى : « لا تفتح فمك واحفظ شفتيك اذ تكون غاضباً فلا تقل كلمة واحدة وانما التعجل بالكلام يعقبك الندم . طهر قلبك وتقرب من الهك كل يوم تفلح في حياتك فان مخافة الله تستدر الرضى ».

ويتبادر الى الذهن بعد ما تقدم ان تكون هذه الشريعة قد استفاضت في التوصية بالقريب ، وان يكون ذلك قد اثر في شرعة حمورابي . ولكن الامر ليس كذلك فان قانون حمورابي يعاقب بالموت من آوى لديه عبداً آبقاً وسهل له طريق الهرب . واغرب من ذلك ان تجيز هذه الشريعة الحمورابية تعاطي البغاء المقدس تكريماً للالهة عشتروت .

مصير الاموات والحياة الاخرى

اما جهنم فكانوا يسمونها الارض الواسعة ويتصورونها مملكة مترامية الاطراف ، لها شرائعها الخاصة المؤبدة ، لا خلاص منها ولا رجعة ، على ابوابها حراس يحولون دون خروج اهلها . وهي مسورة باسوار سبعة ، غارقة أبداً في ظلام كثيف ، لذلك سميت المقر المظلم ، والمعذبون فيها يتغذون بالتراب والوحل . وحسبوا ان الروح لا يقر

لها قرار ما لم يدفن الجسد . اما مسألة التقمص وقيامة الموتى العامة فليس في آثارهم ما يدلنا عليها. وقد اثبتت الحفريات انهم كانوا يدفنون مع الميت بعض المأكول والمشروب واواني المطبخ ، وانت ترى ان قضية الجوع لها اهميتها عندهم في الحياة والممات . ولا ريب ان في الطبع الانساني ميولاً لا يغيرها الزمن تحملك على القول مع الحكيم ان لا جديد تحت الشمس . وحتى منتصف القرن التاسع كانت المعلومات التي في حوزة العلماء عن ديانة البابليين والاشوريين جد ضئيلة ولكن الحفريات التي كشفت عن مدينة نينوى واشور وبابل وما عثر عليه في الهياكل ، والكتابات المسمارية المنقوشة على الحجارة منذ القرن الثلاثين حتى القرن الثاني ق.م. القت ضوءاً ساطعاً على هذه الناحية المظلمة .

وان ما نقوله عن الديانة البابلية يشمل الاشورية ايضاً لان اشور تبنّت ديانة البابليين ما عدا الاله اشور فهو احتكار للاشوريين . وقد حسب بعض المؤلفين ان البابليين بلغوا التوحيد في القرن العشرين ق.م. مستدلاً على ذلك بوجود اسماء اعلام مضافة الى اسم الجلالة كقولك : الله معي والله ابي، كما تقول اليوم في بعض اسماء العلم عبدالله ولطف‌الله. وتجد في بعض المواد من شرعة حمورابي مثل هذه العبارة : فليمثل المجرم امام الله . ولكن هذا الزعم خاطىء . وقد نجم هذا الخطأ عن غلط في الترجمة ، والصواب هو : اله معي واله ابي ، وذلك لا يعني التوحيد بل قوة غير منظورة تسمى الهاً ولكنه واحد من فصيلة كبيرة .

وبين الديانة البابلية والموسوية بعض الشبه،وهذا التشابه في العادات

والاتجاه الفكري المماثل ليس بالمستغرب بين الشعوب السامية القديمة فان التجاور في المكان والزمان يجعل بين المتجاورين وجوهاً عديدة للشبه ، وهذا الذي حمل بعض الذين عرضوا لدراسة الاديان القديمة على القول بان الموسوية مستوحاة من البابليين .

ان البلور قد يشبه الألماس ولكن الألماس غير البلور . ويخطىء بعضهم سهواً وقد يخطىء قصداً لهوىً في نفسه. ومثال ذلك التحريف الذي وقع في ترجمة القطعة الآتية وفيها عهد قطعته عشتروت للملك اسرحدون واعدة اياه بالفوز اذ يمر بين مدن اعدائه التي تلتهمها النيران منصوراً شامخ الرأس ، قالت : « سأطلع الدخان من عن يمينك والنار من عن يسارك » ، فحرفها المترجم فاصبحت هكذا : سأكون لك في النهار غماماً وفي الليل ناراً . ثم طبق المحرف هذا القول على ما ورد في سفر الخروج من ان يهوه كان يرافق الاسرائيليين بعمود غمام في النهار وعمود نار في الليل . ولا يستغربنّ احد ان يتلاقى الناس على اختلاف الملل والنحل ، والزمان والمكان ، في صعيد واحد ...


شوارد

عليّ فارس الإسلام

لقد حفل تاريخ العرب بذكر الحروب والوقائع، فاذا انت تصفحته اطلّت عليك من خلل السطور غابات تلتمع بالاسنة وتزخر بالمرّان، ولمحت غمرات تسطع فيها السيوف البواتر، وتحمحم في غبارها الخيول الجياد، وقد وصفها بشار بن برد بقوله :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

وقد تعددت فرسان العرب في الجاهلية والاسلام تعدد الكواكب، وتناولتهم الأساطير فنقلتهم من صعيد التاريخ الثابت المطمئن الى بحرها المتقلب بين المد والجزر فخلدت امثال عنترة، وعمرو بن معدي كرب، والمهلهل، ودريد بن الصمة، وربيعة بن زيد المكدم وسواهم. وابتدعت وشوهت ما شاء خيال الاصمعي وما لفقه القصاصون لاستهواء العامة. ولكن البطل الذي لا ريب فيه، والذي تلفت اليه العصور كلما جرى ذكر الشجاعة على لسان هو فارس الاسلام علي بن ابي طالب. ولعل اول مظهر من شجاعته كان يوم الهجرة، اذ ائتمر المشركون بالنبي واعتزموا قتله فانتدبوا لاغتياله اثني عشر شاباً من مختلف القبائل ليتفرق دمه في العرب، فآثر علي ان يفتدي ابن عمه بنفسه، فاتشح بردائه ونام على فراشه فتمكن النبي من الخلاص وقد تعرض علي لسيوف العرب غير هياب ولا وجل.

واليه دفعت راية العقاب يوم بدر ، وكان اذ ذاك في مطلع الشباب لم يجاوز العشرين من عمره،فشرف الراية واعلاها فلم تعرف كفاً امضى ولا ساعداً اغلب .

وقد كفى المسلمين في ذلك اليوم شرّ بطلين من ابطال قريش الوليد ونوفل بن خويلد ، وقد فتح النصر في يوم بدر آفاق الحجاز للنبي وعز المسلمون .

وفي غزوة الاحزاب وهي غزوة الخندق بطش علي بأشد ابطال العرب بأساً واقواهم شكيمة عمرو بن ود العامري . وقد برز عمرو في ذلك اليوم يتحدى صفوف المسلمين ويقرعهم فصمتوا واجمين لايحركون لساناً ولا يسلون حساماً ، فقال النبي : مَن لابن ود ؟ فقام علي وقال: انا له يا رسول الله . فقال له : اجلس انه عمرو بن ود . ثم كرر عمرو النداء وجعل يوبخ المسلمين ويقول : اين جنتكم التي تزعمون انه من قتل منكم دخلها وانشد ابياتاً منها :

ولقد بححت من النداء بجمعكم هل من مبارز
ان الشجاعة في الفتى والجود من خير الغرائز

فغضب علي وجلجلت في صدره حمية هاشم وعبد مناف وهبّ هبّة الرئبال . فلما رأى النبي منه هذا المضي في العزم اعطاه سيفه ذا الفقار والبسه درعه الحديد ورفع عمامته الى السماء وقال : «اللهم اخذت مني عبيدة يوم بدر وحمزة يوم احد وهذا علي اخي وابن عمي فلا تذرني فرداً وانت خير الوارثين» .

ومشى اليه علي فنظر اليه عمرو نظرة المتكبر العاتي وازدراه لحداثة سنه فقال له : غيرك من أعمامك من هو اشد منك فاني اكره ان اهرق دمك فأجابه علي: بل أنا أهرق دمك. فغضب عمرو فاقتحم عن فرسه وسلّ سيفاً كأنه شعلة نار فعقر فرسه وضرب وجهه واقبل على علي فاتقاه بدرقته، فضربه عمرو فيها فقدّها واثبت فيها السيف ، فشجه فضربه علي على حبل عاتقه فسقط وكبّر المسلمون فعرف الرسول ان علياً صرع عدوه فقال:ان قتل علي لعمرو افضل من عبادة الثقلين. وانما سميت هذه الغزوة غزوة الاحزاب لان اليهود وشتيت قبائل الحجاز تألبت على النبي بقيادة ابي سفيان بن حرب.وعلي هو فاتح حصون خيبر. وفي رواية ان الرسول كان يعطي الراية كل يوم واحداً من اصحابه ويبعثه فيرجع ولم يكن فتح فقال: لأعطينّ الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله يفتح الله على يديه كراراً غير فرّار. فدعا علياً والبسه درعه وشد ذا الفقار في وسطه . وذو الفقار هو سيف النبي وفيه يقول القائل :

لا سيف الا ذو الفقار ولا فتى الا علي

وفي ذلك اليوم فتح علي حصون خيبر بعد ان بطش بالحارث واخيه مرحب وهما من اشد ابطال الجاهلية. وقد شهد لعلي بالشجاعة اصحابه واعداؤه على السواء ، وعدوه الذي شهد له لم يكن جباناً رعديداً بل فارساً تمرس بالحرب، له الايام المحجلة والشهرة المدوّية ، وهو الزبير بن العوام . فلما نشبت الفتنة وعبأ الفريقان للقتال عشية يوم الجمل وقف الزبير بين الصفوف وقال : أيها الناس، وطنوا انفسكم على الصبر فانه يلقاكم غداً رجل لا مثيل له في الحرب ولا شبيه ،ومعه شجعان الناس.

وفي موقعة الجمل هذه اظهر علي من الشجاعة والحلم ونبل الاخلاق ما لم يبلغه احد سواه . فهو لم يبدأ القوم بالحرب حتى اصبح في موقف الدفاع ، ودفع الراية الى ابنه محمد بن الحنفية ثم قام فركب بغلة رسول الله ولبس درعاً وتضعضع الناس حين سمعوا به قد تحرك ، واقتتل القوم فهزمت ميمنة علي وميسرته . وروى ابن جهين قال : نظرت الى علي وهو يخفق نعاساً فقلت له: تالله ما رأيت كاليوم قط وإنّ لبإزائنا مئة الف سيف وقد هزمت ميمنتك وميسرتك وانت تخفق نعاساً . فتقدم ونظر الى اصحابه يهزمون ويقتلون فصاح بابنه محمد ان اقتحم فأبطأ ، فأتى علي من خلفه وضربه بين كتفيه واخذ الراية من يده وهجم على معسكر القوم يضرب ويطعن فشقهم. ثم خرج وهو يقول: الماء الماء ، فأتاه رجل بإدواة فيها عسل فقال له : يا امير المؤمنين اما الماء فانه لا يصلح لك ولكني أذوّقك هذا العسل ، فقال : هات . فحسا منه حسوة ثم قال : ان عسلك لطائفي ، فقال الرجل : لعجباً منك والله يا امير المؤمنين لمعرفتك الطائفي من غيره في هذا اليوم وقد بلغت القلوب الحناجر ، فقال له علي : والله يا ابن اخي ما ملأ صدر عمك شيء ولا هاب شيئاً. ولما دعا معاوية الى البراز قال عمرو بن العاص لمعاوية : انصفك الرجل فضحك معاوية وقال : طمعت فيها يا عمرو ، ما اراك الا مازحاً نلقاه بجمعنا . ولم يبدأ الخوارج بالقتال يوم النهروان بل دعاهم الى السلام فابوا الا القتال فابادهم في ذلك اليوم الا بضعة عشر نفراً تفرقوا في الآفاق .

ولنختم هذه الكلمة بخاتمة خطبة له في حث اصحابه على الجهاد

وتوبيخهم على تقاعدهم ومنها : «يا اشباه الرجال ولا رجال ، حلوم الاطفال وعقول ربّات الحجال ، لقد افسدتم عليّ رأيي بالعصيان والخذلان حتى لقد قالت قريش : ان ابن ابي طالب شجاع ولكن لا علم له بالحرب . لله ابوهم وهل احد منهم اشد لها مراساً واقدم فيها مقاماً مني ? ولقد نهضت فيها وما بلغت العشرين وها انا ذا قد نيّفت على الستين ولكن لا رأي لمن لا يطاع» .

عليّ أمير الكلام

تحدثنا في مقال سابق عن علي فارس الاسلام ، ونتحدث عنه اليوم خطيباً حكيماً ، ولا ريب انه سيد البلغاء وكلامه يأتي في الطراز الاول بعد كلام سيد العرب محمد بن عبدالله . فهو البحر خالياً من الشوائب ، يزخر باللآلىء ويطفح بالدر ، ولكنه الخضم لا ساحل له ، يغضب فيتعالى آذيّه جبالاً ، ويُزبد فيدوّي في الأفق البعيد ، ويطمئن فاذا هو اشراق النهار وظل السماء . يلقي الامام الكلمة الموجزة فتنشرها فتراها قد انطوت على حكمة الاجيال ومنارة الصلاح في الدنيا والآخرة .

قال في وجوب الاحسان الى الفقراء : من يعطِ باليد القصيرة يُعطَ باليد الطويلة . ومعنى ذلك ان ما ينفقه المرء من ماله في سبيل الخير والبر وان كان يسيراً فان الله تعالى يجعل الجزاء عليه عظيماً . وما زاد الشاعر الفرنسي هيغو (Hugo) على هذه الفكرة في قصيدته «من اجل الفقراء» حيث يقول : من يعط الفقير يقرض الله .

وقال في الزكاة : ان الله سبحانه فرض في أموال الاغنياء اقوات الفقراء فما جاع فقير الا بما مُتّع به غني ، والله تعالى سائلهم عن ذلك.

فما اسمى هذا الكلام ولو عمل به الناس لما استعرت نيران الثورة في البطون الطاوية والصدور الخاوية ، ولذابت المطامع ومات الحسد

في صدور الناس ، فان الارض سخية ولكن سكانها امسكوا ، فويل للإنسان من اخيه الانسان !

وقيل للامام صف لنا العاقل فقال : هو الذي يضع الشيء مواضعه. فقيل : فصف لنا الجاهل . فقال : قد فعلت . يعني ان الجاهل هو الذي لا يضع الشيء مواضعه ، فكأنّ ترك صفته صفة له اذ كان بخلاف وصف العاقل . وارّجح ان ابا الطيب المتنبي التفت الى هذا الكلام حين قال :

ووضع الندى في موضع السيف بالعلى
مُضرّ كوضع السيف في موضع الندى

وقد زعم حضرة العالم الكبير مصطفى عبد الرزاق باشا في كتابه «فيلسوف العرب والمعلم الثاني» ان المتنبي اخذ هذا المعنى عن ارسطو.

وقال في الدفاع عن النفس ، وهو البحث القانوني الذي استفاض في الكلام عنه فقهاء الامس وعلماء اليوم : ردوا الحجر من حيث جاء فان الشر لا يدفعه الا الشر .واورد في شرح هذه الكلمة فقيد الأدب الشيخ محمد عبده : هذا اذا لم يكن دفعه بالاحسن .

وقال في حسن الصحبة : من لان عوده كثفت اغصانه . يريك بذلك ان التواضع يكثر الاصدقاء فيلتف الاصحاب حول الصديق كما تلتف الاغصان حول العود الرطب ، وهي تجف وتتساقط اذا يبس العود ، وذلك شأن المتكبر المزهو بنفسه ، يبعد عنه الصحب فيعرى .

وقال : احذروا صولة الكريم اذا جاع واللئيم اذا شبع . اجل

وليس يحز في نفوس الاحرار مثل عتو اللئيم وادعائه ، ان الجبال لأخفّ منه على قلوب الناس . وانت كيفما تأملت هذا الكلام، قامت لديك الشواهد على صحته. أو ليس كافور الاخشيدي من استطع الادلة على ذلك ؟ أو ليس الجزار الذي كان عبداً ذليلا مثالاً آخر ؟ ولم نعود الى التاريخ لنقيم الادلة ، ورأي الامام غني عن البرهان على حد قول الشاعر :

تريد على مكارمنا دليلاً   متى احتاج النهار الى دليل

وان ما نورده من الامثلة هو فقط من قبيل الشرح .

اجل احذروا صولة اللئيم اذا شبع ، وان البصير ليتعثر كل يوم بالكثيرين من حديثي النعمة المترفين . وان اجفانه لتتأذى بمنظر هذه الحشرات الوضيعة تنظر الى الناس من عل كأنهم في نفق ، وكأنها في طيارة .

وقال في الصحة : كم من اكلة منعت اكلات . واذا انت نظرت الى المصابين بامراض المعدة وما يتصل بها وما يتفرع عليها ادركت ماتحمل هذه الكلمة . ولقد كان ابعد الناس عن الشره ، بل كان يجوع فاذا اكل ترك الطعام قبل ان يشبع عملا بسنة الرسول . وقد صح جسمه بالتقشف وكان اصلب الناس عوداً واقواهم ساعداً ، فهو عدو المآدب ينهى عنها عماله بغية التعفف والعدل . فلا يستعبدهم صاحب الوليمة لمآربه ، ولا يسخرهم لاغراضه . ومن كتاب له الى عثمان بن حنيف عامله على البصرة ، وقد بلغه انه دعي الى وليمة قوم من اهلها فمضى اليها :

«اما بعد يا ابن حنيف فقد بلغني ان رجلا من فتية اهل البصرة دعاك الى مأدبة فاسرعت اليها تستطاب لك الالوان ، وتنقل لك الجفان ، وما ظننت انك تجيب الى طعام قوم عائلهم مجفو ، وغنيهم مدعو. فانظر الى ما تقضمه من هذا المقضم فما اشتبه عليك علمه فالفظه وما ايقنت بطيب وجوهه فنل منه ... الا وان امامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه ومن طعمه بقرصيه ، ولو شئت لاهتديت الطريق الى مصفّى هذا العسل ، ولباب هذا القمح ، ونسائج هذا القز . ولكن هيهات ان يغلبني هواي ويقودني جشعي الى تخيّر الاطعمة ، ولعل بالحجاز واليمامة من لا طمع له في القرص ولا عهد له بالشبع . وكأني بقائلكم يقول : اذا كان هذا قوت ابن ابي طالب فقد قعد به الضعف عن قتال الاقران ومنازلة الشجعان ، الا وان الشجرة البرية اصلب عوداً ، والروائع الخضرة ارق جلوداً ، والنباتات البدوية اقوى وقوداً وابطأ خموداً» الله اكبر .

ويرسل امام البلغاء الجملة فتأتي عامرة كايمانه ، متينة كاخلاقه ، تتأملها فاذا هي حصن منيع للفكرة العالية ، وتحاول ان تبدل شيئاً في جدار هذا المعقل القوي كأن تضع حجراً في مقام آخر او ان تقدم وتؤخر فلا تستطيع . وان الواقف حيال هذا البناء الشامخ كالواقف امام قلعة بعلبك، يحاول ادخال المسمار بين الصخرين العظيمين فيخفق. ولا يحس روعة البناء مثل البنّاء الحاذق الذي تمرس بالفن وادرك مطاويه ودقائقه . وكذلك هو المنشىء يدرك متانة السبك وروعة الديباجة عندما يحاول ان يأتي بمثلها فيفشل . وانا نورد لك مثالاً على

ذلك ، جملة قالهـــا الامام في بعض ايام صفيّن وقد رأى ولده الحسن يتشرع للحرب فقــال : املكوا عني هذا الغلام لا يهدّني فانني انفس بهذين – يعني ولديه – على الموت لئلا ينقطع بهما نسل رسول الله . ويريد بقوله املكوا عني هذا الغلام اي خذوه بالشدة وامسكوه لئلا يهدني اي يهدمني ويقوض اركان قوتي بموته في الحرب ، وَنفَسَ به اي ضنّ به على الموت . وهذا هو عالي الكلام ، وهذا نهج البلاغة .

ولا اعتقد ان بليغاً رصين القلم مشرق الديباجة لم تتسرب اليـه البلاغة من القرآن الكريم او كلام النبي او علي بن ابي طالب . فمن لم يتتلمذ له فقد اخذ عن تلاميذه .

وقد عظّم بعضهم امر الجاحظ فسمّاه شيخ كتاب العرب . وفي الحقيقة انه كاتب المعي وله في كتاب الحيوان مثلاً مزية الدقة في الوصف مع إحكام وبيان نضير . ولكننا سنورد لك مقطعين ملخصين يدلان على طريقة الإمـام في الوصف فتلمس الفرق بين سيد البلغـاء والكاتب البليغ وانّا نتخذ لهذا التمثيل حيواناً دميماً هو الخفاش وطائراً جميلاً هو الطاووس . فمن قوله في الخفاش : ومن لطائف صنعة الله وعجـائب خلقته ، ما ارانا من غوامض الحكمة في هذه الخفافيش التي يقبضها الضياء الباسط لكل شيء ويبسطها الظلام القابض لكل حي ، وكيف عشت اعينها عن ان تستمد من الشمس المضيئة نوراً تهتدي به في مذاهبها ، وتتصل بعلانية برهان الشمس الى معارفها ، وردعها بتلؤلؤ ضيائها عن المضي في سبحات اشراقها ، ولكنها في مكامنها عن الذهاب في بلج ائتلافها . فهي مسدلة الجفون بالنهار على احداقها ، وجاعلة

الليل سراجاً تستدل به في التماس ارزاقها ، فلا يرد ابصارها اسداف ظلمته ، ولا تمتنع من المضي فيه لغسق دُجنّته . فاذا القت الشمس قناعها ، وبدت اوضاح نهارها ودخل من اشراق نورها على الضباب في اوجارها . اطبقت الاجفان على ما فيها وتبلغت بما اكتسبت في ظلم لياليها . فسبحان من جعل الليل لها نهاراً ومعاشاً والنهار سكناً وقراراً، وجعل لها اجنحة من لحمها تعرج بها عند الحاجة الى الطيران، كأنها شظايا الآذان ، غير ذوات ريش ولا قصب الخ ...

ومن قوله في الطاووس: ومن اعجبها خلقاً الطاووس الذي اقامه في احكم تعديل ، ونضد الوانه في احسن تنضيد ، بجناح أشرج قصبه وذنب اطال مسحبه. اذا درج الى الانثى نشره من طيه وسما به مطلاً على رأسه كأنه قلع داري ، يختال بألوانه ويميس بزيفانه ... تخـــال قصبه مداري من فضة وما انبت عليهـا من عجيب داراتـه وشموسه خالص العقيان وفلذ الزبرجد ، فان شبهته بما انبتت الارض قلت جني جُني من زهر كل ربيع ... يمشي مشي المرح المختال ويتصفح ذنبه وجناحيه فيقهقه ضاحكاً لجمال سرباله واصابيغ وشاحه ... ومخرج عنقه كالإبريق ، ومغرزها الى حيث بطنه كصبغ الوسمة اليمانية . او كحريرة ملبسة مرآة ذات صقال . ويخيل لكثرة مائه وشدة بريقه ان الخضرة الناضرة ممتزجة به. وقلّ صبغ الا وقد اخذ منه بقسط وعلاه بكثرة صقاله وبريقه وبصيص ديباجه ، فهو كالازاهير المبثوثة لم تربّها أمطار ربيع ولا شموس قيظ .

وبعد فماذا نستطيع ان ننقل اليك من البحر في دقـائق محسوبة وليس في يدنا الا صدفة لا تسع منه الا بعض قطرات ، فانزل انت الى البحر ، وكحل الطرف بهذه الآفاق العلى ، وكرر الحديث الشريف : ان من البيان لسحراً .

عليّ الزاهد المتصوّف

تحدثنا في المقالين الماضيين عن علي فارس الاسلام ، وسيد البلغاء . اما اليوم فاننا نتحدث عن الرجل المثالي، الذي علت اخلاقه فلم يلتحق بها الغبار ، ولا اعتلقت بها ادران الناس، فلقد جاء الدنيا عارياً وخرج منها عارياً الا من الفضل والذكر الخالد .

فمن آيات عدله ان اخاه عقيلاً قدم عليه بالكوفة فشكا اليـه قلة ماله ، وذكر عسره والتمس المعونة . وكان علي اذ ذاك امير المؤمنين وهو المولى المطلق والسيد في مال المسلمين ، لا رأي مع رأيه ولا رقيب عليه . فقال علي : والله مالي مما ترى شيئاً الا عطائي ، فاذا خرج فهو لك . فقال عقيل : او ترى شخوصي من الحجاز اليك من اجل عطائك وما يبلغ من حاجتي ؟ فقال علي : هل تعلم لي مالاً غيره ، ام تريد ان يحرقني الله بنار جهنم في صلتك باموال المسلمين ؟ قـال عقيل : والله لأخرجنّ الى رجل هو اوصل لي منك ، يريد بذلك معاوية . فقال له : راشداً مهدياً . فذهب الى معاوية ونال منه ثلاثمائة دينار .

وقد اشار الامام في بعض خطبه الى تخوفه من نار الجحيم لو ظـلم احداً او فرّط في مال المسلمين . وذكر كيف كان يرفض الصلات بعزة واباء فقال في خطبة له .

والله لقد رأيت عقيلاً وقد أملق حتى استماحني من بركم صاعـاً ،

ورأيت صبيانه شعث الشعور غبر الالوان من فقرهم ، فاحميت له حديدة ثم ادنيتها من جسمه ليعتبر بهـا ، فضجّ ضجيج ذي دنف من ألمها وكاد ان يحترق من ميسمها ، فقلت له : ثكلتك الثواكل يا عقيل ، أتئنّ من حديدة احماها انسان للعبه ، وتجرني الى نار سجرها جبارها لغضبه ... واعجب من ذلـك طارق طرقنـا بملفوفـة في وعائها ، ومعجونة شنئتها كانما عجنت بريق حية او قيئها فقلت : أصلة ام زكاة ام صدقة ، فذلك محرم علينا اهـل البيت ، والله لو اعطيت الاقـاليم السبعة بما تحت افلاكها على ان اعصى الله في نملة اسلبها جلب شعيرة ما فعلت ، وان دنياكم لأهون عندي من ورقة في فم جرادة تقضمها .

وقد بلغ علي من الزهد والتصوف ما لا تبلغه الا النفوس العالية التي انسلخت عن عالم المادة وتبرأت من الدنيا الغرور ، فجوهـا غير هذه الاجواء التي نعرفها ، وطعامها من غير الطعام الذي نعلم ، فهي تزدري الترف وتهزأ بالأبهة . وان هذه الصوفية التي مبعثهـا القلب وحب الاتصال بالله هي الأفق العالي الذي تطلع اليه ابطال العالم عندما ملّ الانسان هذه الارض فرفع بصره الى ما فوق .

والى هذه الصوفية تطلعت الهند واليونان ، واليها اشار النـاصري في خطبة الجبل فحبّب الى الناس الفقر ليذل الرومان المترفـين ، وحبّب الى العالم الجوع النفساني ليبيد التخمة في جسم الحيوان. وعلّم الناس التواضع ليضع المتكبرين الذين اصلهم من الـتراب الى التراب يرجعون . اجل هذه هي الصوفيـة التي انبتت اغوسطينوس وباسكال وتوما الأكويني وتيريز دافيلا (Thérèse d'Avila) وابن الفـارض .

هذه الصوفية نفسها التي وجهت هنري برغسون اكبر فلاسفة اوروبا في القرن العشرين الى محجة الصواب ، الى الله ، اطلت من خلال مدرعـة الصوف التي كان يلبسها شيخ الزهاد علي بن ابي طالب .

وروي عنه انه لما خطب الناس بالكوفة نصبت له حجارة وقف عليها وعليه مدرعة (وهي قميص ضيقة الاكام). وكانت حمائل سيفه من ليف ،وفي رجليه نعلان من ليف وكأن جبينه ثفنة بعير (والثفنة هي ما يمس البعير من الارض عنـد البروك) . وكان يكتفي بقرصين من خبز الشعير طعاماً ويغدو فيكر على الكتائب يمزقها بسيف سله الله نصرة للحق على الباطل ، وهو اجلّ سيف في قريش بل اجـل سيف طلعت عليه الشمس في جزيرة العرب .

ويروى انه لما تزوج فاطمة لم يكن لديه سوى جلد كبش يتخذه فراشاً وقطيفة يتخذها غطاء وليس لديه خادم .

وقال علي : لقد رأيتني مع رسول الله واني لأربط الحجر على بطني من الجوع .

ومن خطبه في التقوى والزهد قوله : الغاية امامكم وان وراءكم الساعة تحدوكم تخففوا تلحقوا وانما ينتظر باولكم آخركم .

وانفس ما في الكلمة قوله بعد تـذكير الناس بالموت والحساب : تخففوا. فقد حملت هذه اللفظة سيلاً من المعاني ، اي لا تثقلوا نفوسكم بالشهوات واباطيل الدنيا فترهقكم باثقالها،بل طهروا ضمائركم واغسلوا قلوبكم من ادرانها واسعوا الى الآخرة خفافاً . والى هذا المعنى قصد

الناصري له المجد بقوله لشيوخ اليهود : الحق اقول لكم ان لم تعودوا مثل هؤلاء الصغار —يريد بذلك طهر الطفولة — فلن تدخلوا ملكوت السموات .

ومن كلامه في ذم الدنيا قوله: ما اصف من دار اولها عناء وآخرها فناء ، في حلالها حساب وفي حرامها عقاب . رنق مشربها ردع مشرعها يونق منظرها ويوبق مخبرها ، غرور حائل وظل زائل ، فانظروا اليها نظر الزاهدين فيها ، الصادفين عنها ، فانها والله عما قليل تزيل الثاوي الساكن وتفجع المترف الآمن ، لا يرجع ما تولى منها فأدبر ، ولا يُدرى ما هو آتٍ فينتظر .

وقد ابت الاقدار الا الكيد للرجال ، فان هذا الرجل العظيم الذي يتعذر ان تجتمع صفاته لرجل ، ولم يثبت امامه شجاع في ميدان الوغى ، قتل بسيف اللعين الغادر عبد الرحمن بن ملجم صبيحة يوم الجمعة، لعشر ليالي بقين من رمضان سنة اربعين . فلما سجد علي للصلاة وثب عليه وضربه على قرنه بالسيف فقال علي : فزت ورب الكعبة ، ثم قال : لا يفوتكم الرجل ، ووثب عليه الناس فأخذوه . وكان ابن ملجم يعرض سيفه فاذا اخبر ان فيه عيباً أصلحه . فلما ضرب علياً قال: لقد احددت سيفي بكذا و كذا وضربت به علياً ضربة لو كانت باهل المصر لأتت عليهم . وادخل ابن ملجم على علي فقال : اطيبوا طعامه والينوا فراشه فان عشت فانا وليدمي اما عفوت واما قاصصت، وان مت فالحقوه بي ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين . فانظر الى علي يأبى — وهو على فراش الموت — الا اقامة حدود الله فلا يأخذه

الغضب ولا يثيره السخط فيعجل بالانتقام . ورجّح بعضهم انه لو عاش لعفا عن النكس الغادر . ومما جاء في كلامه قبيل موته قوله: رب رحيم ، ودين قويم ، وامام عليم ، انا بالامس صاحبكم وانا اليوم عبرة لكم وغداً مفارقكم غفر الله لي ولكم ... وانما كنت جاراً جاوركم بدني اياما وستعقبون مني جثة خلاء ساكنة بعد حراك وصامتة بعد نطق ، ليعظكم هدوي وخفوت اطرافي وسكون اطرافي .

ومن وصيته لولديه اذ حضرته الوفاة : اوصيكما بتقوى الله . لا تبغيا الدنيا وان بغتكما ، ولا تأسفا على شيء منها زوى عنكما وقولا بالحق واعملا للأجر ، وكونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً .

وقال في حق قاتله : انظروا اذا انا مت من ضربته هذه فاضربوه ضربة بضربته ولا يمثل بالرجل فاني سمعت رسول الله يقول : اياكم والمثلة ولو بالكلب العقور .

ألا كرم الله وجه الامام الاعظم الذى سلّ سيفه في نصرة الحق فكان بطلاً لا يدانيه في شجاعته احد ، وتعبّد وتصوّف فكان كعبة للتقوى ومنارة للصلاح ، وخطب وعلّم فكان سيد العلماء وسدرة الفصاحة. ان ابن ابي طالب كان وسيبقى انشودة العز في فم الاجيال.

اللغة

يولد الانسان نزّاعاً الى النطق كما يولد البلبل وفي لهاتـه طبيعة التغريد ، على فرق بينهما في النتائج . فان عنادل الارض جميعاً تصدح بنغم واحد لا يتبدل بتبدّل الزمان والمكان ، ولا تتأثر بحكم البيئة والتطور . ذلك لأن لغة الطائر هي لغة الطبيعة وحدها ، اما لغة الانسان فهي لهجة الطبيعة والمواضعة معاً . ولا ريب ان لغة البشر كانت في الاصل وليدة الطبيعة وحدها فلم تتجاوز الاشارات ، يتفاهم بها الناس قبل فجر التاريخ ، ثم نمت فروع هذه الشجرة وبسقت خلل العصور حتى شهدناها اليوم وغصونها تكاد تنوء بتراث الاجيال السالفة. وقد زعم بعضهم ان اللغة بدعة متأخرة فقد اتى على الانسان حين من الدهر لم يحرك فيه لساناً ، ثم فوجئت الدنيا بعبقري وضع لغة فاملاها على جيل من الناس فنطقوا بها . ولكننا نسأل القائلين بهذا الرأي : اي امتياز خوّل نابغتهم هذا قوة الخلق فارتجل اللغة ارتجالاً ؟ بل كيف استطاع إفهام معاصريه لهجة لا عهد لهم بها او بما يشاكلها ؟

وزعم آخرون ان الله علم الانسان اللغة لانها اداة الفكر ووسيلة اظهاره معاً فلا ريب ان مبتدعها اسمى فكراً واوسع بصيرة من المخلوقات ، ويحتجون لذلك بما ورد في الكتب المقدسة . ولو صح هذا الزعم لوجب ان تكون اللغة توقيفية اي منزلة لا يعتريها نقصان ولا زيادة . وليس الواقع كذلك لانها خاضعة لسنّة التطور ، وان رجال

الدين انفسهم يحملون ذلك على محمل الوحي باعتبار ان الخالق فطر الانسان وركّز فيه قوة العقل واعدّه للنطق ، لا أنه ألف حروفاً ودفعها الى البشر لينطقوا بها شأن المعلم مع التلامذة .

وبديهي ان الانسان مولود اجتماعي لا يكتفي بالتفكير والحس ، بل يود الاتصال بنظرائه فيفضي اليهم بمشاعره وافكاره ، ولقد تعذر عليه ابراز الفكر بنفسه فعبر عنه بالايماء ثم بالنطق .

ولا ريب ان الانسان الاول كان يعيش عيش الضواري حسبه ان يدفع الجوع بما تصل اليه يده من النبات والحيوان ، ولكنه اضطر للخروج من هذه العزلة فتكاتف مع اخوانه البشر . وكان لا بد له من التفاهم مع انداده فاستحالت هذه الرغبة فيه اشارة فصوتاً فكلاماً . فعمد الى الاشارة اولاً كما يفعل الاخرس اليوم ، وقد كانت الاشارة قبل اللغة جسراً تعبر عليه فكرة شخص الى ذهن آخر ، وكانت هذه الوسيلة ادنى درجات السلّم في التعبير .

وخطا الانسان بعد ذلك خطوة في التطور فتنبه الى اصوات الطبيعة والحيوان فحاكاها . وقلّد هزيم الرعد ، وصهيل الجواد ، وعواء الذئب ، فنجم عن هذه المحاكاة ما يسمونه حكاية صوت . وان في اللغة العربية اسطع الادلة على صحة هذا الرأي . فاذا عمدنا الى فعل القطع مثلاً نرى الانسان في الطور الوحشي يسمع حزة في جذع يقطع فيقول حزّ ، فاذا كان المقطوع جسماً صلباً سمع صدى البت فيقول بتّ ، او القص فيقول قصّ . ولا يمنعه بعد ذلك مانع من الزيادة في

هـذه الاصوات زيادة اصطلاحية يرافقها معناها الطبيعي ، فيزيد في حزّ حزم ، وفي بتّ بتر ، الى آخر الباب .

ولا يقف التواضع عند هذا الحد بل يتعداه الى القلب والابـدال فتقول في بتّ ، تبّ وفي بتر ، تبر . وهكذا ترى الانسان ينمو وتنمو معه اللغة فتتسع بقدر رغباتـه وتتفرع بتفرع اشيائه ، فلقد كانت بسيطة يوم كان عيشه كذلك . الا ترى ان الانسان لو اكتفى بالعباءة مثلاً لجعلها كساءً يتقي به البرد ، ونشرها مظلة يدفع بها حرّ الشمس ، واتخذها لحافاً دون الصقيع ، وفراشاً يقيه وخز الشوك وسمى كل ذلك عباءة . فلما تعددت الاشياء فصل لها الاسماء وشقـّها من مصادر قليلة فتكاثرت فروعها حتى جاوزت الالوف .

ومن المؤسف ان نكون نحن الناطقين بالضاد اقل تطوراً مـن الاجداد السابقين ثم نباهي العصور بالمدنية والرقي . فلقـد ألـّف اصحاب المعاجم معاجمهم في العصور الوسطى ، وجمعوا فيها ما تداولته الالسنة قبلهم ، ثم جاء خلفاؤهم فاقتصروا على النقـل واغلقوا على انفسهم وعلينا الباب ، واقاموا سدّاً بين اللغة والحياة . وقيل لنا اسجدوا لهذه الاصنام من الكتب ولا تمدوا اليها يداً ، وحسبها مجداً ان الغبار تراكم عليها فهي عريقة في القدم . وقولك هذا كقولك لمن يريد ركوب الطائرة : دونك الجواد فلقد كان هذا مركب الاجداد منذ القدم ، فلا بأس عليك ان تكتفي به اليوم . ولو عاد الجوهري والفيروزابادي واضرابهم الى الحياة لحذفوا من معاجمهم ما كفنه البلى بكفن النسيان ، وادخلوا فيها ما يجري على الالسن صباح مساء ،

فيحذفون منها مثلاً الصلقم والشندخ والدرباس ومئات من امثالها من اسماء الاسد ويكتفون بالليث والرئبال .

ولقد بلغت اللغة العربية ما بلغتـه من الضيق والجمود في العصور الاخيرة بكسل ابنائها وجمودهم عن مسايرة العمران وضياع المجامع العلمية بين : « هـكذا وردت ، ولم ترد كذلك » و « زعم الاخفش وخالفه ابن مالك » الى آخر الباب. على ان هذه اللغة هي لغة الموسيقى والخيال ، وحلية الفن والجمال ، بها نزل القرآن الكريم ، وبها جرت اقلام الملهمين ، ولكن ابناءها حنـّطوها وسيّجوا من حولها وقالوا لها نازعي هنيئاً . وانك لو عمدت مثلاً الى معجم فرنسي يضم بين دفتيه عشرة آلاف لفظة فانك لا تجـد فيه لفظة واحدة كررت مرتين في المعنى الواحد . فاذا ترجمت مفردات هذا المعجم الى اللغة العربية ، فان الالفاظ العربية لا تتعـدى الالفي لفظة ، والسبب في ذلك هو استعمال الكلمة الواحدة خمس مرات لمعان مختلفة . وقد ذكرني هذا بنادرة : فان احد الظرفاء زعم انه يستطيع تكلم اللغة الانكليزية اذا عرف منها خمسين لفظة . فسئل ايضاح ذلك فقال : انه يستعمل الكلمة الواحـدة لمعان عديدة ، فاذا اراد ان يدعو لغرفته شخصاً قال له : «كم هير» . واذا شاء صرفه ذهب هو الى الباب وقال له : « كم هير » . اما نحن فقد نهجنا نهج هذا الظريف تقريباً بتسمية الاوتوموبيل سيارة ، والسيارة مؤنث السيار وهي لفظة عامة ينطوي تحتها كل ما يسير على الارض وما يجري على الماء ، ويمكن اطلاقها على السفينة وعلى القافلة ، والقافلة تعني المتعدد ويقصد بها الرفقة المسافرة او الراجعة من السفر .

وفي هذا المعنى استعملها القرآن الكريم اذ ورد في سورة يوسف : « وجاءت سيارة فارسلوا واردهم فأدلى دلوه وقال يا بشرى هذا غلام واسروه بضاعة والله عليم بما يعملون » . وانما اللغة كالمرآة ينعكس عليها العقل وتدل على حضارة الشعب واخلاقه ومبلغه من الرقي او الانحطاط، ولذلك قال افلاطون: «تكلم فاعرف من انت» . والالفاظ مراكب العلم ، ولباس الفكر ، ترتكز فيها الخاطرة السانحة فتصبح الكلمة حصناً لها . ولكننا نريد الكلام حصوناً للفكر لا سجوناً واغلالاً . وقد تسيء الالفاظ اساءة عظمى الى الفكر اذا هي لم تخرجه صافياً فابرزته مشوهاً او مشبوهاً ، وتضر بالسامع ضرراً بالغاً .

ويدخل في هذا الفصل الامثال الكاذبة والاوهام الموروثة التي تتناقلها الغوغاء بدون ما تبصُّر ، ولقد اسماها الفيلسوف باكون (Bacon) : اصنام الساحة العامة . وحسبها من الصنمية ان تكون هذه الجمل قديمة العهد او مستحدثة وعليها طلاء من الخلابة ، او رنة من الموسيقى ، لتخرج عن حيّز الجدل والمناقشة وتغدو صاحبة العصمة . الا ترى انك لو هتفت ثلاثاً باسم الحرية ، لتألب الناس عليك ومشوا وراءك لا يعلمون لماذا او الى اين، وانما سحرتهم لفظة لها مئات المعاني . ونحسب ان عقلنا يتحكم بالكلام ، وانما الكلام هو الذي يقود العقل في مثل هذه الاحوال . وكثيراً ما تتباين المعاني بتباين العقول ، فيحملها سامع على محمل ، ويفسرها غيره تفسيراً آخر ، وفقاً لقابلية الاشخاص وميولهم ودرجة ثقافتهم . واذكر انه عندما هوى عبد الحميد عن العرش وتبوأ حزب تركيا الفتاة مقاعد الحكم ، نودي بالحرية ، فحملها

المثقفون على انها سقوط الاستبداد ، اما الرعاع وسفلة الناس فحسبوا الحرية انطلاق الايدي بالسلب والقتل وهتك الاعراض وما يتصل بذلك من الموبقات .

وان لغات الارض جميعاً لتضيق عن الفكر فلا تنقل عنه الا بعض الرموز ، لان الفكر من معاني الروح ويقصر الكلام عن تجسيدها ، فيعمد الى التشبيه والمجاز ، ولا ينقع ذلك من غلة الصادي الا قليلاً . فلو فرضنا انك حزنت امس وحزنت اليوم فانك تعبّر عن الأسى في الحالتين بما يتشابه ، او تضيف الى ذلك عبارة اكثر او اقل ، أو اخف او اشد ، ويتعذر عليك ابراز الفكر تاماً كما تبرز صورتك في المرآة . وأظهر صفات اللغات وضوحها ، وافضل اللهجات اقربها الى تأدية الفكر وصفاء التعبير . وينطوي تحت هذه الصفة الوضوح والدقة والحياة والانسجام . وعندما اعرض للوضوح والسهولة ارثي لطلاب اللغة العربية في ما يجتازون من المسالك الوعرة في دراسة قواعدها . فحبذا لو سهلت هذه الاصول بدون ان يمس جوهر اللغة ! واني لموقن ان الارض لا تزلزل اذ ذاك زلزالها بل يقبل الطلاب على اللغة بحماسة واعجاب اذ تلقي عنها اسمالها .

وماذا يضير اللغة مثلاً لو جعلت حركة عين الفعل المضارع واحدة في جميع الافعال ؟ وهل يختل نظام الشمس اذا صرفنا هذه الممنوعات من الصرف ؟ ولِمَ يجوز للشاعر صرفها ويمتنع ذلك على الناثر ، واي خلل بالمعنى يلحق من جراء ذلك ؟ وهمزة «إن» هذه الهمزة التي تقف في وجه المتكلم وقوف الشحاذ بباب الغني الشحيح ، فتكون مفتوحة

في مواضع ومكسورة في مواضع اخرى ، ويجوز الوجهان في بعض الحالات ، فهل يجف البحر او تكسف الشمس اذا جعلت مفتوحة او مكسورة اطراداً ؟ وقد اشرنا الى ذلك من قبيل التمثيل لا من قبيل الحصر . هذا فضلاً عن الشواذات وصعوبات النسبة والتصغير وجموع التكسير ، وهذه الجموع تداني حركة عين الفعل في الصعوبة والثقل ، فتقف الاختان في طريق الطالب، وتدفعان به الى الغياهب والشعاب ، فيعود منها حافي القدمين مدمى الرجلين ، يتقطر من جبينه العرق البارد .

واخيراً اننا ندعو المجامع العلمية وحكومات الاقطار العربية الى الاهتمام بشأن اللغة، ورفع دولة القلم الذي به افتتح القرآن المجيد فنزلت هذه الآيات الخمس من سورة العلق : « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم ، الذي علم بالقلم ، علّم الانسان ما لا يعلم ».

خواطر في الأدب

أصعب الصعوبات الخلق ، ذلك أمر لا ريب فيه ولا جدال . ومن هنا أدرك الانسان عظمة الخالق الذي أبدع كل شيء من العدم فكان الكون .

ويأتي البناء في الدرجة الثانية من سلّم الصعوبات لان في البناء ايضاً شيئاً من الخلق ، ولكن الانسان لا يخلق من العدم بل يكيّف المادة التي بين يديه وفي هذا التكييف نفسه خلق . فبقدر ما يظهر الفن في البناء يكون الاعجاب بالباني . فاذا تأمل المتأمل قلعة بعلبك ، او اهرام الجيزة او اطلال تدمر، وما شابه ذلك من الآثار الناطقة بعظمة أصحابها ، أخذته الدهشة وسبح خياله في الماضي البعيد، يستطلع المدة التي استغرقها البناء ، وما انفق فيه من المال وما سحّ من عرق العمال ، وما ركزه ارباب الصناعة في الصخور الجلاميد من الفن والجمال . كل هذه الامور وما اليها من الحواشي تدلك على صعوبة البناء . أما الهدّم فما أسهله ! عمل سنة تستطيع تدميره في يوم واحد . هذا بقطع النظر عن الطاقة الذرية التي تدمر في لحظة ما بناه الانسان في أجيال .

ولا يشابه الطاقة الذرية في عالم التهديم إلا النقّاد في عالم الأدب . فقد سمعت واحداً منهم يصدر حكمه الارتجالي على كتاب نفيس، أجزم انه لم يقرأ منه كلمة واحدة . وقد استظهرت هذا الحكم ، ولا فخر

بقوة حافظتي ، فالحكم آية الآيات في البلاغة والاختصار . قال حفظه الله : ان الكتاب سخيف .

كان ذلك في مجلس ضمّ رهطاً من الموسومين بسمة التأدب ،ولكن لم يرفع أحد منهم إصبعه معترضاً ، لان القائل يتمتع بشهرة عريضة ، فكأنهم وقعوا معه الحكم بالموت على رجل لم يجترح جرماً . ومن المؤسف أن ننظر الى القائل لا الى المقول ويذكرني ذلك بنادرة وقعت منذ وقت غير بعيد ملخصها :

إن امرأة أرملة لها ولد وحيد دخل الرهبانية فغاب عن أمّه خمس عشرة سنة تلقن في اثنائها العلوم العالية فغدا من المجلين في الخطابة والوعظ . وعاد الى زيارة امه بعد هذه المدة الطويلة وقد سبقته اليها شهرته في الخطابة فسرت الوالدة سروراً لا حدّ له ، وطلبت منه بعد الغداء أن يسمعها عظة دينية تفرح قلبها ، وانها احق الناس بسماعه لأنها أمه ولانه وحيدها . فحاول الابن العالم إقناعها بان العظات لا تلقى إلا في الكنيسة ، فأبت وألحّت فنهض الخطيب وتظاهر بالجد وبدون ان يضحك صاح بصوت جهير :

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فما ان اكمل هذا البيت حتى ابتلت جفون الوالدة بالعبرات وهتفت بصوت متهدج قائلة : ما احسن كلام الرب ! اذن فالقيمة للقائل لا للقول في ذاته .

ولا يخفى ان النقد أيسر الطرق لبلوغ الشهرة في هذا البلد . ولا

عجب فانه من قبيل كسر مزراب العين . وفي الغالب ينبري لنقد الشعراء متأدبون لا يعلمون من الشعر الا انه كلام موزون مقفى . ولكنهم يجهلون الوزن والقافية ويعجزون عن نظم بيت واحد .

قد يعترض معترض فيقول : لا يشترط في ناقد الشعر أن يكون شاعراً فان معظم الكتاب الاوروبيين الذين يتصدون لنقد الشعر لا ينظمونه . أجل ! ولكن بين شعر القوم والشعر العربي فوارق عديدة إن من جهة تعدد الابحر، وان من جهة القافية التي تتكرر في القصائد العربية فلا تضيق بمئات الابيات ، وانما القافية عماد الجرس عندنا ، وجلّ ما يستطيعه الناقد غير الشاعر أن ينظر الى المعاني . ولكنه يتخبط كثيراً عندما يحاول نقد البناء الشعري لانه لم يتمرس بهذه الصناعة ، ولكن من تمرس بها يعلم أن تلك اللفظة ، في ذلك البيت لا تقوم مقامها لفظة اخرى إن هي ادّت معناها جنت على الوزن والموسيقى. ولا يحسبنّ احد انه يمكن الاستخفاف بالديباجة ، فكما انه يتعذر فصل البياض عن الثلج ، والعطر عن البنفسج ، فكذلك يتعذر فصل اللفظة عن معناها الذي حلت به عندما تكونت في ذهن الشاعر ولا بأس عليّ أن اوضح هذه الفكرة بمثل .

روى لي احد اصدقائي الادباء ان زجّالاً في اميركا بعث بقصيدة زجلية الى نسيب له وفيها ذكريات الطفولة وتشوق الرجل الى الارض التي شهدته صبياً،وقد ذكر ختاماً لقصيدته أمه التي ماتت في اثناء غيابه فقال : «وببوس ارض المرّ فيها خيالها» . فلو انك حاولت ايراد هذا المعنى بألفاظ فصيحة لقلت :

أقبّل ارضاً مرّ فيها خيالها

بدون زيادة ولا نقصان . ولكن ألا ترى انك افقدت العبارة العامية رونقها بهذا الابدال فسقط جرسها لان موسيقاها قائمة بتسكين الالفاظ ؟ هذا مثل من مئات الامثال يدلك على الفرق بين تركيب وآخر. بقي ان نوضح ان الكثيرين من نقّاد اوروبا قد حاولوا الشعر فلم يفلحوا فصرفوا جهدهم الى النقد ، وانما افادوا من تمرسهم بالنظم واحاطوا بخفايا الصياغة الشعرية فجاء رأيهم جديراً بالاعتبار فضلاً عن انهم قلما نقدوا الفن الشعري نفسه الا من كان منهم في طبقة ڤاليري (Valéry) وملارمه (Mallarmé) .

وننصح للناقد ان يبني كوخاً يقيه المطر قبل ان يعمل على تهديم قصر فخم يبقى حرماً على الرياح الزعازع .

ولقد راعني في الآونة الاخيرة تسابق الشعراء الى امارات والقاب. ويظهر ان الألقاب الضخمة في الشرق تستهوي طبقات الامة جميعاً وفي جملتهم الشعراء . فاذا لم يأتهم اللقب هدية يخلعها عليهم صحفي او متطرف او زميل كريم ينتظر المقابلة بالمثل سعوا بانفسهم الى اللقب فهمسوه في اذن من يذيعه في الناس ثم تتداوله الالسن حتى يكاد يدوّن في اوراق هويّتهم ، وهكذا يصبح حقاً مكتسباً يصعب انتزاعه بغير قوة السلاح .

وعن هذه الاسباب وما جرى مجراها صدرت ألقاب كانت من قبيل لزوم ما لا يلزم، منها المشهور ومنها المحلي الذي جاء بسبب وزال

بزواله . واعرف نفراً من الزملاء الكرام لا يكتفون باللقب تصدّر به مقدمات قصائدهم بل يضعون بخط يدهم مقدمات طافحة بالنعوت اللمّاعة . ويذكرني ذلك بنادرة وقعت لاحد شيوخ الادب اذ كتب الى أحد الجرائد كلمة مضمونها نعي خالته . ولم يتكل على صاحب الجريدة بانشاء عبارة التعزية فكتبها هو بعد ان حوّط اسمه الكريم بتعويذة من الالقاب الضخمة فكان ناعياً معزياً مقرظاً في وقت واحد .

وقد خطر لبعضهم ان تكون للشعر امارة ولكن اسئلة عديدة تتبادر حينئذٍ الى الذهن حول السلطة الحكَم ، اتراها الفرد ام الجماعة ؟ فاذا كان الفرد فمن هو ذاك المقرر الذي يبرم حكمه فلا تهب الضجة ولا تقوم القيامة ؟ واذا كانت الجماعة فهل في وسعها، واكثريتها تتألف من أميّين وانصاف أميّين أن ترفع بأبصارها الى الاجواء العلى التي يسبح فيها الشاعر فتصدر حكماً له او عليه ؟ وانما رأي الجماعة في الشاعر يدل على انحطاط مرتبته . وهل في الشعراء ادنى من الذين يسبقهم الجمهور الى القافية بينا هم يلقون القصيدة ؟ بقي ان نتخذ الفئة الراقية للنظر في هذا الامر ولكن الفئة الراقية نفسها لا تستطيعه . فليس للعلماء او المؤرخين او اصحاب المهن الحرة او رجال السياسة رأي في الموضوع ، بل ليس للكتاب النابهين او الادباء العالمين أمثال الدكتور طه حسين أن يتولوا هذا الشأن .

اذن فالكلمة للشعراء وحدهم في أختيار أميرهم . ولكن بين ألوف النظامين في البلاد العربية من هم الشعراء ؟ وهب اننا بلغنا بعد لجهدا

الكثير والغربلة الدقيقة ، عتبة الاولمب واتفقنا على عددهم واسمائهم ، فهل يتم الاقتراع على الامارة سراً او علناً ؟ وهل تتساوى الاصوات في كفة الميزان ، وبين هؤلاء المقترعين الذي يتوهمون انفسهم أنصاف آلهة — والكبرياء داء الشعراء — من تراه يتنزل لسواه ؟ أيحل عليهم الروح القدس ويلاشون خيلاءهم ويستهدفون الحق وحده ؟

ثم ان اصحابنا الميامين ينتمون الى أقطار مختلفة وإن تآخت ومشت تحت لواء الضاد . فهل تتنازل مصر مثلاً لأديب من الكويت ولو كان أشعر أهل زمانه ؟

أتتغلب الكويت الصغيرة على بلاد النيل والنخيل والاهرام وابي الهول ؟

وترى اكثر الشعراء مصابين بمرض الادعاء فاذا اجتمع نفر منهم في نادٍ او سهرة تناشدوا القصائد ، وجامل بعضهم بعضاً، وقد يتحاملون على الغائبين ويرمونهم بجارح النقد . ولكن اذا جرؤ احدهم فنقد مخاطبه قامت القيامة ، فكل واحد منهم متحصن في برج عاجي تتزحلق عنه ألسنة النقاد الى جهنم .

وفي الحقيقة ، ليس سوى الزمن يعين لكل عصر أميره . أجل ان الزمن اقام شكسبير أمير شعراء الانكليز ، كما عين من قبله هوميروس أمير شعراء الاغريق . ان الحسد والاحقاد والمجاملة تذوب في بوتقة الزمن ولا يبقى سوى الحقيقة ، كما تذوب رقاق الغمائم التي تحجب الشمس حيناً وتبقى الشمس وحدها ساطعة .

ثم أوَ ليس في لقب « شاعر » وحده عزّ لصاحبه وهو في مفهوم الامم الراقية صلة الانسان الفاني بالخلود ؟ ولا يقتصر هذا الفخر على الشاعر نفسه بل يتعداه الى أمته، وطال ما تباهت قبائل العرب بشعرائها. ولا يقولنّ احد ان ذلك التفاخر لم يجاوز جاهلية القوم اذ كان الشاعر خطيب القبيلة ومؤرخها ومحاميها ورئيس وفدها الى الملوك وناشر مجدها، فإن النفس البشرية لم تتبدل ، وهي لاتزال هائمة بالجمال ، توّاقة الى الخلق ، مأخوذة بالعبقرية برغم طغيان المادة . الا ترى ان بريطانيا العظمى نفسها ، وهي الدولة التي تدير دفة الاقتصاد في جنبات المعمور لا تزال تدين بالروحانيات ، فاذا انت خيرتها بين التخلي عن شكسبير أو الهند ، تخلت عن الهند .

اجل انه شرف عظيم للانسان ان يكون شاعراً فلا يضيره تهكم الاغنياء المتحجرين ، او التجار الناطقين بلغة البضائع ، او الرجعيين المتزمتين ، او السياسيين الذين نذروا انفسهم للختل والمين،أو الترابيين الذين يقطعون الحياة منكسي الهام لا أفق لهم إلا الرغام .

ومن سوء حظ الشعر في البلاد العربية انه ابتلي بفئة من النظّامين او المأفونين الذين يتظاهرون بالشذوذ وغرابة الطبع حاسبين الشذوذ صفة مكمّلة للشاعر . ولقد اساؤوا الى انفسهم والى الادب أيما اساءة، وانطلقت الألسنة تسخر بهم وتلبسهم غريب النعوت . وان الفرق بين هؤلاء المهووسين والشعراء ، هو فرق ما بين المهرّج المتبذل والنابغة موليير (Molière) .

بقي ان اختم هذا البحث بكلمة حول الغزل القذر الذي لا يتورع

عنه كثيرون من الشعراء . فاذا قام لواضعي القصص البذيئة شبه عذر —لانهم يؤلفون لغاية تجارية— فأي عذر يقوم للادباء، اذ يرسمون الصور المخجلة في قصائدهم ويحسبونها جمالاً ؟ واين الجمال في هذه الوثبات العاطفية التي تسمم العقول ؟ وان مدلول لفظة الادب لغوياً لا يقتصر فقط على العلوم والمعارف، بل يتناول التهذيب ايضاً، فأين هو التهذيب في الغزل القذر ؟

لا ريب ان الله أودع البشر الميل الجنسي وسيلة للتناسل والنمو ضمن دائرة النظام . فمن سمح للشعراء باطلاق هذه الحيوانية المقيدة وتسميتها أدباً تطالعه بناتهم ، واخواتهم قبل أخوات غيرهم ، وازواجهم قبل الجميع ؟ ولو شئت ان استشهد لاستشهدت بألوف الابيات من هذا الغزل المعيب، بل لدللت النيابة العامة على هذه الجرائم التي ليست من الغزل بشيء ، ولكنها وصف دعارة جسدت في ألفاظ روعيت فيها الاوزان والقوافي . وهي ان دلت على شيء فعلى كثافة ذوق واضعيها . فأي غزل ترى ، حفظك الله ، في أبيات يصف فيها الشاعر طعم ريق الحبيبة وفيه من الجراثيم المرضية، ما يضاهي الجراثيم المعنوية التي تنفثها أقلام المتغزلين ؟

وانكى من هذا كله أن يشير أصحابنا الفَجَرة الى واقعات جرت في حياتهم الخاصة فيصفون بعض الخلوات المخجلة التي تقع تحت طائلة قانون الجزاء . وهنا لا أرى بُدّاً من تدوين فضيلة للشعراء الرمزيين الذين يشبّهون بالنور والالوان والعبير وما شاكل ذلك من المجاز النظيف ، ويصونون انفسهم من التزلق الى المنحدر فلا يكثرون من

الشم والضم اللذين يعمد اليهما سواهم من الفئة التي ذكرنا . وليس أسمج في الذوق من الشم عندما يدور الكلام على اللحم والدم ، وغالباً ما تأتي اللفظتان الشم والضم معاً فتكونان توأمين في التعبير ، على حد قولك أسوج ونروج ، واسحاق ويعقوب مثلاً .

ويعجبني قول سعيد عقل حين يقول :

سمراء يا حلم الطفوله   وتمنّع الشفة البخيله
لا تقربي مني وظلي   فكرة لغدي جميله

فهذا تعفف في الغزل . ولو فرضنا أن سعيداً لم يتعفف بالفعل فحسابه على ربه وانما يعنينا منه أدبه . ويعجبني قول شاعر آخر :

حاولت لثم انامل ندیانة   منسوجة بأصابع اللألاء
فسلختها عني وقد علقت بها   الالفاظ مثقلة بوهج دمائي
هذا بنانك بالنجيع مخضب   يهنيك نشر الراية الحمراء

وقول خليل صابر :

أعبد حلمي فيك بالاجمل العالي   م وأنسى أنه هيكل

وقول صلاح لبكي :

من أنت ؟ لا أدري وما ضرّني   جهلي ، وجهلي اللذة الباقيه

ولكن مالي أستشهد بشعراء صقلتهم الحضارة . ان بين شعراء الجاهلية الغرقى في البداوة ، وبين شعراء صدر الإسلام من هم أعف

لساناً ، وأرفع تهذيباً من الذين يعايشوننا في بيروت اليوم ، فاسمع عنترة العبسي القائل :

وأغضُّ طرفي ما بدت لي جارتي حتى يواري جارتي مأواها

ويتغزل بعبلة فيقول :

وسألت طير الدوح كم مثلي شجا بحنينه وأنينه المتردد
يا عبلُ كم يشجى فؤادي بالنوى ويروعني صوت الغراب الأسود
قالوا اللقاء غداً بمنعرج اللوى واطول شوق المستهام الى غد
وتخال أنفاسي اذا رددتها بين الطلول تحت نقوش المبرد

بل اسمع جميل بثينه يقول :

لا والذي تسجد الجباه له ما لي بما تحت ذيلها خبر
ولا بفيها ولا هممت بها ما كان الا الحديث والنظر

وقوله :

واني لأرضى من بثينة بالذي لو ابصره الواشي لقرّت بلابله
بلا وبألاّ استطيع وبالمنى وبالأمل المرجوّ قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى وبالحول ينقضي أواخره لا نلتقي واوائله

انتهى

فهرست

صفحة

لمحات في الفلسفة

صفحة

نفسية الجماهير

بحث في الاديان

شوارد

للمؤلف :

علي والحسين

فلسطين وأخواتها

الأمير بشير

مذكرات جريح

ملحمة عيد الغدير

ملحمة عيد الرياض

الصراع في الوجود

حكاية عمر

العنوان :

بولس سلامه — بيروت

دار الحضارة - بيروت
شارع بشارة الخوري - بناية سلامة
ص . ب : ١٧٤٣
هاتف : ٢٥٦٩٨٤

مطبعة الرهبانية اللبنانية تلفون : ٢٥٣٥٦٢